

جُحَارِيٌّ فِي بِلَادِ الْجِنِّ

جُحَّا فِي بَلَادِ الْجِنِّ

تأليف
كامل كيلاني



جُحَّا فِي بِلَادِ الْجِنِّ

كامل كيلاني

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهورة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٠١٧/١/٢٦

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: + ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: <http://www.hindawi.org>

إنَّ مؤسسة هنداوي سي آي سي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره،
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

رسم الغلاف: حنان بغدادي.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠٢٥١ ٨

جميع الحقوق الخاصة بالإخراج الفني للكتاب وبصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي
سي آي سي. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة لملكية العامة.

Artistic Direction, Cover Artwork and Design Copyright © 2017 Hindawi
Foundation C.I.C.

All other rights related to this work are in the public domain.

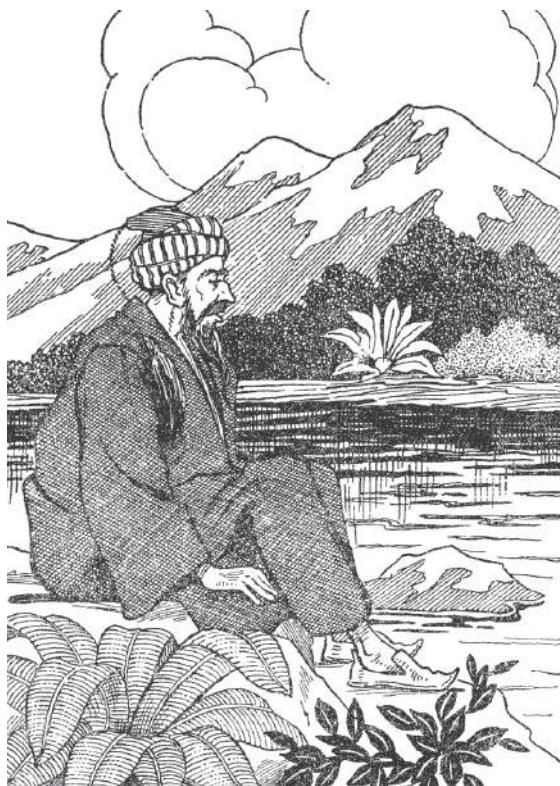
المحتويات

٧	١- الغَرِيقُ النَّاجِي
١٧	٢- الْخَوَارُ
٢٩	٣- الْعُكْمُوسُ
٣٧	٤- مِصْبَاحُ الْكَنْزِ
٦٣	٥- بَدْءُ السَّعَادَةِ
٧٥	٦- بَيْنَ يَدَيِ الْقَاضِي
٩١	٧- عَوْدَةُ «الْخَوَار»
١١٣	٨- اسْتِئْنَافُ السَّفَرِ

الفصل الأول

الْغَرِيقُ النَّاجِي

(١) لَيْلَةٌ لَا تُنسَى



وَقَعَتْ حَوَادِثُ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْجُحُوَيَّةِ الشَّائِقَةِ مُنْذُ أَكْثَرِ مِنْ مِائَتَيْنِ وَالْأَلْفِ مِنَ السِّنِينَ. ذَاتَ مَسَاءٍ: كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ»: عَبْدُ اللَّهِ دُجَيْنُ بْنُ ثَابِتٍ يَسِيرُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ. كَانَتْ لَيْلَةً لَا تُنْسَى! كَانَتْ حَافِلَةً بِالْمُفَاجَاتِ! كَانَ لَهَا فِي حَيَاةِ «أَبِي الْغُصْنِ» أَكْبَرُ الْأَثَرِ.

مَا أَطْنَهُ سَيِّهَا طَوْلَ حَيَاةِهِ. مَا أَطْنَ القَارِئَ سَيِّسَاهَا طَوْلَ حَيَاةِهِ.

كَانَ الظَّلَامُ يَغْمُرُ الْكَوْنَ. كَادَ الظَّلَامُ يَحْجُبُ الطَّرِيقَ عَنِ الْعُيُونِ، لَوْلَا بَصِيصٌ^١ ضَئِيلٌ مِنْ ضِيَاءِ النُّجُومِ، تُرْسِلُهُ السَّمَاءُ إِلَى الْأَرْضِ، كَمَا يُرْسِلُ الرَّجَاءُ نُورَهُ إِلَى ظُلُمَاتِ النَّفْسِ؛ فَيُكْشِفُ مِنْ يَأْسِهَا الْحَالِكِ،^٢ وَيَقْتَحُ لَهَا طَرِيقًا نَّيِّرًا تَسْلُكُهُ فِي ظُلُمَاتِ الْحَيَاةِ!

شَاعَ الصَّمْتُ وَسَادَ السُّكُونُ، لَوْلَا نَقِيقُ الضَّفَادِعِ الْمَرِحَّةِ مُنْبَعِثًا مِنْ ضِفَّةِ النَّهَرِ.

جَلَسَ «أَبُو الْغُصْنِ» هَادِئًا النَّفْسِ مُطْمِئِنًا، بِرَغْمِ مَا لَقِيَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ كَوَارِثَ وَأَحْدَاثِ.

لَوْلَأَنَّ بَعْضَ مَا حَلَّ بِنَبْطَلِ قِصَّتِنَا مِنَ الْمَصَابِيْبِ أَصَابَ غَيْرَهُ مِنَ النَّاسِ، لَمَا وَجَدَ الْعَرَاءُ إِلَى نَفْسِهِ سَيِّلًا، وَلَضَاقَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا بِمَا رَحْبَتْ، وَدَارَتْ بِهِ الْأَرْضُ قَائِمًا.

(٢) أَيَّامُ الشَّدَّةِ

تَسَالَّلَنِي: مَاذَا لَقِيَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنَ النَّكَبَاتِ؟

أَعْلَمُ — حَفَظْكَ اللَّهُ وَرَعَاكَ، وَسَلَّمَكَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَعَفَاكَ — أَنَّ أَحَدَ الْأَشْرَارِ أَحْرَقَ بَيْتَ «أَبِي الْغُصْنِ».

هَكَذَا عَبَسَ لَهُ وَجْهُ الزَّمَانِ! هَكَذَا تَوَالَتْ عَلَيْهِ الْمَصَابِيْبُ:

اسْتَهَدَفَتْ^٣ أُسْرَتُهُ لِلْجُوْعِ وَالْمَرِضِ. تَنَّكَرَ لَهُ أَصْحَابُهُ بَعْدَ أَنْ رَأَوُا مَا حَلَّ بِهِ مِنَ الْمُلِمَاتِ. هَجَرَهُ عَارِفُوهُ، وَابْتَعَدَ عَنْهُ خُلَصَاؤُهُ وَمُرِيدُوهُ. أَنْكَرَ صَدَاقَتَهُ مِنْ كَانُوا يَتَوَدَّدُونَ إِلَيْهِ وَيَلْتَمِسُونَ مَعْونَتَهُ. قَبَضُوا أَيْدِيهِمْ عَنْهُ بَعْدَ اِنْسَاطِهَا.

^١ بِرِيقُ أو مَعَان.

^٢ الشَّدِيدُ السَّوَادُ.

^٣ تَعَرَّضَتْ.

لَمْ تَمْتَدَ إِلَيْهِ – بِالْمُسَاعَدَةِ – يَدُ أَحَدٍ مِنْ أَصْدِقَائِهِ وَأَصْفِيائِهِ الَّذِينَ كَانَ يَدْخُرُهُمْ
لِلذَّوَائِبِ، وَيَسْتَبْقِيَهُمْ لِلشَّدَائِدِ.
لَمْ تَمَتْ لَهُ – بِذَلِكَ – كُلُّ أَسْبَابِ الشَّقَاءِ. لَمْ يَكُنْ يَنْقُصُهُ شَيْءٌ لِيَكُونَ أَتْعَسَ حَلْقِ اللَّهِ
إِنْسَانًا!

(٣) جَارَةُ مُحْسِنَةٍ

لَمْ يَكُنْ لَهُ مُعِينٌ – فِي نَكْبَتِهِ – غَيْرُ جَارِتِهِ «رُبِيدَةُ» الْمُحْسِنَةُ.
لَوْلَا عَطْفُ هَذِهِ الْجَارَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَيْهِ، وَعَلَى زَوْجِهِ وَوَلَادِهِ، لَهُلَكُوا جُوَاعًا!
لَكِنَّ اللَّهَ لَطَافٌ بِهِمْ، فَأَتَاحَهَا لَهُمْ لِتَتَعَهَّدُهُمْ فِي أَيَّامِ الْمِحْنَةِ وَالشَّقَاءِ.

(٤) نَفْسُ رَاضِيَةٌ

أَتَعْرِفُ – أَيُّهَا الْقَارِئُ الصَّغِيرُ – كَيْفَ لَقِيَ «أَبُو الْغُصْنِ» تِلْكَ الْأَحْدَاثَ وَالْخُطُوبَ؟
لَقِيَهَا بِاسِمِ التَّغْرِيْرِ وَضَاحِ الْجَبَيْنِ، عَامِرَ الْقَلْبِ بِنُورِ الْيَقِينِ!
لَعَلَّكَ تَدْهَشُ إِذَا قُلْتُ لَكَ: إِنَّهُ كَانَ يَسْتَقْبِلُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ الْهَائِلَةَ بِنَفْسٍ مُطْمَئِنَةٍ رَاضِيَةً.

(٥) عَلَى ضِفَافِ النَّهَرِ

كَانَتِ الضَّفَادِعُ – قَبْلَ حُضُورِهِ – تَمَلُّ الْجَوَّ بِنَقِيقَهَا. سَكَنَتِ الضَّفَادِعُ حِينَ رَأَتْهُ قَادِمًا
عَلَيْهَا.

اسْتَقَرَّ بِهِ الْجُلُوسُ عَلَى ضِفَافِ النَّهَرِ.
عَاوَدَتْهَا الشَّجَاعَةُ. أَنِسَتْ بِهِ اطْمَانَتُ إِلَيْهِ. أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ.
سُرْعَانَ مَا عَاوَدَهَا الْمَرْحُ، وَاسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا الْبَهْجَةُ.
انْطَلَقَتِ الضَّفَادِعُ تَقْفِرُ فِي الْفَضَاءِ، وَتَرْفَعُ أَصْوَاتَهَا بِمَا تَمْلِكُ مِنْ قِبَحِ الْغِنَاءِ!

(٦) نَجَّا هُنَّا الْغَرِيقِ

أَحَسَّ «أَبُو الْغُصْنِ» صَوْتَ جِسْمٍ يَسْقُطُ فِي الْمَاءِ. سَمِعَ اسْتِغَاثَةً ضَعِيفَةً حَافِتَّهُ، تَنْبَعُثُ فِي إِثْرِ الصَّوْتِ، طَالِبَةً النَّجْدَةَ. حَفَّ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَى النَّهْرِ. انْدَفعَ إِلَى مَصْدَرِ الصَّوْتِ. قَدَّفَ بِجُسْمِهِ فِي الْمَاءِ فِي غَيْرِ تَرْدُدٍ وَلَا وَجْلٍ. ظَلَّ يَسْبَحُ فِي إِثْرِ الْغَرِيقِ جَاهِدًا. عَثَرَ بِطَرَفِ نُوبِ! أَطْبَقَتْ يَدَاهُ عَلَيْهِ، وَجَذَبَهُ إِلَيْهِ. بَدَّلَ قُصَارَى جُهْدِهِ حَتَّى أَنْقَذَ الْغَرِيقَ. حَمَّلَهُ إِلَى الشَّاطِئِ، بَعْدَ أَنْ أَشْرَفَ كِلَاهُمَا عَلَى الْغَرَقِ.

(٧) شُكْرُ النَّاجِي

أَقْبَلَ «أَبُو الْغُصْنِ» يَتَأَمَّلُ وَجْهَ التَّأَعْسِ الَّذِي أَشْرَفَ عَلَى الْغَرَقِ، بَعْدَ أَنْ كَتَبَ اللَّهُ سَلَامَتَهُ عَلَى يَدِيهِ. أَبْصَرَ شَيْخًا زَرِيًّا الْهَيْئَةَ، مُغْمَى عَلَيْهِ. لَمْ يَلْبِسِ الشَّيْخُ أَنَّ أَفَاقَ مِنْ غَشْيَتِهِ. نَظَرَ إِلَى مُنْقَذِهِ بِعَيْنَيْنِ صَغِيرَتَيْنِ، يُظَلَّلُهُمَا حَاجِبَانِ كَثِيفَانِ.^٧ قَالَ لَهُ بِصَوْتٍ مُتَهَّدِّجٍ،^٨ يَكَادُ يَخْتَنُ مِنَ الْبُكَاءِ: «شُكْرًا لَكَ — يَا أَخِي — عَلَى مَا أَسْدَيْتَ إِلَيَّ مِنْ صَنْبِعِ!^٩ أَبَى لَكَ فَخْلُكَ وَمُرْوَعُكَ، إِلَّا أَنْ تُخَاطِرَ بِحَيَاكَ، لِتُنْقَذَ حَيَاكِي! جَزَّاكَ اللَّهُ — بِمَا صَنَعْتَ — خَيْرًا. لَوْ لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ، لَكَانَ الْهَلَاكُ تَصِيبِي!

^٤ بلا خوف.

^٥ يوم.

^٦ رجلاً طاعناً في السن.

^٧ غليظان.

^٨ متقطّع في ارتعاش.

^٩ جميل.

(٨) حوار عجيب

أنا في حيرةٍ من أمرِي. لستُ أدرِي - على التحقيق - أجميلاً صنعتَ معي، أم قبِحَا؟!
لستُ أدرِي - على التحقيق - أخيراً قدَّمتَ إلى، أم شرّاً؟!»
قالَ أبو الغصنِ: «ماذا تَعْنِي؟ أَكُنْتَ تَقْحِمُ عَامِدًا إلى إِغْرَاقِ نَفْسِكَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ؟!»
قالَ الشَّيخُ: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ! ذَلِكَ مَا لَا يَدُورُ بِبَالِ عَاقِلٍ كَرِيمٍ! مَا كُنْتُ غَيْبًا فَاسِدَ الرَّأْيِ،
وَلَا جَيَانًا ضَعِيفَ الْقَلْبِ، فَأَفْكَرَ فِي الْخَلْصَى مِنَ الْحَيَاةِ. إِنَّمَا زَلَّتْ قَدِيمِي، وَأَنَا أَمْشِي عَلَى
الْحِسْرِ. لَمْ أَلْبِثْ أَنْ هَوَيْتُ إِلَى قَاعِ النَّهَرِ. ثُمَّ حَمَلَنِي التَّيَارُ فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ الْحَالِكِ. ١ كُنْتُ
— لَوْلَا أَنْتَ — مِنَ الْمُغْرِقِينَ.»
قالَ أبو الغصنِ: «ما بالك - إذن - تَنْدِمُ عَلَى نَجَاتِكَ؟ لَمْ لَا تَحْمُدَ اللَّهَ عَلَى
سَلَامِكَ؟»

قالَ الشَّيخُ، فِي أَسْلُوبٍ حَزِينٍ، يَفِيضُ مَرَارَةً وَأَكْتَبَا: ١١ «حَمْدًا لِلَّهِ، عَلَى كُلِّ حَالٍ. كُلُّ
مَا يَتَأْلَمُ - مِنْ حَيْرٍ أَوْ شَرّ - مَقْدُورٌ عَلَيْنَا، لَا حِيلَةَ لَنَا فِي دَفْعِهِ، وَلَا سُلْطَانَ لَنَا عَلَى
رَدِّهِ». ١٢

(٩) آلام الشَّيخِ

قالَ أبو الغصنِ: «ماذا يَحْرُنُكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا؟»
قالَ الشَّيخُ: «مَتَّلٌ لِنَفْسِكَ شَيْخًا فَانِيًا مُتَّلٌ، مَا تَنْتَ أَسْرُتُهُ جَمِيعًا: أَوْلَادُهُ وَزَوْجُهُ،
وَأَخْوَاتُهُ وَعَشِيرَتُهُ، وَأَقْارِبُهُ الْأَدْنَوْنَ وَالْأَبْعَدُونَ. مَاتُوا جَمِيعًا!
أَصْبَحَ - فِي شَيْخُوختِهِ - يَعِيشُ بِلَا أَهْلٍ وَلَا أَمْلِ. أَصْبَحَ لَا يَجِدُ - فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ
— فُؤَادًا يَهْفُو ١٢ إِلَيْهِ، وَلَا يَظْفَرُ بِمُوْرِدٍ عَيْشٍ يَقْتَاتُ مِنْهُ، بَعْدَ أَنْ حُمِّلَ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعينَ،

١٠ الشديد السواد.

١١ غمّاً، وسوء حال، وانكساراً من الحزن.

١٢ ولا قدرة.

١٣ يتحرّك ويعطف عليه.

مِنْ أَعْبَاءِ السَّنِينَ. كَيْفَ يَكُونُ شُعُورُ هَذَا الرَّجُلِ الْفَانِي، إِذَا هَيَّا تُ لَهُ الْمُصَادَّفَةُ أَنْ يَغْرِقَ،
ثُمُّ كُتِبَتْ لَهُ السَّلَامَةُ مَرَّةً أُخْرَى؟
أَتَرَاهُ يَسْعَدُ بِذَلِكَ أَمْ يَسْقَى؟ أَتَرَاهُ يَبْتَهِجُ بِاسْتِرْدَادِ حَيَاةِهِ، أَمْ يَأْسُفُ لِخَلَاصِهِ وَنَجَاتِهِ؟
إِنَّ لِلْفَتَى وَالشَّابَ — مِنْ أَمْتَالِكَ — آمَالًا كِبَارًا، يَسْعَى إِلَى تَحْقِيقِهَا وَالظَّفَرِ بِهَا.
فَإِذَا بَلَغَا مَا بَلَغُتُ مِنَ السَّنِينَ، وَذَرَرَا^{١٤} عَلَى السَّبْعِينَ، فَأَيُّ أَمْلٍ يَبْقَى لَهُمَا فِي الْحَيَاةِ؟ أَيُّ
مَطْلَبٍ يَسْعَى لَهُ الشَّيْخُ الْفَانِي وَيَتَمَّنُهُ؟»

(١٠) بِرَاءَةُ مِنَ الْضَّعْفِ

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ» يُنَاجِي نَفْسَهُ، فِي صَوْتٍ حَافِتِ: «مَا بَالُ هَذَا الرَّجُلِ يَسْتَنْكِرُ الْبَقَاءَ،
وَيَلْعَنُ الْحَيَاةَ؟!»
كَانَ سَمِعُ الشَّيْخِ مُرْهَفًا.^{١٥} لَمْ تُقْلِتْ مِنْهُ تِلْكَ الْهَمْسَةُ.^{١٦} قَالَ لِمُنْقِذِهِ قَوْلَةً الْمُنْتَبَّثِ
مِمَّا يَقُولُ: «كَلَّا، يَا صَاحِبِي. لَا تُسْئِي ظَنَّكَ بِي. لَسْتُ كَمَا تَقُولُ. مَا أَنَا بِمُنْغِضٍ لِلْبَقَاءِ،
وَلَا گَارِي لِلْحَيَاةِ. كَلَّا، لَمْ أَسْتَنْكِرِ الْحَيَاةَ كَمَا ظَنَّتْ، وَلَا لَعْنُهَا كَمَا تَوَهَّمْتَ. أَنَا أَحْتَفِرُ مَنْ
يَفْعَلُ ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِحْقَارِ.

(١١) آهَةُ الْمَحْزُونِ

عِشْتُ — طُولَ عُمْرِي — مُؤْمِنًا بِاللَّهِ، مُسْتَشِلِّمًا لِقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ، مُفَوِّضًا أَمْرِي لَهُ،^{١٧} تَحْرِي
عَلَيَّ مَشِيَّتِهِ، وَيَنْتَهِي أَجْلِي مَنِيَ اقْتَضَتْ إِرَادَتُهُ. لَمْ يَمْنَعْنِي إِيمَانِي بِالْقَدِيرِ عَنِ السَّعْيِ فِي
مَنَاكِبِ الْأَرْضِ،^{١٨} فِي طَلَبِ الرِّزْقِ.

١٤ زادًا.

١٥ دقِيقًا حادًا.

١٦ الصوت الخفي.

١٧ تارِكًا إِلَيْهِ الْحُكْمَ فِيهِ.

١٨ أرجائِهَا ونواحيها.

إِيَّاكَ أَنْ تَأْخُذَ عَلَيَّ مَا سَمِعْتَ! إِنَّهَا أَهْمَةُ حَمْقَاءُ، سَبَقْتُ إِلَى حَاطِرِي، فَنَطَقَ بِهَا لِسَانِي فِي سَاعَةِ الْمَعْرِضَةِ، لَمْ يَتَدَبَّرْ عَقْلِي مَغْرِبَاهَا، وَلَا تَبَثَّتَ فِكْرِي مِنْ مَعْنَاهَا!»^{١٩} أَطْرَقَ الشَّيْخُ لَحْظَةً. طَأْطَأَ رَأْسَهُ بُرْهَةً.^{٢٠} كَانَنَا خَجَلٌ مِمَّا فَاهُ بِهِ لِسَانُهُ مِنْ شَكْوَى.

(١٢) أَسْبَابُ السَّعَادَةِ

قطَعَ «أَبُو الْغُصْنِ» عَلَى الشَّيْخِ صَمْتَهُ. سَأَلَهُ: «مَنِ الرَّجُلُ؟» أَجَابَهُ الشَّيْخُ: أَسْمِي: «لَعْلُمُ»، كُنْيَتِي: «أَبُو شَعْشَعٍ»، اسْمُ أَبِي: «دَعْدَعُ»، اسْمُ جَدِّي: «هَدْرَشُ».»

صَمَتَ الشَّيْخُ قَلِيلًا، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ قَائِلًا: «خَبَرْنِي أَنْتَ! مَا بِالْكَ مُنْفَرِدًا فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ، فِي هَذَا الْمَكَانِ الْمُوْحِشِ؟ لِمَاذَا آتَرْتَ الْعُزْلَةَ، فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ، كَانَنَا تَقْرُّ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِكَ؟ إِذَا صَحَّتْ فِرَاسَتِي، وَصَدَقَ ظَنِّي، فَمَا إِخَالُكَ سَعِيدًا فِي حَيَاةِكَ!» قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «كَلَّا، يَا صَاحِبِي. السَّعَادَةُ لَمْ تُفَارِقْنِي طُولَ حَيَاتِي. مَا أَذْكُرُ أَنَّنِي شَعَرْتُ بِالْتَّعَاسَةِ يَوْمًا وَاحِدًا؛ عَلَى كُثْرَةِ مَا أَصَابَنِي مِنَ الْمَصَابِيْنَ وَالْأَلَامِ. أَلَا تَرَى كَيْفَ تَتَوَالَى الْفُصُولُ الْأَرْبَعَةُ، فِي أَثْنَاءِ السَّنَةِ: صَيْفٌ يَتْلُوْهُ خَرِيفٌ، وَشَتَاءً يَتْلُوْهُ رَبِيعٌ؟!»

كَذَلِكَ يَتَعَاقَبُ حُزْنٌ وَفَرَحٌ. انْقِبَاضٌ وَانْسَاطٌ، يَأْسٌ وَرَجَاءٌ. شِدَّةٌ وَرَحَاءٌ. عُسْرٌ وَيُسْرٌ. فَقْرُ وَغَنِّي. ظُلْمَةٌ وَنُورٌ. مَرَضٌ وَصَحَّةٌ. لَا يَبْقَى حَالٌ وَلَا يَدُومُ! إِنَّ الْحُزْنَ وَالسُّرُورَ – فِيمَا أَرَى – يَتَعَاقبَانِ عَلَى الْإِنْسَانِ، كَمَا يَتَعَاقَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ.»

قَالَ الشَّيْخُ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «مَا سَمِعْتُ – طَوَالَ حَيَاتِي – أَحْسَنَ مِنْ حَدِيثِكَ، وَلَا أَحْكَمَ مِنْ رَأْيِكَ! لَئِنْ صَحَّ ظَنِّي؛ لِيَكُونَنَّ لَكَ شَأْنٌ عَظِيمٌ فِي حَيَاتِكَ، وَبَعْدَ مَمَاتِكَ.»

^{١٩} زَمَنًا.

^{٢٠} اخْرَت.

(١٣) مَأْسَأَةُ «أَبِي الْغُصْنِ»

أَطْرَقَ الشَّيْخُ لَحْظَةً، اسْتَأْنَفَ بَعْدَهَا قَائِلًا: «تُرَى: مَنْ تَكُونُ، أَيُّهَا السَّيِّدُ الْكَرِيمُ؟»
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: اسْمِي: «عَبْدُ اللَّهِ دُجَيْنٌ»، كُنْتِي: «أَبُو الْغُصْنِ»، اسْمُ أَبِي: «ثَائِتُ»،
اسْمُ جَدِّي: «جَحْوَانٌ».

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «مَا صِنَاعَتُكَ؟»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «كُنْتُ – إِلَى يَوْمِ أَمْسٍ – تَاجِرًا غَنِيًّا. لَكِنَّ حَرِيقًا شَبَّ فِي بَيْتِي
وَمَخْرَنِي، التَّهَمَّهَا الْحَرِيقُ جَمِيعًا. أَتَى الْحَرِيقُ عَلَى كُلِّ مَا أَمْلَكَ مِنْ أَثَاثٍ وَبَضَائِعَ. لَمْ
يُبْقِ لِي الْحَرِيقُ – مِمَّا مَلَكْتُهُ – كَثِيرًا، وَلَا قَلِيلًا.

حَمْدًا لِلَّهِ، عَلَى كُلِّ حَالٍ. تَدَارَكَنِي اللَّهُ بِلُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ، سَلَمَ كُلُّ مَنْ فِي الدَّارِ ... سَلَمْتُ
رَوْجَتِي، وَوَلَدِي وَابْنِتِي. شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى بَدِيعِ الْأَطْفَافِ.

كَدَنَا نَهْلُكُ جُوَعاً؛ لَوْلَا جَارَتْنَا الْكَرِيمَةَ «رُبِيْدَةً». مَا أَطْبَبَ قَلْبَهَا، وَمَا أَكْرَمَ صُنْعَهَا!
شُكْرًا لَهَا. مَدَتْ إِلَيْنَا يَدَ الْمُعْوَنَةِ، أَحْوَجَ مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهَا. تَكَلَّتْ بِإِطْعَامِ رَوْجِي وَوَلَدِي.
تَسْأَلُنِي: مَاذَا لِقَيَ الْجَانِي بَعْدَ أَنْ أَوْقَدَ النَّارَ فِي بَيْتِي وَمَخْرَنِي؟ الْجَانِي فَرَّ. ٢١ لَمْ
يَقْفُ لَهُ أَحَدٌ عَلَى أَثَرِ!»

قَالَ الشَّيْخُ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «مَا أَعْجَبَ قِصَّتَكَ! أَنْسَتِنِي مَصَائِبُكَ – يَا «أَبَا الْغُصْنِ» – كُلَّ
مَا لِقِيْتُ فِي حَيَاةِي مِنْ أَحَدَاثٍ وَآلَامٍ».

(١٤) فَضْلُ الصَّبَرِ

عَادَ الشَّيْخُ إِلَى صَمْتِهِ. أَطْرَقَ هُنْيَهَةً. ارْتَعَشَ جِسْمُهُ. ظَلَّ يَصْرُفُ نَابَةً. ٢٢
اسْتَأْنَفَ الشَّيْخُ يَقُولُ: «كَيْفَ تَكُونُ الدُّنْيَا إِذَا حَلَّتْ مِنْ ذَوِي الْمُرْوَةِ وَالْفَضْلِ؟ كَيْفَ
تَكُونُ الْحَيَاةُ إِذَا حَلَّتْ مِنْ كِرَامِ الْمُحْسِنِينَ؟»

٢١ هرب.

٢٢ يُلْكُ ضرسه، فيُسمَع له صوت.

ظَنَّ «أَبُو الْغُصْنِ» أَنَّ الشَّيْخَ يُعَانِي مِنْ الْآمِ الْبُرْدِ مِثْلَ مَا يُعَانِي. حَسِبَ ضَيْفَهُ يَسْتَجْبِيهِ الْمَعْوِنَةَ. ٢٣ حَسِبُهُ يَرْتَجِفُ أَلَمًا.

قَالَ لَهُ «أَبُو الْغُصْنِ»: «دَعْنَا مِنْ حَدِيثِ الْأَحْزَانِ لَيْسَ فِي ذِكْرِيَاتِ الْمَصَائِبِ فَائِدَةٌ تُرْجَمَهُ سَيِّقَضِي وَقْتُ الشَّدَّةِ إِذَا صَرَبَنَا لَهَا سَيَعْقُبُهُ وَقْتُ الرَّحَاءِ سَوْفَ تُسِيَّنَا بِهُجَنَّهُ جَمِيعَ مَا كَابَدْنَاهُ مِنْ مَصَائِبِ الدِّينِيَا وَالآمِهَا.

مَتَى صَبَرَ الْإِنْسَانُ لِجَهْدِ نَازِلَةِ أَصَابَتْهُ، وَوَطَنَ نَفْسَهُ عَلَى احْتِمَالِهَا، وَابْتَسَمَ لِلْكَوَارِثِ وَالنَّكَبَاتِ — غَيْرَ هَيَّابٍ وَلَا وَجِلٍ — لَمْ تَلْبِثِ الْغُمَّةُ أَنْ تَنْجَلِي عَنْهُ وَيَنْسَاهَا، كَمَا نَسَى غَيْرَهَا مِنْ الْمَصَائِبِ وَالآمِمِ.

الْعَاقِلُ مَنْ يَرْضِي بِأَحْكَامِ الْقَضَاءِ! هَيْهَاتُ أَنْ يَسْتَسِلِمَ الْعَاقِلُ لِلصَّفْعِ! إِنَّهُ عَلَى ثَقَةِ مِنْ أَنَّ لِكُلِّ شَدَّةٍ مُدَّةً، ثُمَّ تَنْقَضِي. إِنَّهُ يَعْلَمُ: أَنَّ مَنْ صَبَرَ لِلْمُحْنَةِ غَلَبَهَا، وَانْتَصَرَ عَلَيْهَا!»

(١٥) في ضِيَافَةِ «أَبِي الْغُصْنِ»

صَمَتَ «أَبُو الْغُصْنِ» قَلِيلًا. اسْتَأْنَفَ حَدِيثَهُ قَائِلًا: «هَلْمُ، يَا أَبَا شَعْشَعٍ. اتَّبَعْنِي إِلَى الدَّارِ أَنْتَ وَاجِدٌ فِيهِ — عَلَى ضِيقِهِ — مَكَانًا تَأْوِي إِلَيْهِ. سَنُخْضُرُ بَعْضَ الْحَشَائِشِ وَالْأَعْشَابِ. سَوْفَ نُوْقِدُهَا، لِنُجْفَفَ ثِيَابَنَا الْمُبْتَأَةَ.»

أَطْرَقَ «أَبُو شَعْشَعٍ» لَحْظَةً. اسْتَأْنَفَ يَقُولُ: «قَيْلُتُ ضِيَافَتَكَ، يَا أَبَا الْغُصْنِ». شُكْرًا لَكَ! لَعَلَّ اللَّهَ — سُبْحَانَهُ — يُوْفَقُنِي ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى أَدَاءِ هَذَا الْحِمْيلِ إِلَيْكَ.»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «إِنَّ فِي صُنْعِ الْمَعْرُوفِ لَذَّةً يَتَضَاءَلُ أَمَامَهَا كُلُّ جَزَاءٍ مَهْمَا جَلَّ، وَتَصْغُرُ — بِالْقِيَاسِ إِلَيْهَا — كُلُّ مُكَافَأَةٍ مَهْمَا عَظُمَتْ. حَسِبِيُّ سُرُورًا وَابْنَهَا جَانِبُ مُمْكِنَتِي اللَّهُ — عَلَى فَقْرِي — مِنَ الْقِيَامِ بِوَاجِبِ الضِّيَافَةِ، دُونَ نَظَرٍ إِلَى جَزَاءٍ وَلَا شُكْرٍ. فَخَيْرُ مَا يُكَافِأُ بِهِ الْإِنْسَانُ — يَا سَيِّدِي — شُعُورُهُ بِأَنَّهُ أَدَى وَاجِبَهُ، وَفَرَحُهُ بِقُدْرَتِهِ عَلَى أَدَاءِ الْوَاجِبِ! هَلْمُ، يَا صَاحِ، فَأَعْمَدْ ذِرَاعِي. اتَّكِئْ عَلَيْهَا لِتُسَاعِدَكَ عَلَى السَّيْرِ.»

(١٦) دَعَوَاتُ مُسْتَجَابَةٌ

قالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «مَا أَبْعَدَ نَظَرَكَ، وَأَحْكَمَ رَأْيَكَ، وَأَصْدَقَ نِيَّتَكَ، وَأَسْلَمَ طَوِيَّتَكَ! أَنَا عَلَى ثِقَةٍ أَنَّ الْفَوْزَ وَالْفَلَاحَ مُقْدَرٌ لَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ جَمِيعًا! اللَّهُ — سُبْحَانَهُ — يَتَوَلَّ حِمَائِتَكَ، وَيُخْلُدُ — عَلَى مَرْزَقِ الرَّبَّمَانِ — اسْمَكَ وَسُمْعَتَكَ. اللَّهُ — سُبْحَانَهُ — يُسَخِّرُ لَكَ الْإِنْسَانَ وَالْجِنَّ لِمُعَاوِنَتِكَ وَخِدْمَتِكَ، وَيَجْعَلُهُمْ طَوْعَ مَشِيَّكَ، وَرَهْنَ إِشَارَتَكَ».

مَشِيٌّ كَلَاهُمَا فِي ضَوْءِ النُّجُومِ الْمُتَلَقَّةِ^{٢٤} فِي السَّمَاءِ يَلْفُهُمَا ظَلَامُ اللَّيْلِ، وَيُؤْنِسُهُمَا نَقِيقُ الضَّفَادِعِ، وَيَحْوِطُهُمَا اللَّهُ بِرِعَايَتِهِ، وَيَكْلُوْهُمَا^{٢٥} بِعِنَايَتِهِ.

^{٢٤} المُتَلَقَّةُ.

^{٢٥} يَحْفَظُهُمَا.

الفصل الثاني

الخوار

(١) الْحُجْرَةُ الْبَاقِيَةُ

كانت الحجرة التي أبقاها الحريق ليظل قصتنا الصابر: «أبي الغصن» وأسرته مخزناً أعدّه في أيام ترائيه،^١ بالقرب من بيته الذي التهمته النار. كان يفصل بين المخزن والدار فناءٌ فسيح. جمّع «أبو الغصن» في هذا الفناء كلّ ما استطاع إبقاؤه من اللهم، من محتويات داره. وضعه «أبو الغصن» بغير نظامٍ. أقام «أبو الغصن» وزوجته، وأبنه وبناته، في الحجرة الباقية. استطاعت «ربابة» زوجة «أبي الغصن» — بعد زمنٍ قليل — أن تجعل من المسكن الحمير مثلاً حسناً للدار المنظمة المريحة. قسمته أربعة أقسام: قاعة للاستقبال، وقاعة للأكل، وقاعة للمطبخ، وقاعة للنوم. لقيت «ربابة» مُساعدةً كريمةً من جاراتها «زبيدة».

(٢) الأُسْرَةُ الْحَرِينَةُ

فتح «أبو الغصن» باب داره، فماذا رأى؟

^١ غناه.

^٢ الفناء: الساحة أمام البيت.

رَأَى زَوْجَتُهُ «رَبَابَةَ» جَالِسَةً عَلَى مَقْعِدِهَا، مَائِلًا رَأْسُهَا، وَالدُّمُوعُ تَسِيلُ مِنْ عَيْنِيهَا. رَأَى جَارَتَهَا «رُبِيدَةَ» إِلَى جَانِبِهَا – تُعَاوِنُهَا وَتَؤْسِيَهَا،^٣ وَتَهُونُ عَلَيْهَا خَطْبَهَا وَتَسْلِيَهَا. رَأَى وَلَدِيهِ «جَحْوَانَ» وَ«جُحَيَّةَ» يَنْظَرَانِ إِلَيْهَا، بِعُيُونِهِمَا الْأَرْبَعَ الْوَاسِعَةِ، تَنْبَيَثُ مِنْ نَظَرَاتِهَا الدَّهْشَةُ، نُمَّ يَسْتَسْلِمَانِ لِلْحُرْزِنْ. كَانَنَا كَانَا يَسْتَعْطِفَانِ أَمْمُهَا؛ إِذْ يُحَدِّقَانِ فِي وَجْهِهَا – بَيْنَ حِينِ وَآخَرَ – لَعَلَّهَا تَكُفُّ عَنِ الْبُكَاءِ. كَانَا يَجْلِسَانِ الْقُرْفُصَاءَ تَحْتَ قَدَمَيِّ أَمْمِهَا. أَيُّهَا الصَّغِيرُ الْعَزِيزُ: أَتَعْرِفُ مَعْنَى الْقُرْفُصَاءِ؟



إِنْ كُنْتَ لَمْ تَعْرِفَهَا مِنْ قَبْلُ فَاعْرِفْهَا الْآنَ، فَهِيَ كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ، لَا تَسْتَغْنِيَ عَنْهَا فِي حَدِيثِكَ وَكِتَابِكَ، وَسَأَرْسُمُ لَكَ كَيْفَ جَلَسَ الْقُرْفُصَاءِ: جَلَسَ أَحَدُ وَلَدِيهِ لَاصِقًا فَخِدَّيهِ

^٣ تُصْبِرُهَا وَتَعْرِيَهَا.

بِبَطْنِهِ، وَاضِعًا يَدِيهِ عَلَى سَاقِيهِ. جَلَسَ الْأَخْرُ عَلَى رُكْبَتِيهِ، مُنْكَبًا، لَاصِقًا بَطْنَهُ بِقَخْدَيْهِ، جَاعِلًا كَفَفَيْهِ تَحْتَ إِبْطَلِيهِ.
هَا أَنْتَ ذَا تَرَى لِلْقُرْفُصَاءِ جِلْسَتِينِ: اخْتَارَ «جَحْوَانُ» إِحْدَاهُمَا، وَاخْتَارَتْ «جُحَيَّةُ»
الْجِلْسَةَ الْأُخْرَى مِنْهُمَا.

(٣) الْغَرِيمُ الْقَاسِي

وَقَفَ «أَبُو الْغُصْنِ» عِنْدَ بَابِ الدَّارِ مُتَجَلِّدًا. كَانَتْ عَلَى شَغْرِهِ ابْتِسَامَتُهُ السَّاخِرَةُ الَّتِي
لَمْ تُفَارِقْ شَفَتَيْهِ طُولَ عُمْرِهِ. قَالَ لِزَوْجَتِهِ «رَبَابَة» مُتَجَمِّلًا: «مَاذَا جَدَّ مِنَ الْكَوَارِثِ
وَالْمُصَاصَبِ، أَيْنُهَا الرَّوْجَةُ الْعَرِيزَةُ؟»

أَجَابَتْهُ «رَبَابَةُ»، دُونَ أَنْ تَقْعَ عَيْنَاهَا عَلَى ضَيْفِهِ الَّذِي كَانَ ظَلَامُ اللَّيْلِ يُخْفِيهِ عَنْ
نَّاَظِرِيَّهَا: «فِي صَبَاحِ هَذَا الْيَوْمِ، جَاءَ غَرِيمُكَ الشَّيْخُ «الْعُكْمُوسُ»، يُطَالِبُكَ بِمَا عَلَيْكَ مِنْ
دَيْنِنِ. جَاءَ «الْعُكْمُوسُ» يُطَالِبُكَ بِدَنَانِيَّهِ الْمِائَتَيْنِ الَّتِي أَفْرَضَكَ^٧ إِيَّاهَا. جَاءَ يُدَكِّرُكَ أَنَّ
مَوْعِدَ الْوَفَاءِ حَلَّ.

بَذَلْتُ جُهْدِيِّي فِي اسْتِرْضَاءِ الْغَرِيمِ. ضَرَعْتُ إِلَيْهِ أَنْ يُمْهِلَنَا قَلِيلًا رَيْثَمَا نُدَبِّرُ لَهُ دَيْنَهُ.
أَبَى غَرِيمُكَ الْقَاسِيِّ أَنْ يَسْتَجِيبَ لِدُعَائِي! ذَهَبَتْ جُهْودِي عَلَى عَيْرِ طَائِلٍ! لَمْ يَزِدْهُ رَجَائِي
وَضَرَاعَتِي^٨ إِلَّا إِصْرَارًا وَعِنَادًا.

أَبَى أَنْ يَلِينَ قَلْبُهُ الصَّحْرَى. اتَّنْزَعَتْ مِنْهُ الرَّحْمَةُ. أَفْسَمَ «الْعُكْمُوسُ» لَيْبِيَعَنَّ كُلَّ مَا
بَقِيَ لَنَا مِنْ مَتَاعٍ وَأَثَاثٍ وَمَسْكَنٍ، إِذَا لَمْ نُؤَدِّ إِلَيْهِ دَيْنَهُ غَدًا.»

^٤ مَظَاهِرًا بِالصَّبْرِ وَالْقُوَّةِ.

^٥ مَخْفِيًّا مَسْكَنَتِهِ وَذَلِكَ.

^٦ دَائِنَكَ.

^٧ سَأْفَلَكَ.

^٨ تَذَلِّيَ.

(٤) رَجَاءُ الصَّابِرِ

أَتَعْرَفُ كَيْفَ كَانَ جَوَابُ «أَبِي الْغُصْنِ»؟
 قَالَ، وَعَلَى فَمِهِ ابْتِسَامَةُ الْوَاقِعِ الْمُسْتَقِيقُونَ: «لِتَكُنْ مَشِيَّةُ اللَّهِ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَا يَخْدُلُ عَبْدُهُ^٩؛ مَا دَامَ يَبْذُلُ جُهْدَهُ، وَلَا يَدْخُلُ وُسْعَهُ فِي الْعَمَلِ وَالسَّعْيِ فِي مَنَاكِبِ الْأَرْضِ. لَا زَالَ أَمَانَنَا مُتَسَعٌ مِنَ الْوَقْتِ. مَنْ يَدْرِي؟ رُبَّمَا جَاءَنَا الْفَرْجُ فِي لَمْحَةِ عَيْنٍ: فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ رُبَّمَا تَبَدَّلَ عُسْرُنَا يُسْرًا، كَمَا بَدَّلَ الْحَرِيقُ يُسْرَنَا عُسْرًا!!»

(٥) ضَلَالُ الْحَاقِدِ

صَمَتَ «أَبُو الْغُصْنِ» لَحْظَةً. اسْتَأْنَفَ بَعْدَهَا قَائِلًا: «مَاذَا يُجْدِيهِ أَثَاثُ الْبَيْتِ؟! لَنْ يَبِعِيَهُ بِأَكْثَرِ مِنْ عِشْرِينَ دِينَارًا. أَنَا أَعْرُفُ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ بِهَا أَنْ يَسْتَوِيَ فِي دِينِهِ، وَيَسْتَرِدَ حَقَّهُ. إِنَّمَا يَقْصِدُ إِلَى إِسَاءَتِي وَأَذْيَّتِي، وَيَتَوَحَّى إِلَّا حَقَّ الْحَرَرِ بِي، وَتَسْوِيَةً سُمْعَتِي. كَلَّا، لَنْ يُطْفَرُهُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، كَلَّا.»

(٦) وَاجِبُ الضَّيْفِ

تَذَكَّرَ «أَبُو الْغُصْنِ» ضَيْفَهُ. قَالَ لِزَوْجِهِ «رَبَّابَةً»: «إِنَّ مَا نَزَّلَ بِنَا مِنْ خُطُوبٍ وَأَحْدَاثٍ لَا يُسْوِغُ^{١٠} إِهْمَالَنَا ضَيْفَنَا الْغَرِيبَ، السَّيِّدُ: «أَبَا شَعْشَعٍ»، بَعْدَ أَنْ تَفَضَّلَ عَلَيْنَا بِزِيَارَتِهِ! مَا أَجْدَرَنَا أَنْ نُؤْدِي إِلَيْهِ بَعْضَ مَا يُفْرِضُهُ عَلَيْنَا وَاجِبُ الضَّيَافَةِ وَحُقُوقُهَا! يَجِبُ أَنْ نَكُّفَّ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ. مَاذَا يَعْنِي سَوَانَا مِنْ أُمُورِنَا؟ هُمُونَا تَحْصُنَا وَحْدَنَا. هُمُونَا لَا تَعْنِي سَوَانَا فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ.» قَالَتْ «رَبَّابَةً»: «صَدَقْتَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»، وَبِالْحَقِّ نَطَقْتَ.»

^٩ لا يترك نصرته و ساعنته.

^{١٠} لا يجيز.

اعْتَصَمْتُ «رَبَابَةً» بِالصَّبَرِ، كَفَكَتْ دَمْعَهَا. حَفَتْ لِاسْتِقْبَالِ الضَّيْفِ. رَحَبَتْ بِهِ أَكْرَمَ تَرْحِيبِهِ. أَنْسَاهَا حُزْنَهَا مَا رَأَتْهُ فِي مَخَالِلِهِ^{١١} مِنْ شَبَهِ شَدِيدٍ بِأَعْزَى النَّاسِ عِنْدَهَا. حُيِّلَ إِلَيْهَا أَنَّهَا تَرَى فِي مُحِيَّاهُ^{١٢} صُورَةً عَزِيزَةً عَلَيْهَا: صُورَةً أَبِيهَا الشَّيْخِ الَّذِي فَقَدَتْهُ مُنْذُ زَمِنِ طَوِيلٍ. اشْتَدَتْ حَفَافَةُ «رَبَابَةً» بِالضَّيْفِ وَإِيَّاهُمَا. ضَاعَفَتْ تَكْرِيمَهَا لَهُ. حَفَتْ جَارَتُهَا «رُبَيْدَةً» لِمُسَاعَدَتِهَا. أَعَدَتْ مَائِدَةً حَافِلَةً بِلَذَائِذِ الْأَطْعُمَةِ، أَحْضَرَتْهَا مِنْ بَيْتِهَا. أَكْلُوا وَشَرِبُوا هَبِيئًا مَرِيئًا.

(٧) حِدِيثُ الْمَائِدَةِ

انْتَهَرَ «أَبُو الْغُصْنِ» تِلْكَ الْمُنَاسَبَةَ. قَصَّ عَلَيْهِمْ قِصَّةَ ضَيْفِهِ «أَبِي شَعْشَعٍ»، وَمَا حَدَثَ لَهُ، وَكَيْفَ كَتَبَ اللَّهُ سَلَامَتَهُ عَلَى يَدِيهِ. هَنَّاتُهُ «رَبَابَةً». تَمَنَّتْ لَهُ أَطْيَبَ الْأَمَانِيِّ. شَكَرَ «أَبُو الْغُصْنِ» وَ«رَبَابَةً» لِجَارَتِهِمَا «رُبَيْدَةً»؛ كَرَمَهَا. دَعَوَا اللَّهَ أَنْ يَجْزِيَهَا عَنْهُمَا وَعَنْ ضَيْفِهِمَا حَيْرَ الْجَزَاءِ. قَالَتْ «رُبَيْدَةً»: «لَوْ عَلِمْنَا مِقْدَارَ مَا أَسْلَفْتُمَا إِلَيْنَا فِي أَيَّامِ الشَّدَّةِ مِنْ حَسَنَاتِ وَمَكْرُومَاتِ، لَتَضَاءَلَ مَا قَدَّمْتُهُ إِلَيْكُمَا، وَلَظَهَرَ تَقْصِيرِي أَمَامَكُمَا وَاضْحَى جَلِيًّا».

(٨) وَاحِبُ الشُّكْرِ

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «إِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - يُحِبُ الْمُحْسِنِينَ مِنْ عِبَادِهِ وَالشَّاكِرِينَ. حَيْرٌ مَا يُعْبِرُ بِهِ الْقَادِرُ عَنْ شُكْرِ اللَّهِ أَنْ يُوَسِّي^{١٣} إِحْوَانَهُ فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ، وَيُقْبِلَ عَلَيْهِمْ إِذَا مَا تَنَكَّرَ لَهُمُ الزَّمَانُ».

^{١١} ملامة.

^{١٢} وجهه.

^{١٣} يصبر.

قالَ أَبُو الْغُصْنِ: «صَدَقْتَ، يَا أَبَا شَعْشَعٍ». مَا رَأَيْتُ أَبْقَى وَأَدْوَمَ لِلنَّعْمِ، مِنْ شُكْرِ
اللَّهِ عَلَيْهَا!»

(٩) قَبْلَ الْحَرِيقِ

تَشَعَّبَ الْحَدِيثُ. انتَهَى بِالشَّيْخِ «أَبِي شَعْشَعٍ» إِلَى سُؤَالِ «أَبِي الْغُصْنِ» عَمَّا أَثْقَلَهُ مِنْ
دَيْنِ.

قالَ أَبُو الْغُصْنِ: «عِشْتُ حَيَاتِي كُلَّهَا – يَا أَبَا شَعْشَعٍ – لَمْ أَسْتَدِنْ^{١٤} قَلِيلًا،
وَلَا كَثِيرًا. لَكِنَّ لِلتَّجَارَةِ أَحَوَالًا قَاسِيَّةً: مُنْذُ زَمِنِ غَيْرِ بَعِيدٍ، اضْطَرَرْتُ أَنْ أَشْتَرِي بَضَائِعَ
كَثِيرَةً، وَرَدَتْ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ. عُرِضَتْ فِي الْأَسْوَاقِ بِثَمَنِ بَخْسٍ.
كَانَتْ – لَوْلَا الْحَرِيقُ – صَفَقَةً رَابِحَةً. رَأَيْتُ أَلَا تَقْلِيلَ الصَّفَقَةِ^{١٥} مِنْ يَدِي. دَفَعْتُ
ثَمَنَهَا كُلَّهُ. لَمْ يَبْقَ عَلَيَّ إِلَّا مِائَتَانِ دِينَارٍ فَقَطْ.

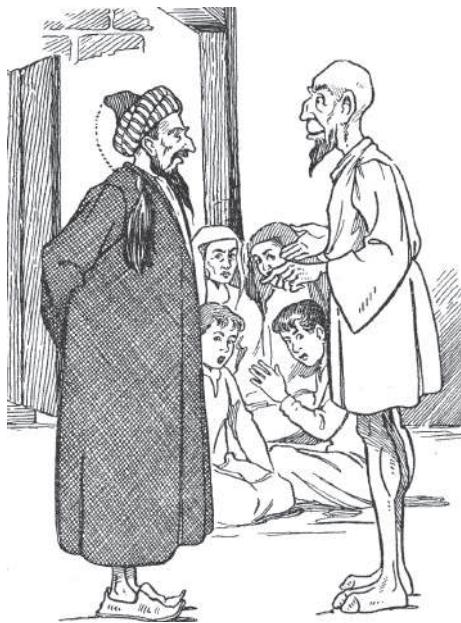
(١٠) الدَّائِنُ الْخَيِّبُ

عَلِمَ الشَّيْخُ «الْعُكْمُوسُ» بِذَلِكَ. أَسْرَعَ إِلَيْهِ مُتَوَدِّدًا يَسْأَلُنِي أَنْ أَقْبِلَ مِنْهُ ذَلِكَ الْمَبْلَغَ التَّنَفِّهِ^{١٦}
مِنَ الْمَالِ، أَوْدِيهِ إِلَيْهِ مَتَى شِئْتُ.
كُنْتُ عَلَى ثِقَةٍ مِنَ الْوَفَاءِ بِدِينِهِ بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ. لَمْ يَطْلُبْ تَرْدُدِي فِي قَبْوِلِ اقْتِرَاحِهِ.
دَهْمَنِي الْحَرِيقُ. عَكَسَ آمَالِي. لِلْمَرْأَةِ الْأُولَى أَعْجَزْتُ عَنِ الْوَفَاءِ، فِي حَيَاتِي.
هَا أَنْتَ ذَا: سَمِعْتَ قَبْلَ دُخُولِكَ مَا قَالَهُ – فِي عَيْبَتِي – غَرِيمِي الشَّيْخُ «الْعُكْمُوسُ»:
ذَلِكَ الدَّائِنُ الْقَاسِيُّ الَّذِي لَا يَرْحَمُ.
قالَ أَبُو شَعْشَعٍ: «مَنْ كَانَ لَهُ مِثْلُ يَقِينِكَ وَإِيمَانِكَ، وَصَسِيرَكَ وَإِحْسَانِكَ، لَا يَخْذُلُهُ
اللَّهُ، وَلَا يَتُرُكُ مَعْوِنَتَهُ وَلَا يَنْسَاهُ.»

١٤ أَقْتَرَضَ.

١٥ الْبِيْعَةَ.

١٦ الْيَسِيرَ.



فُتَحَ بَابُ الدَّارِ فَجَاءَ بِغَيْرِ اسْتِدَانِ!

أَطَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ أَصْلَعُ، بَارِزُ الْوَجْهَتَيْنِ، تَنَدَّلَ فَوْقَ عَيْنَيْهِ الْخَضْرَاءِ أَهْدَابُ شُقْرُ.
 يَنْفَرِجُ فُوهٌ ^{١٧} عَنِ ابْتِسَامَةِ ثَقِيلَةِ، مَمْلُوَّةٌ خُبْثًا وَمَكْرًا. فِي أَسْفَلِ وَجْهِهِ تَنَدَّلَتْ لِحْيَةُ
 مَخْرُوطَةٌ دِقِيقَةٌ، كَأَنَّمَا اسْتَعَارَهَا مِنْ مَاعِزٍ. لَهُ سَاقَانٌ، كَأَنَّهُمَا — لِطُولِهِمَا وَنَحَافَتِهِمَا
 — سَاقَانِ نَعَامَةٍ. لَهُ قَدَمَانِ كَأَنَّهُمَا قَدَمَانِ بَقَرَةٍ. لَهُ ظَهْرٌ كَأَنَّهُ ظَهْرٌ جَملٌ!
 هَذِهِ صُورَةُ «الْخَوَارِ» — كَمَا قَرَأْتُهَا فِي مُذَكَّرَاتِ «جُحا» — أَنْقَلُهَا إِلَيْكَ — أَيُّهَا
 الصَّدِيقُ الْعَزِيزُ — لِأَرْسَمَ لَكَ صُورَةً وَاضِحَّةً الْقُسْمَاتِ لِذَلِكَ الْجَارِ السَّمِيقِ، الَّذِي دَفَعَهُ

حَقْدُهُ عَلَى جَارِهِ «أَبِي الْغُصْنِ» إِلَى إِحْرَاقِ بَيْتِهِ دُونَ أَنْ يَرَاهُ أَحَدُ، تَارِكًا جِوَارَهُ قَبْلَ أَنْ يُحْرِقَ بَيْتَهُ بِيَوْمٍ وَاحِدٍ.

(١٢) حَدِيثُ «الْخَوَارِ»

قَالَ «الْخَوَارِ» بِصَوْتِ أَجَشَّ، مُنْقَطِّعٍ مُنْكِرٍ: «كَيْفَ أَنْتُمْ، أَيُّهَا الصَّحَابُ؟ مَا شَاءَ اللَّهُ! طَيَّبَ اللَّهُ زَادَكُمْ. لَكُنْ حَبْنِي، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»: كَيْفَ عَنْتَ عَلَى هَذَا الطَّعَامِ الْفَالِحِ؟ إِنِّي أَهْنَتُكَ بِهِ! كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّكَ سَمِّوْتُ جُوْعًا أَنْتَ وَأَلَدُكَ وَرَوْجَتُكَ.

أَنَا حَزِينٌ عَلَى ذَائِنِكَ «الْعُكْمُوْسِ». لَهُ اللَّهُ، يَا أَخِي! شَدَّ مَا سَوَّاتِ حَالُهُ، بَعْدَ أَنْ سَلَبَتْهُ مَالُهُ!»

(١٣) حَوْفُ الصَّغِيرَيْنِ

رَأَى الصَّغِيرَانِ «الْخَوَارِ» أَمَامَهُمَا. بَدَا الْحَوْفُ عَلَيْهِمَا. أَخْفَيَا رَأْسَيْهِمَا فِي ثُوبٍ أُمُّهَمَا، هَرَبَا مِنْ صَوْتِهِ الْمُزْعِجِ الْكَرِيهِ.

(١٤) فَرَعُ «الْخَوَارِ»

حَاوَلَ «الْخَوَارِ» أَنْ يَتَمَادِي فِي سُخْرِيَّتِهِ. التَّقَتْ عَيْنَاهُ الْخَضْرَاوَانِ بَعْيَنِي «أَبِي شَعْشَعٍ» الرَّزْقَاوَيْنِ.

كَانَنَّا التَّقَتْ عَيْنَا فَأَرِ بَعْيَنِي قِطًّا! دَبَ الرُّعْبُ فِي مَفَاصِلِ «الْخَوَارِ». انْعَدَدَ لِسَانُ الْجَبَانِ مِنَ الْحَوْفِ. انْتَظَمَتْهُ الرُّعْشَةُ مِنْ فَرْطِ الرُّعْبِ. كَانَنَا كَانَتْ نَظْرَهُ «أَبِي شَعْشَعٍ» تَيَارًا كَهْرِيًّا، انْبَعَثَ مِنْ عَيْنَيْهِ إِلَى عَيْنَيِ «الْخَوَارِ»، عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ سَابِقَةٍ بَيْنَهُمَا.

اشْتَدَّ بِهِ الْحَوْفُ. عَقَدَ لِسَانَهُ الذُّعْرُ، أَصَابَتْهُ قُشَّعَرِيَّةٌ. لَمْ يَجِدْ — فِي غَيْرِ الْفِرَارِ — خَلَاصًا وَلَا مَهْرَبًا مِنْ ذَلِكَ الْمَأْزِقِ الَّذِي رَأَجَ بِنَفْسِهِ فِيهِ. أَغْلَقَ الْبَابَ. أَسْرَعَ مُولِّيًّا مَذْعُورًا. خُيَلَ إِلَى الْحَاضِرِيْنَ أَنَّ حُمَّى صَرَعَتْهُ، أَوْ أَفْعَى لَدَغَتْهُ.

(١٥) فِرَارُ الْجَبَانِ

جَمْجَمٌ^{١٨} «أَبُو شَعْشَعٍ» غَاضِبًا: «يَا لَهُ مِنْ مُعْتَدِدٍ جَبَانٌ!»
 قَالَ «جَحْوَانُ» لِـ«جُحَيَّةَ»: «ذَهَبَ الْعِفْرِيتُ الْإِنْسِيُّ. ذَهَبَ إِلَى غَيْرِ عَوْدَةٍ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.
 أَجَابَتْهُ «جُحَيَّةُ»، وَهِيَ تُخْتَسِّ النَّظَرَاتِ، لِتَتَحَقَّقَ مِنْ ذَهَابِ «الْخَوَارِ»: «صَدَقَتْ،
 يَا أَخِي: ذَهَبَ الْعِفْرِيتُ. الْحَمْدُ لِلَّهِ».

(١٦) حَاكِمُ الْمَدِينَةِ

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «مَا أَشَدَّ صَفَاقَةَ هَذَا الْجَبَانِ! مَا بِالْكُمْ لَا تَرْفَعُونَ أَمْرَهُ إِلَى حَاكِمِ
 الْمَدِينَةِ؟»
 لَمْ يَتَمَالَكْ «أَبُو الْغُصْنِ» أَنْ أَغْرِقَ فِي الضَّحِكِ.
 أَقْبَلَ عَلَى ضَيْفِهِ يَقُولُ: «لَوْلَا ظُلْمُ الْحَاكِمِ وَمُحَابَاتُهُ، لَمَا امْتَدَّتْ يَدُ «الْخَوَارِ» بِالْأَذَى
 وَالْإِسَاءَةِ إِلَى كُلِّ إِنْسَانٍ».

(١٧) كَرْمُ الْفَقِيرِ

اعْتَدَرَ «أَبُو الْغُصْنِ» لِضَيْفِهِ «أَبِي شَعْشَعٍ» عَنْ حَقَارَةِ الْبَيْتِ.
 قَاطَعَهُ «أَبُو شَعْشَعٍ»، قَالَ: «إِنَّ الْفَلِيلَ الَّذِي يَبْذُلُهُ الْفَقِيرُ، حَيْرٌ مِنَ الْكَثِيرِ الَّذِي يَبْذُلُهُ
 الْغَزِيُّ! الْأَوَّلُ يَجِدُ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَلَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ، عَلَى حِينَ يَجِدُ الْآخَرُ بِمَا لَا يُحِسْ
 فِقْدَانَهُ، وَلَا يُبَالِي ضَيَاعَهُ».«
 ذَلِّلَ «أَبُو الْغُصْنِ» وَصَاحِبُهُ يَسْمُرَانِ ...

(١٨) نَوْمٌ هِنِيءٌ

بَسَطَ اللَّيْلُ عَلَى الْمَدِينَةِ جَنَاحِيهِ الْكِبِيرَيْنِ.

^{١٨} نطق ولم يُبن.

أَعْدَتْ «رَبَابَةُ» حُرَّمًا مِنْ قَشِ الْدُّرَّةِ، لِيَنَامَ عَلَيْهَا صَاحِبُ الدَّارِ وَصَيْفُهُ الَّذِي اشْتَعَلَ رَأْسُهُ شَيْئًا، فَأَكْسَبَهُ ذَلِكَ مَهَابَةً وَجَلَالًا.
اسْتَسْلَمَ لِلرُّقَادِ هَانِئِينَ. أَنْسَتُهُمَا لَذَّةُ الْكَرَى مَا مَرَّ بِهِمَا مِنْ أَحْدَاثِ الزَّمَنِ وَمَصَائِيهِ، وَمُدْهِشَاتِ الدَّهْرِ وَعَجَائِيهِ!
أَقَامَتْ «رَبَابَةُ» لِوَدِيَّهَا؟ «جَحَوَانَ» وَ«جُحَيَّةَ» أُرْجُوْحَةَ جِيءَ بِهَا مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ، كَانَا يَصْطَاحِبَانَهَا فِي أَسْفَارِهِمَا وَرَحْلَاتِهِمَا. أَسْرَعَ الطَّفَلَانِ إِلَيْهَا لِيَنَامَا فِيهَا. لَوْ رَأَيْتُهُمَا؛ لَخَيْلَ إِلَيْكَ – لِوَفْرَةِ نَشَاطِهِمَا، وَصَغْرِ حِسْمِيَّهِمَا – أَنَّكَ تَرَى قِرْدَيْنِ صَغِيرَيْنِ.
اشْتَبَكَتْ أَذْرُعُهُمَا، لِيَنْدِمْجَا فِي الْأَرْجُوْحَةِ الصَّغِيرَةِ لِكَيْ تَسْتَسِعَ لِنَوْمِهِمَا. جَاسَتْ «رَبَابَةُ» عَلَى حَشَبَةِ صَغِيرَةِ أَمَامِ الْأَرْجُوْحَةِ. طَفِقَتْ تَهُزُّهَا فِي رِفْقٍ وَأَنْتِظَامٍ. طَلَّتْ تُعْنِي طَفْلَيْهَا، بِصَوْتٍ يَفِيْضُ حَنَانًا وَحُبًّا:

وَاسْتَقْبِلَا الْأَحْلَامَا	نَامَا – حَبِيَّيَ – نَامَا
مُعْطَرًا بَسَّاما	نُورًا وَحُسْنًا وَرَوْضًا
وَفَتَّحَ الْأَكْمَامَا	تَخَالِلَ الْوَرْدُ عُجْبَا
فَأَبْدَعَ الْأَنْغَامَا	وَالْطَّيْرُ أَنْشَدَ لَحْنَا

* * *

وَاسْتَقْبِلَا الْأَحْلَامَا	نَامَا – حَبِيَّيَ – نَامَا
مَعِي، إِنَّا الطَّيْرُ قَاما	نَامَا هَنِيئًا، وَقُومَا
رَغَادَةً وَسَلَاما	عِيشَا بِاسْعَدِ عَيْشِ
عَامَما، وَتَسْعِينَ عَامَما	سِنِينَ عَشْرًا، وَزِيدَا
وَنِصْفَ شَهْرٍ تَمَاما	وَنِصْفَ عَام، وَشَهْرًا
نَزِيْدُهُ أَيَّاما	وَبَغْدَهُ أَسْبُوعًا
تَمَتَّعاً وَأَغْتِنَاما	وَسَاعَةً مِنْ نَهَارٍ
هَنَاءً وَابْتِسَاما	تَتْلُو دَقَائِقَ عَشْرًا
تَسْرُّ قَوْمًا كَرَاما	رَادَتْ ثَوَانِي حَمْسًا

الْخَوَارُ

وَأَتَّبَعَاهَا ثَلَاثًا ۖ ثَوَالِثًا، ثُمَّ نَامَا

عَلَى هَذِهِ الْأَغْنِيَةِ الْمُبْدِعَةِ الْجَمِيلَةِ نَامَ الطَّفْلَانِ.
نَامَتْ «رَبَابَةُ» عَلَى أَثْرِهِمَا، وَنَامَ كُلُّ مَنْ فِي الدَّارِ.

الفصل الثالث

الْعُكْمُوسُ

(١) دَقَاتُ عَنِيفَةٌ

انْجَلَ اللَّيْلُ. بَدَتْ تَبَاشِيرُ الصَّبَاحِ.
تَوَالَّتْ — عَلَى الْبَابِ — دَقَاتٌ عَنِيفَةٌ، أَيْقَظَتْ كُلَّ مَنْ فِي الْبَيْتِ. عَرَفَ «أَبُو الْغُصْنِ»
رَائِهِ مِنْ أَسْلُوبِ تِلْكَ الْطَّرَقَاتِ.

(٢) الرَّائِرُ الْكَرِيهُ

نَهَضَ «أَبُو الْغُصْنِ» لِاسْتِقْبَالِ رَائِرِهِ. فَتَحَ الْبَابَ.
مَا أَبْشَعَهُ مَنْظَرًا! سَحْنَةُ مُفَزَّعَةٍ. الرَّائِرُ الَّذِي تَوَقَّعَ حُضُورُهُ، هُوَ بِعِينِهِ. لَا أَحَدٌ
سِوَاهُ.
شَيْخُ هَرِمُ، طَاعِنٌ فِي السِّنِّ. أَسْرَفَتْ أَذْنَاهُ فِي الطُّولِ. تَجَاوَزَتَا كُلَّ حَدٌّ مَالُوفٍ. كَانَتَا
تَهْبِطَانِ وَتَرْتَفِعَانِ.
تَبَّا لَهُ مِنْ رَائِرٍ بَغِيْضٍ! لَهُ الْوَيْلُ! إِنَّهُ «الْعُكْمُوسُ»!

(٣) صَوْتُ نَاهِقٌ

لَوْ رَأَيْتَهُ، وَهُوَ وَاقِفٌ بِجَنْبِ عِضَادَةٍ^١ الْبَابِ! لَوْ سَمِعْتَهُ، وَهُوَ يُحَيِّي «أَبَا الْغُصْنِ» تَحِيَّةً
الصَّبَاحِ!

^١ العِصَادَةُ: جانب العتبة.

إِذْنُ حَوْفَكَ وَفَزَّعَكَ، وَرَعَبَكَ وَرَوَعَكَ. إِذْنُ حَيْلَ إِلَيْكَ أَنَّكَ تَسْمَعُ شَيْئًا أَشْبَهُ بِنَهْيِقِ الْحِمَارِ، مِنْهُ بِصَوْتِ الْإِنْسَانِ!

كَانَ مِنْ غَرَائِبِ الْإِتْفَاقِ أَنْ يَنْطَبِقَ لَقْبُ «الْعُكْمُوس» عَلَى صَاحِبِهِ، وَيَصُدِّقَ اسْمُهُ عَلَى مُسَمَّاهُ!

تَسْأَلُنِي: مَاذَا أَعْنِي؟ إِلَيْكَ بَيَانَ مَا غَمَضَ: أَهْلُ الْيَمِنِ يُطْلِقُونَ عَلَى الْحِمَارِ «الْعُكْمُوس». أَرَأَيْتَ كَيْفَ جَاءَ اللَّقْبُ مُعَبِّرًا عَنْ صَاحِبِهِ؟! لَوْ سِمِّعْتَ «الْعُكْمُوس»، وَهُوَ يُطَالِبُ «أَبَا الْغُصْنِ» بِمَا أَفْرَضَهُ مِنْ دِينِ! إِذْنُ أَزْعَجَكَ صَوْتُهُ وَمَرَآهُ.

مَثْلُ لِنَفْسِكَ حِمَارًا أَتَاحَتْ لَهُ مُعْجِزَةٌ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ أَنْ يَتَحَدَّثَ إِلَيْكَ. مَثْلُ لِنَفْسِكَ هَذَا الْحِمَار، وَهُوَ يُوَدِّي عِبَارَاتِهِ بِلَهْجَةِ حِمَارِيَّةٍ نَاهِقَةٍ! مَثْلُ لِنَفْسِكَ أَنَّكَ تَسْمَعُهُ، وَهُوَ يَنْطَقُ بِالْجُمْلَةِ الْأَتِيَّةِ: «هَانُ. هَانُ...! أَيْنَ الْمِائَتَانِ؟ دَنَانِيرِيَ الْمِائَتَانِ؟» أَلِيُّسْ مَنْظَرًا يَدْعُو إِلَى الضَّاحِكِ، كَمَا قُلْتُ لَكَ؟!

هَكَذَا صَنَعَ «الْعُكْمُوس». رَفَعَ أَذْنِيَهُ الطَّوِيلَتَيْنِ، أَدَارَهُمَا صَوْبَ «أَبِي الْغُصْنِ». كَانَتْ أُذْنُ «الْعُكْمُوس» تُخَيِّلُ لِمَنْ يَرَاهَا أَنَّهَا قَمْعٌ، أَوْ شَيْءٌ شَدِيدُ الشَّبَهِ بِالْقَمْعِ! رَفَعَ «الْعُكْمُوس» أَذْنِيَهُ؛ كَانَمَا يُرِيدُ أَلَا تَقُوَّتْهُ كَلْمَةً وَاحِدَةً، مِمَّا يَقُولُهُ غَرِيْمُهُ «أَبُو الْغُصْنِ»، رَدًا عَلَيْهِ.

(٤) دَائِنُ لَا يَرْحَمُ

أَيُّهَا الصَّدِيقُ الصَّغِيرُ، كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» — كَمَا حَدَّثْتُكَ — يُعَانِي أَرْمَةً شَدِيدَةً. لَمْ يُبْقِ لَهُ الْحَرِيقُ مَالًا وَلَا مَتَاعًا. كَانَ إِعْسَارُهُ حَائِلًا دُونَ أَدَاءِ مَا عَلَيْهِ مِنْ دِينِ، فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ السُّودِ.

لَعَلَّكَ تَحْيَّلَتْ جَوَابَ «أَبِي الْغُصْنِ».
لَسْتُ أَشْكُ فِي أَنَّ ذَكَاءَكَ هَدَاكَ إِلَى ذَلِكَ!

كَانَ مُضطَرًّا إِلَى رَجَاءِ دَائِنِهِ أَنْ يُوَجِّلَ سَدَادَ دَيْنِهِ، رَيْثُمَا تَرْزُولُ الْغُمَّةُ، وَتَنْفَرُجُ الْأَرْمَةُ.
كَانَ غَرِيمُهُ عَنِيدًا قَاسِيًّا. قَبْلَهُ يَقْبِضُ حِقْدًا عَلَى «أَبِي الْغُصْنِ»؛ لَا يَعْنِيهِ أَنْ
يَحْصُلَ عَلَى دَيْنِهِ، قَدْرَ مَا يَعْنِيهِ أَنْ يَتَشَفَّى بِتَعْذِيبِ غَرِيمِهِ. لَا عَجَبٌ إِذَا رَفَضَ رَجَاءَ
«أَبِي الْغُصْنِ»، وَأَبَى أَنْ يُوَحِّزَ الدِّينَ إِلَى أَجْلٍ قَرِيبٍ.



لَا عَجَبٌ إِذَا انْبَعَثْتَ مِنْ حَنْجَرَتِهِ صَيْحَةً مُنْكَرَةً نَاهِقَةً: «هَانْ. هَانْ! لَا تُمَاطِلْ – يَا «أَبَا الْغُصْنِ» – فِي أَدَاءِ الدِّينِ!»

(٥) مَنْدُوبُ الْقَاضِي

كَانَ «الْعُكْمُوسُ» – كَمَا رَأَيْتَ – مُتَحَفِّزاً لِلِّا نِتَقَامِ. لَمْ يَقْتُهُ أَنْ يَصْطَحِبَ مَنْدُوبَ الْقَاضِي إِلَى دَارِ «أَبِي الْغُصْنِ». قَالَ لِلْمَنْدُوبِ نَاهِقاً: «هُلْمٌ، أَيُّهَا السَّيِّدُ الْحَازِمُ. حَذَارٌ أَنْ تَرَدَّدَ فِي أَدَاءِ وَاحِدِكَ. نَفْذُ حُكْمَ الْقَاضِي، فِي عَيْرٍ تَرَاهُ وَلَا تَهَاوُنْ.»

شَرَعَ الْمَنْدُوبُ فِي أَدَاءِ مُهِمَّهِ: أَحْصَى مَا سَلَمَ مِنَ الْحَرِيقِ، مِنْ مَتَاعِ الدَّارِ. كَتَبَ مَا أَحْصَاهُ فِي سِجْلٍ. ۲ أَمَرَ بِنَقْلِهِ، تَمَهِيدًا لِبَيْعِهِ. أَدْرَكَ «أَبُو الْغُصْنِ» أَنَّ الرَّحْمَةَ لَنْ تَجِدَ إِلَى قَلْبِ دَائِنِهِ سَيِّلًا. مَاذَا يَصْنَعُ؟

أَسْلَمَ أَمْرَهُ لِخَالِقِهِ. لَمْ تُفَارِقْهُ شَجَاعَتُهُ وَابْتِسَامَتُهُ، وَثَقَتُهُ بِالْفَوْزِ عَلَى كُلِّ حَالٍ. لَمْ يُفْهِ بِكَلْمَةٍ وَاحِدَةٍ. جَلَسَ صَامِتاً عَلَى مَقْعِدٍ خَشِّيٍّ صَغِيرٍ، يَنْتَظِرُ لِمَا يَجْرِي أَمَامَ عَيْنِيهِ. لِكِنَّ زَوْجَهُ «رَبَابَة» لَمْ تَقْفِدِ الْأَمْلَ. بَذَلَتْ جُهْدَهَا فِي اسْتِعْطَافِ «الْعُكْمُوسِ». تَوَسَّلَتْ إِلَيْهِ أَنْ يَتَمَهَّلَ. تَعَهَّدَتْ لَهُ بِأَدَاءِ الدِّينِ بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ.

خَيَّبَ «الْعُكْمُوسُ» ظَنَّهَا. أَصَمَّ أَذْنَيْهِ عَنْ سَمَاعِ رَجَائِهَا. لَمْ يَكُنْ حَظُّهَا مِنْهُ، بِأَسْعَدَ مِنْ حَظٌّ زَوْجِهَا.

لَمْ يَلِنْ قَلْبُهُ الْقَاضِي لِرَجَائِهَا. أَدْلَى أَذْنَيْهِ إِلَى عُنْقِهِ. رَكَّزَ اِنْتِبَاهَهُ فِي مُرَاقِبَةِ مَنْدُوبِ الْقَاضِي، وَمُرَاجِعَةِ مَا يَكْتُبُ.

(٦) عِنَادُ الْحَاقِدِ

كَانَ «أَبُو شَعْشَعٍ» يَرْكُبُ مَا يَدْوِرُ فِي يَقْظَةٍ وَأَنْتَبَاهُ اعْتَصَمَ بِالصَّبْرِ. لَمْ يَفْهُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ.

الْفَقَتْ «أَبُو شَعْشَعٍ» إِلَى «الْعُكْمُوسِ». قَالَ لَهُ مُتَرْفَقًا: «أَتَأْدُنُ لِي – يَا سَيِّدِي – أَنْ أَوْجَهُ إِلَيْكُ سُؤَالًا؟»

قَالَ «الْعُكْمُوسُ»، فِي رَهْبَهِ وَخِيلَاءٍ: «مَاذَا تُرِيدُ؟»

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «هَلْ اسْتَأْذَنْتَ الْقَاضِيَ فِي بَيْعِ الْأَنَاثِ؟»

أَجَابَهُ «الْعُكْمُوسُ»: «هَاهُنَّ! أَمَّا مَكَ مَنْدُوبُ الْقَاضِيِّ. أَلَا يَكْفِيكَ ذَلِكَ؟ أَلَا تَعْلَمُ أَنَّ مَنْدُوبَ الْقَاضِيِّ يُغْنِي إِذَا غَابَ الْقَاضِي؟! مَا حَاجَتُنَا إِذْنَ إِلَى اسْتِدَانِ الْقَاضِيِّ. مَا دُمْنَا قَدْ ظَفَرْنَا بِمَنْدُوبِهِ؟»

أَرَادَ «أَبُو شَعْشَعٍ» أَنْ يَثْنِي «الْعُكْمُوسَ» عَنْ رَأْيِهِ. لَمْ يَقْبِلْ «الْعُكْمُوسُ» أَنْ يَعْدِلَ عَنْ تَنْفِيذِ رَأْيِهِ الْخَاطِئِ. تَمَادَى فِي عَيْهِ. أَصَرَّ عَلَى عِنَادِهِ.

ظَهَرَ الْغَضَبُ عَلَى وَجْهِ «أَبِي شَعْشَعٍ». أَغْلَظَ الْفُولُ لِصَاحِبِهِ، تَوَعَّدَهُ وَتَهَدَّدَهُ، أَنْذَرَهُ بِعَاقِبَةٍ وَخِيمَةٍ.

هَنْزَاً «الْعُكْمُوسُ» بِمَا سَمِعَ. لَمْ يُبَالِ وَعِيَدُهُ وَلَمْ يَخْشَ تَهْدِيَهُ.

(٧) سَرِيرُ الطِّفْلَيْنِ

أَشَارَ «الْعُكْمُوسُ» إِلَى سَرِيرِ الطِّفْلَيْنِ الصَّغِيرَيْنِ. قَالَ لِمَنْدُوبِ الْقَاضِيِّ: «هَاهُكَ سَرِيرًا خَشِيًّا مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ. لَا تَنْسَ أَنْ تُدْرِجَهُ فِي سِجْلِ الْمِيَعَاتِ».

أَغْتَاظَ «جَحْوَانُ» مِمَّا سَمِعَ. كَانَ لَا يَزَالُ رَاقِدًا إِلَى جَانِبِ أَخْتِهِ «جُحَيَّةَ» فِي تِلْكَ الْأَرْجُوْحَةِ الَّتِي اتَّخَذَاهَا سَرِيرًا لِنَوْمِهِمَا.

شَافَ مَغْرَفَةَ بِالْقُرْبِ مِنْهُ. تَنَوَّلَ الْمِغْرَفَةَ بِيُمْنَاهُ. هَوَى بِهَا عَلَى رَأْسِ «الْعُكْمُوسِ». أَصَابَتِ الْمِغْرَفَةُ أَذْنَهُ الْيُسْرَى.

(٨) غَضَبُ «الْعُكْمُوْسِ»

تَمَادَى «الْعُكْمُوْسِ» فِي وَعِيَّدِهِ. تَعَالَى صِيَاحُهُ. اشْتَدَّ غَضَبُهُ. كَانَ صَوْتُهُ أَشْبَهَ بِالنَّهِيْقِ مِنْهُ بِالصُّرَّاْخِ!

أَرْتَسَمَ الْحُزْنُ عَلَى وَجْهِ أَبْيِ شَعْشَعٍ. لَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ قَالَ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ! وَقَعَ الشَّرُّ الَّذِي كُنَّا نَحْدَرُهُ وَنَحْشَاهُ!»

كَانَ صَوْتُ «الْعُكْمُوْسِ» يَتَهَدَّجُ غَضَبًا وَهُوَ يَقُولُ: «الْوَيْلُ لَكُمْ مِمَّا تَفْعَلُونَ. سَتَدْفَعُونَ ثَمَنَ اعْتِدَائِكُمْ عَيْنَ غَالِيَا. سَتَرُونَ مَا يَحْلُّ بِكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَاضِي. هَيْهَاتَ أَنْ تُفْلِتُوا مِنْ عِقَابِهِ!»

(٩) حَوَّارُ صَاحِبُ

كَادَ «أَبُو شَعْشَعٍ» يَخْرُجُ عَنْ هُدُوْيَهِ. اشْتَدَّ بِهِ الْغَيْظُ مِمَّا رَأَى وَسَمِعَ. التَّقَتَ إِلَى «الْعُكْمُوْسِ» سَاحِرًا. قَالَ لَهُ فِي تَهْكِمِ مَرِيرِ: «عَلَى رِسْلِكَ، أَيُّهَا النَّاهِقُ الْعَزِيزُ! مَا أَجْدَرَكَ أَنْ تُمْسَخَ حِمَارًا!»

انْدَفَعَ «الْعُكْمُوْسِ» صَاحِبًا مُزْمَحِرًا. حَنَّمَ وَعِيَّدُهُ قَائِلًا: «سَتَرَى كَيْفَ أَنْتِقُمُ مِنْكَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». سَتَرَى كَيْفَ أَبْيَعُ كُلَّ مَا فِي بَيْتِكَ. لَنْ أَتُرْكَ لَكَ شَيْئًا؛ حَتَّى هَذَا الْكُرْسِيُّ الَّذِي تَجْلِسُ عَلَيْهِ.»

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «لَا تَنْسَ أَنْ تَأْخُذَ مَعَكَ الْمِذْوَدَ!»^٣

قَالَ «الْعُكْمُوْسِ»: «سَتَعْلَمُ صِدْقَ مَا أَقُولُ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»! سَيَكُونُ هَذَا الْيَوْمُ آخِرَ عَهْدِكَ بِالنَّوْمِ عَلَى فِرَاشِكَ الْوَثِيرِ. لَنْ تَنَامَ — أَنْتَ وَأَسْرُتُكَ، بَعْدَ الْيَوْمِ — عَلَى غَيْرِ التَّبْنِ، كَمَا تَنَامُ الْمَاشِيَّةُ!»

قَاطَعَهُ «أَبُو شَعْشَعٍ» سَاحِرًا: «مِنْ حَقِّكَ أَنْ تَسْتَبَقِي التَّبْنَ لِنَفْسِكِ، أَوْ تَبِعَهُ إِذَا اسْتَغْنَيْتَ عَنْ أَكْلِهِ!»

كَانَتْ نُكْتَهَةً بَارِعَةً أَصَابَتِ الصَّمِيمَ.

^٣ المذود: ما يكون فيه علف الحيوان.

أُرْتَجَ عَلَى «الْعُكْمُوسِ». لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يُحِبُّ. أَسْرَعَ بِالْخُرُوجِ غَاضِبًا.

(١٠) نَصِيحةً «رَبَابَةً»

ابْتَهَجَ الطَّفَلُانِ لِهَزِيمَةِ «الْعُكْمُوسِ». حَوَّلَ «جَحْوَانُ» أَنْ يُظْهِرَ شَمَائِتَهُ بِ«الْعُكْمُوسِ»، الَّذِي جَاءَ يَسْلُبُهُ سَرِيرَهُ. أَمْرَتْهُ «رَبَابَةُ» أَنْ يَكْفَ عَنِ الْكَلَامِ. قَالَتْ لَهُ: «الْأَطْفَالُ الْمُؤَدَّبُونَ لَا يَنْطِقُونَ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَلَا يَتَحَدَّثُونَ إِلَّا بِمَعْرُوفٍ!»

(١١) قُدُومُ «زُبَيْدَةَ»

الْنَّفَّتَ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَى ضَيْفِهِ. شَكَرَ لَهُ دِفَاعُهُ وَنُصْرَتَهُ، وَمُرْوَعَتَهُ وَنَجْدَتَهُ. كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» يَعْلَمُ أَنَّ اِنْتِقامَ «الْعُكْمُوسِ» مِنْهُ سَيَكُونُ بَاطِشًا عَنِيفًا. مَاذَا يَصْنَعُ «أَبُو الْغُصْنِ»؟ لَا حِيلَةَ لَهُ فِي ذَلِكَ. سَلَّمَ أَمْرَهُ لِلَّهِ.

قَدِيمَتْ «زُبَيْدَةُ». لَمْ تَقْتُهَا رُؤْيَا «الْعُكْمُوسِ»، وَهُوَ خَارِجٌ مِنْ بَيْتِ «أَبِي الْغُصْنِ». كَانَ مَنْظَرًا عَجَبًا! كَانَ يَهُزُّ أَذْنَيْهِ الطَّوَيِّلَتَيْنِ. كَانَ الْدُّهُولُ وَالْحَيْرَةُ يَرْتَسِمَانِ عَلَى سِيمَاهٌ. عَجِبَتْ «زُبَيْدَةُ» مِمَّا رَأَتْ. سَأَلَتْ «رَبَابَةَ» عَنْ جَلَيْةِ الْأَمْرِ. أَخْبَرَتْهَا «رَبَابَةُ» بِمَا حَدَثَ.

(١٢) رَجَاءُ صَادِقٍ

الْنَّفَّتَ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَى «زُبَيْدَةَ» قَاتِلًا: «مَا دُمْتِ رَجَعْتِ إِلَيْنَا، أَتَيْتَهَا الْجَارَةُ الْكَرِيمَةُ، فَإِنِّي أَرْجُو مِنْكِ أَنْ تَبْقِيَ - مُتَفَضِّلَةً - مَعَ زَوْجِتِي وَوَلَدِي، لِتُهُوِّنِي عَلَيْهِمْ بَعْضَ مَا لَقُوا مِنَ الْأَلَامِ وَالْمِحَنِ، رَيْثُمَا أَعُودُ. إِنَّ قَلْبِي لِيُحَدِّثُنِي: أَنَّ فَرَجَ اللَّهِ قَرِيبٌ.»

جُحَّا فِي بَلَادِ الْجِنِّ

سَأَمْشِي فِي مَنَاكِبِ الْأَرْضِ ° — كَمَا أَمْرَ اللَّهُ عِبَادَهُ — سَعْيًا لِالْتِمَاسِ الرِّزْقِ. لَعَلَّ اللَّهَ يَهْدِيَنِي إِلَى فِكْرَةٍ نَاجِحَةٍ تُبَدِّلُ مِنْ عُسْرِي يُسْرًا. لَنْ يُخَيِّبَ اللَّهُ مُخْلِصًا — فِي سَعْيِهِ — أَبَدًا.

قَالَ لَهُ الْجَمِيعُ: «صَاحِبَتَكَ عِنَادِيُّ اللَّهِ وَتَوْفِيقُهُ.

(١٣) خَارِجُ الْمَدِينَةِ

خَرَجَ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي صُحبَةِ ضَيْفِهِ «أَبِي شَعْشَعٍ». وَاصْلَأَ السَّيْرَ حَتَّى جَاءَوْزًا الْمَدِينَةَ، ثُمَّ أَسْلَمُهُمَا السَّيْرُ إِلَى الْخَلَاءِ!

° أرجائهما ونواحيها.

الفصل الرابع

مِصْبَاحُ الْكَنْزِ

(١) الْمِفْتَاحُ الْذَّهَبِيُّ

عَمَرَتِ الشَّمْسُ بِنُورِهَا السُّهُولَ الْمُنْبَسْطَةَ وَالرَّوَابِيَّ.^١
ظَلَّ الصَّدِيقَانِ يَتَحَدَّثَانِ حَتَّى يَلْعَمَا سَفْحَ الْجَبَلِ. التَّقَتَ «أَبُو شَعْشَعٍ» إِلَى «أَبِي الغُصْنِ» مُتَظَاهِرًا بِالدَّهْشَةِ. قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «أَيُّ شَيْءٍ مَا أَرَى؟»
نَظَرَ «أَبُو الغُصْنِ» تَحْتَ قَدَمِيهِ، رَأَى مِفْتَاحًا مِنَ الدَّهْبِ!
قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «لَعْلَهُ مِفْتَاحُ كَنْزٍ، سَاقَهُ إِلَيْكَ حَظْكَ السَّعِيدِ!»
قَالَ «أَبُو الغُصْنِ»: لَدَيَّ كَنْزٌ مِنَ الْقَدَاعَةِ لَا يَقْنَى! حَسْبِيَ أَنْ أَبْيَعَ هَذَا الْمِفْتَاحِ،
لِأَدْفَعَ بِثَمَنِهِ بَعْضَ مَا رَكِبَنِي مِنْ دَيْنٍ.»
قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: كَلَّا، لَا تُقْرِطْ فِيهِ، يَا «أَبَا الغُصْنِ». إِيَّاكَ أَنْ تَبِعَهُ. مَنْ يَدْرِي!
لَعْلَهُ مِفْتَاحُ تَرَاكَ.^٢

(٢) بَابُ الْمَغَارَةِ

كَانَ «أَبُو الغُصْنِ» وَصَاحِبُهُ يَسِيرَانِ فِي طَرِيقِهِمَا صَوْبَ^٣ الْجَبَلِ.

١ المِرْتَفَعَاتِ.

٢ غَنَاكَ.

٣ نَحْوِ.

قَالَ أَبُو شَعْشَعَ: «أَلَا تَرَى بَرِيقًا يَنْبَعِثُ مِنْ سَفْحِ الْجَبَلِ؟ تُرَى: أَيْ شَيْءٍ هَذَا؟ هَلْ مَنْدَهْبٌ إِلَيْهِ لَنَتَعَرَّفُ؟»
دَهْشَنْ «أَبُو الْغُصْنِ» مِمَّا رَأَى. مَشَى مَعَ صَاحِبِهِ حَتَّى بَلَغَاهُ. مَا أَعْجَبَ مَا رَأَيَاهُ!
لَوْحٌ مِنَ الْذَّهَبِ، عَلَى بَابٍ كَهْفٍ كَبِيرٍ فِي جِنْسِ الْجَبَلِ. انْعَكَسَتْ أَشْعَةُ الشَّمْسِ عَلَيْهِ.
أَحْدَثَ انْعِكَاسٍ أَشْعَتْهَا مَا رَأَيَاهُ مِنْ بَرِيقٍ.

(٣) خَاطِرُ مُلْهُمٌ

عَنْ فِي ذِهْنِ «أَبِي الْغُصْنِ» الْذَّكِيِّ، خَاطِرٌ سَرِيعٌ. لَمْ يَتَوَانَ فِي تَحْقِيقِهِ. كَانَ ظُلْهُ
صَحِيحًا. أَبْصَرَ تَقْبِيَا بِالْبَابِ عَلَى قَدْ الْمِفْتَاحِ الْدَّهْمِيِّ. فَاضَ قَلْبُهُ رَجَاءً وَثَقَةً. أَحَسَ قُوَّةً
خَارِقَةً تَدْفَعُهُ إِلَى فَتْحِ الْبَابِ. وَضَعَ الْمِفْتَاحِ فِي تَقْبِ الْقُفلِ. سُرْعَانَ مَا انْفَتَحَ الْبَابُ.

(٤) فِي دَاخِلِ الْكَنْزِ

ابْتَسَمْ «أَبُو شَعْشَعَ» التَّفَتَ إِلَى صَاحِبِهِ قَائِلًا: «شَدَّ مَا تَحَقَّقَ الْحُلْمُ الَّذِي رَأَيْتُهُ لِيَّةَ
أَمْسِ! لَعَلَّهُ الْكَنْزُ الَّذِي شَهَدْتُهُ فِي الْمَنَامِ! مَا أَصْدَقُ الْأَحْلَامَ! لَا مَجَالٌ لِلتَّرْدِيدِ، يَا «أَبَا
الْغُصْنِ» هَلْ مَفَادِخُلٌ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ». لَمْ يَتَرَدَّدْ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي طَاعِةِ صَاحِبِهِ. أَسْرَعَ بِالدُّخُولِ. أَغْلَقَ بَابُ الْكَنْزِ، دُونَ
أَنْ يُغَافِلْهُ أَحَدٌ.

(٥) حَيْرَةُ «أَبِي الْغُصْنِ»

عِجَبَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِمَّا حَدَثَ. اتَّجَهَ إِلَى صَاحِبِهِ يَسَّأَلُهُ عَمَّنْ أَغْلَقَ الْبَابَ. لَمْ يَسْمَعْ
جَوَابَ سُؤَالِهِ. تَلَّفَّتْ يَبْحَثُ عَنْ صَاحِبِهِ. لَمْ يَجِدْ لَهُ أَثَرًا. اشْتَدَّ عَجَبُهُ. تَذَكَّرَ أَنَّهُ نَسِيَ
مِفْتَاحَ الْكَنْزِ فِي قُفلِ الْبَابِ، مِنَ الْخَارِجِ.

مَصْبَاحُ الْكَنْزِ

سَأَوَرْتُهُ الْحَيْرَةُ. اشْتَدَّ بِهِ الْحَرَجُ. كَيْفَ الْخَلَاصُ؟ كَيْفَ يَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْمَأْزَقِ؟ لَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ. أَصْبَحَ الْكَنْزُ لَهُ سِجْنًا؟ ظَلَامٌ حَالُكُ يَعْمُرُ الْكَنْزَ! تُرَى مَاذَا يَصْنَعُ؟

(٦) حَارِسُ الْكَنْزِ

مَشَى «أَبُو الْعُصْنِ» بِضْعَ خُطُواتٍ.



شَبَّحْ ° قَادِمٌ عَلَيْهِ. عِمَلَاقٌ طُوَالٌ. حَيَّةٌ هَائِلَةٌ تَلْتَفُ حَوْلَ الْعِمَلَاقِ. أَيُّ شَبَّحٍ مُّزْعِجٍ
هَذَا؟!

«أَبُو الْغُصْنِ» — كَمَا تَعْلَمُ — شُجَاعٌ. وَاثِقٌ بِاللهِ، مُطْمِئِنٌ إِلَى قَضَائِهِ وَلُطْفِهِ بِعِبَادِهِ.
لَمْ يَجِدِ الْحَوْفُ إِلَى قَلْبِهِ سَيِّلًا. لَمْ تُذْهِلْهُ الْمُفَاجَأَةُ. لَمْ يَقُدْ شَيْئًا مِنْ شَجَاعَتِهِ. لَمْ
تَتَفَكَّرْ أَوْصَالُهُ. لَمْ يَطْرُ قَلْبُهُ مِنَ الرُّعْبِ شَعَاعًا.^٧
غَيْرُ «أَبِي الْغُصْنِ» يَتَمَلَّكُهُ الْفَرَّاعُ، وَيَسْتَدِّ بِهِ الْجَرَاعُ.

(٧) عَوْدَةُ الْمِفْتَاحِ

جَرَى «أَبُو الْغُصْنِ» عَلَى مَالُوفِ عَادَتِهِ فِي مُجَابَةِ الْخُطُوبِ. لَمْ يُفَارِقُهُ ثَبَاتُهُ وَرَبَاطُهُ
جَائِشِهِ. ابْنَدَرَ الْعِمَلَاقَ بِالْتَّحِيَّةِ، بِاسْمِ التَّغْرِيرِ.

دَهِشَ الْعِمَلَاقُ مِمَّا رَأَى. لَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ يُعْجَبَ بِشَجَاعَةِ «أَبِي الْغُصْنِ»، وَصِدْقِ
إِيمَانِهِ. هِشَ لَهُ وَبَشَّ. رَدَّ تَحِيَّتَهُ بِأَحْسَنِ مِنْهَا. رَحَبَ بِقُدُومِهِ أَيْمَانًا تَرْحِيبِ. قَالَ الْعِمَلَاقُ:
«أَلَا تَذَكَّرُ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»، أَنَّكَ نَسِيَتِ مَفْتَاحَ الْكَنْزِ فِي الْقُفلِ!»
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «لَمْ أَنْسَهُ، يَا سَيِّدِي لَكِنَّ الْبَابَ أَغْلَقَ دُونَ أَنْ يُغْلِقَهُ أَحَدٌ. لَمْ
يَكُنْ لِي يَدٌ فِي إِغْلَاقِهِ.»

قَالَ الْعِمَلَاقُ: «لَمْ يَكُنْ لَكَ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى الْخُرُوجِ، بَعْدَ فِقدَانِ الْمِفْتَاحِ. كَادَ الْكَهْفُ
يُصِبِّحُ سِجْنًا لَكَ! إِنَّ أَسْتَاذِي «أَبَا شَعْشَعٍ» لَمْ يَفْتَنْهُ ذَلِكَ. أَدْرَكَ حَرَجَ مَوْفِكَ بَعْدَ فِقدَانِ
الْمِفْتَاحِ. أَشْفَقَ عَلَيْكَ. لَمْ يَشَأْ أَنْ تَطُولَ حَيْرَتُكَ. أَمْرَنِي أَنْ أُعِيدَ الْمِفْتَاحَ الذَّهَبِيَّ إِلَيْكَ.

^٥ شخص.

^٦ أَعْضَاوَهُ.

^٧ أَجْزَاءٌ مُتَفَرِّقة.

(٨) حَيَّةُ الْكَنْزِ

كَانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّكَ أَنَّ حَيَّةَ الْكَنْزِ عَرَثَتْ عَلَيْهِ، مَا إِنْ عَثَرْتِ الْحَيَّةَ عَلَيْهِ، حَتَّى أَسْلَمْتُهُ إِلَى أَسْتَادِنَا «أَبِي شَعْشَعٍ». مَا إِنْ تَسْلَمْهُ «أَبُو شَعْشَعٍ»، حَتَّى أَمْرَنَا بِتَسْلِيمِ الْمِفْتَاحِ إِلَيْكَ. هَا هِيَ ذِي حَيَّةَ الْكَنْزِ تُحَبِّيْكَ، وَتُلْقِي إِلَيْكَ بِمِفْتَاحِ الْكَنْزِ. نَحْنُ جَمِيعًا لِأَمْرِ أَسْتَادِنَا «أَبِي شَعْشَعٍ» سَمِيعُونَ، وَلِإِشَارَتِهِ مُطِيعُونَ.»

أَتَمَ الْمَارِدُ كَلَامُهُ. قَدَفَتْ حَيَّةُ الْكَنْزِ بِالْمِفْتَاحِ مِنْ فِيهَا. أَقْفَهُ «أَبُو الْغُصْنِ» شَاكِرًا مَسْرُورًا. اسْتَخْفَتِ الْحَيَّةُ وَالْمَارِدُ عَنْ نَاظِرِيْهِ فِي الْحَالِ.

(٩) عَاقِبَةُ الصَّابِرِ

أَحَسَ «أَبُو الْغُصْنِ» إِحْسَاسًا حَفِيْأًا أَنَّهُ قَادِمٌ عَلَى سَعَادَةٍ عَظِيمَةٍ ... سَعَادَةٌ لَمْ يَكُنْ لِيَحْلُمْ بِمِثْلِهَا مِنْ قَبْلُ.

كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» عَلَى ثِقَةٍ مِنَ الْيُسْرِ بَعْدِ الْعُسْرِ. كَانَ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ أَنَّ اللَّهَ سَيَجْزِيْهُ – عَلَى صَبْرِهِ – الْجَزَاءَ الْأَوْفَ، بَعْدَ أَنْ تَنَكَّرَ لَهُ الزَّمَانُ، وَهَرَبَ مِنْهُ الْأَصْحَابُ وَالْخَلَانُ، وَاجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ – مِنْ مَصَابِ الْحَرِيقِ وَالَّدِينِ وَالْفَاقِهِ – صُنُوفُ وَالْوَانُ.

كَانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّهِ أَنَّهُ شُجَاعٌ. لَا يَسْتَسِلُمُ لِلْيَأْسِ. كَانَ مِنْ أَسْبَابِ سَعَادَتِهِ أَنَّهُ يُلْقِي أَحْدَاثَ الدَّهْرِ بِصَدْرِ رَحِيبٍ، وَيَتَحَمَّلُهَا بِصَبْرٍ عَجِيبٍ وَأَمْلٍ لَا يَخِيبُ.

كَانَ مِنْ عَادِتِهِ أَنْ يَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَإِذَا صَبَرْتَ لِجَهْدِ نَازِلَةٍ فَكَانَهُ مَا مَسَكَ الْجُهْدُ!

كَانَ عَلَى حَقٍّ. لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ يُرِيدُ بِهِ خَيْرًا، لَمَا أَلْهَمَ الصَّابِرَ عَلَى الْمَكَارِهِ. طَالَمَا سَمِعَ: أَنَّ الصَّابِرَ مِفْتَاحُ الْفَرَجِ. هَا هِيَ الْحِكْمَةُ الصَّادِقَةُ تَتَحَقَّقُ. هَا هُوَ ذَا يَعْتَرُ عَلَى الْمِفْتَاحِ الْذَّهِيْيِّ فِي أَشَدِ سَاعَاتِهِ حَرَجًا.

كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» يُؤْمِنُ بِالصَّابِرِ إِيمَانًا عَجِيبًا. كَانَ يَرَى فِيهِ جُمَاعَ الْفَضَائِلِ.

طَالَّمَا قَالَ لِنَفْسِهِ: «إِنَّ الْعُقْلَ هُوَ أَكْبَرُ مَا مَيَّزَ اللَّهُ بِهِ الْإِنْسَانَ عَلَى الْحَيَوَانِ. وَأَعْظَمُ مَا شَرَّفَهُ عَلَى جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ. مَا أَجْدَرَ الْعُقْلَ أَنْ يَأْتِي بِالْمُبْدِعِ الْعَجِيبِ، وَيَصْنَعَ الْمُعْجِزَ الْغَرِيبَ! لِكِنَّ الْعُقْلَ – مَعَ جَلَالِ خَطِيرِهِ – رُبَّمَا وَقَفَ حَائِرًا أَمَامَ مُشْكِلَةٍ مِنَ الْمَشَاكِلِ، وَحَيَّرَ إِزَاءَ كَارِثَةٍ لَا يُجْدِي فِيهَا إِلَّا الْإِسْتِسْلَامُ لِقَضَاءِ اللَّهِ وَرَرْضِي بِمَا قَدَرُهُ.

هُنَا يَتَوَاصَى بِالصَّبِرِ. سُرْعَانٌ مَا يَتَجَلِّ فَضْلُ الصَّبِرِ مُعِينًا وَهَادِيًّا: يَعْمُرُ النَّفْسَ. يُبَدِّدُ الْيَأسَ، يُدْهِبُ الْحَيْرَةَ وَالْفَلَقَ، وَيُحْلِ مَكَانَهُمَا السَّكِينَةُ، وَالْأَمْنُ وَالْطُّمَانِيَّةُ. بَعْدَ حِينٍ، تَنْجَلِي الْأَرْمَةُ، وَتَنْكِشِفُ الْغَمَّةُ. تَمُّرُ الْعَاصِفَةُ الْعَاتِيَّةُ، وَتَتَنَصَّرُ النَّفْسُ الرَّاضِيَّةُ!»

(١٠) بَصِيصُ مِنَ النُّورِ

أَفَاقَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنْ تَأْمِلِهِ. أَلْفَتْ عَيْنَاهُ ظَلَامَ الْكَهْفِ، كَمَا أَلْفَ قَلْبَهُ – مِنْ قَبْلٍ – ظَلَامَ الْمَصَائِبِ وَالْخُطُوبِ. أَدْرَكَ أَنَّهُ وَاقِفٌ فِي قَاعَةٍ فَسِيَّحةٍ، تَنْتَهِي إِلَى رُوَاقٍ، يَنْبَعُثُ مِنْ أَحَدِ أَرْكَانِهِ بَصِيصٌ مِنْ نُورٍ.

تَوَجَّهَ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَى الرُّوَاقِ أَدْهَشَهُ اسْتِسْاعُ جَنَبَاتِهِ، وَانْفِسَاحُ بَاحَاتِهِ.^٨ خَيَّلَ إِلَيْهِ لِرَحَابَتِهِ – أَنَّهُ يُمَثِّلُ أَمْلَهُ فِي الْحَيَاةِ وَرَجَاءَهُ. أَرَادَ أَنْ يَتَعَرَّفَ نِهايَةَ الرُّوَاقِ. وَأَصَلَ السَّيْرَ دُونَ أَنْ يَظْفَرَ بِبُعْيَتِهِ. تَلَقَّتْ يَمْنَةً وَيَسْرَةً، أَبْصَرَ رُوَاqًا ثَانِيًّا. دَخَلَ الرُّوَاقَ الثَّانِيَّ.

انْتَهَى بِهِ الرُّوَاقُ الثَّانِيَّ إِلَى ثَلَاثِ حُجُّرٍ فَسِيَّحةٍ.

دَخَلَ أُولَاهَا: وَجَدَهَا مُخْمَسَةَ الزَّوَّاياً.

دَخَلَ الثَّانِيَّةَ: وَجَدَهَا مُسَدَّسَةَ الزَّوَّاياً.

(١١) مَصْدَرُ الضَّوْءِ

دَخَلَ التَّالِثَةَ: رَأَاهَا مُسَبَّعَةَ الزَّوَّاياً.

رَأَى فِيهَا نُورًا سَاطِلًا تَشْعُ أَضْوَاؤُهُ عَلَى سَائِرِ الْحُجُّرَاتِ الْمَمْلُوَةِ بِنَفَائِسِ الْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ، وَاللَّالِيَّةِ الْيَتَمِّيَّةِ.

^٨ ساحاته.

مِصْبَاحُ الْكَنْزِ

الآن اهتدى إلى مَصْدَرِ النُّورِ الَّذِي يُرِسِّلُ أَضْوَاءَهُ إلى أَبْهَاءِ الْكَنْزِ وَحُجْرَاتِهِ؛ كَمَا يُرِسِّلُ الرَّجَاءُ أَضْوَاءَهُ إلى النَّفْسِ، فَيُنْبِرُ جَنَبَاتِهَا، وَيُبَدِّدُ ظُلْمَاتِهَا، وَيَعْمُرُ الْقُلُبَ، فَيُبَدِّدُ الشَّقَاءَ وَالْكَرْبَ.

(١٢) مِصْبَاحُ الْكَنْزِ

سَارَ «أَبُو الْغُصْنِ» مُيَمِّمًا النُّورَ.
انْتَهَى بِهِ السَّيْرُ إِلَى رَفِّ عَلَيْهِ مِصْبَاحٌ، مُتَنَاهٍ فِي الصَّغِيرِ. إِذَا أَطْبَقْتَ عَلَيْهِ كَفَكَ لَمْ يَظْهُرْ لَهُ أَثْرٌ! كَانَ الْمِصْبَاحُ الصَّغِيرُ لَا يَزِيدُ عَلَى دُرْرَةِ نَفِيسَةٍ مِنَ الْمَاءِ، تَنْبَعُ مِنْ جَنَبَاتِهَا أَشْعَةٌ بَاهِرَةُ السَّنَاءِ،^{١٠} مُؤْتَلِقَةُ الْأَنْوَارِ. كَانَتْ أَضْوَاءُ الْمِصْبَاحِ الصَّغِيرِ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِمَا تَرَاهُ مِنْ أَضْوَاءَ شَتَّى فِي قَوْسِ قَرَحِ.

(١٣) قَوْسُ قَرَحَ

أَتَدْكُرُ قَوْسَ قَرَحَ؟
أَلْمَ تَرَهُ، وَهُوَ يَلْمَعُ فِي السَّمَاءِ – بِشَتَّى أَلْوَانِهِ – عَقِبَ الْمَطَرِ، ثُمَّ يَخْبُو^{١١} ضَوْءُهُ فَجَاءَ، فَلَا يَتَرُكُ – مِنَ السَّنَاءِ وَالنُّورِ – إِلَّا مَا يُتَرُكُهُ بِرِيقٍ تِلْكَ الدُّرَّةِ الْيَتِيمَةِ؟

(١٤) حِدِيثُ الْمِصْبَاحِ

خُيَّلَ إِلَى «أَبِي الْغُصْنِ» – مِمَّا شَاهَدَهُ فِي الْمِصْبَاحِ الصَّغِيرِ – أَنَّهُ يَنْتِضُ بِحَيَاةٍ لَا يَعْرِفُ لَهَا مَصْدَرًا، وَلَا يَدْرِي لَهَا كُنْهًا. حَيَاةٌ لَا شَكَّ فِيهَا، وَلَا مَرَأَةٌ.
سَمِعَ «أَبُو الْغُصْنِ» هَمْسًا. اقْتَرَبَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنَ الْمِصْبَاحِ. مَا أَعْجَبَ مَا حَدَثَ!
سَمِعَ الْمِصْبَاحَ يَقُولُ: «خُذْنِي، أَيُّهَا السَّعِيدُ أَنْتَ جَدِيرٌ بِي، وَأَنَا جَدِيرٌ بِكَ.»

^٩ فَاصِدًا.

^{١٠} شديدة اللمعان.

^{١١} ينطفيء.

اسْتَوَلَتِ الدَّهْشَةُ عَلَى «أَبِي الْغُصْنِ». كَادَتْ تُسْلِمُهُ إِلَى الْذُّهُولِ. كَادَ لَا يُصَدِّقُ مَا يَرَاهُ وَيَسْمَعُهُ.

بَعْدَ قَلِيلٍ زَايَلَتُهُ الْحَيْرَةُ. عَاوَدَتْهُ رَبَاطَةُ جَائِشِهِ^{١٢} الَّتِي لَمْ تُفَارِقْهُ طُولَ عُمْرِهِ قَطُّ. لَمْ يَتَرَدَّدْ وَلَمْ يَخْفِ. أَرَادَ أَنْ يَحْسِمَ الظَّنَّ. أَمْسَكَ بِتِلْكَ الدُّرَّةَ النَّفِيسَةَ. مَا إِنْ لَمَسْتَهَا يَدُهُ، حَتَّى سَمِعَ صَوْتَ الْمِصْبَاحِ يَقُولُ: «شَدَّ مَا أَحْسَنْتَ، يَا أَبَا الْغُصْنِ! الْآنَ طَفِرْتَ بِ«مِصْبَاحِ الْكَنْزِ». هَنِيَّا لَكَ الظَّفَرُ بِصُحْبَتِي. سَنَظَلُّ – مُنْذُ الْيَوْمِ – صَدِيقَيْنِ مُتَحَابَيْنِ، مُتَلَازِمَيْنِ، عَلَى الْحَيَاةِ مُتَعَاوِنَيْنِ. سَتَحْمَدُ صُحْبَتِي، كَمَا أَحْمَدُ صُحْبَتَكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

(١٥) نُورُ الْمِصْبَاحِ

انْبَعَثَ مِنْ مِصْبَاحِ الْكَنْزِ شُعَاعٌ بَاهِرٌ السَّنَا، تَشِعُّ أَضْوَاءُهُ فِي جَنَبَاتِ الرُّوَاقِ، فَتَجْلُّ لِرَائِيهَا مَنَاظِرَ فَاتِنَّةَ بَهِيجَةً، لَمْ تَرِ مِثْلَهَا عَيْنُ، وَلَمْ يَخْطُرْ حُسْنُهَا عَلَى قَلْبٍ!

(١٦) مَفَاتِنُ الْكَنْزِ

سَسَّالَنِي: مَاذَا رَأَى؟

هَيْهَاتِ لِوَاصِفِ – مَهْمَا أُوتِيَ مِنْ بَرَاعَةِ الْبَيَانِ – أَنْ يُصَوِّرَ لَكَ مَا رَأَى. كَانَ الْكَنْزُ يَحْوِي مَا لَا يُحْصِي مِنَ الْفَاعِاتِ وَالْأَرْوَقَةِ. كَانَ الْمِصْبَاحُ الصَّغِيرُ يُضَيِّعُهُ جَمِيعًا. كَانَ سَنَاهُ الْبَاهِرُ يَكْشِفُ مَحَاسِنَهَا، وَيُظْهِرُ مَفَاتِنَهَا. كَانَ يَجْلُو لِلْعَيْنِ رَوَائِعَ مِنْ نُقُوشِ حِيطَانَهَا، وَبَدَائِعَ مِنْ تَصَاوِيرِ سُقُوفَهَا. كَانَ سَقْفُهَا يُخَيِّلُ لِمَنْ يَرَاهُ؛ أَنَّهُ سَمَاءُ انْتَرَتْ فِي قُبَّتِهَا الْلَّالِي، كَمَا تُنْتَرُ النُّجُومُ فِي قُبَّةِ السَّمَاءِ! عَيْتَاً أَحَاوَلُ أَنْ أَرْسُمَ لَكَ صُورَةً كَامِلَةً مِنْ غَرَائِبِ مَا أَبْصَرَهُ وَمُدْهِشَاتِهِ. هَيْهَاتِ ذَلِكَ هَيْهَاتِ! لَوْ حَاوَلْتُ وَصَفَ بَعْضِهِ، لَمَّا بَقِيَ شَيْءٌ مِنَ الصَّفَحَاتِ لِرِوَايَةِ الْقِصَّةِ!

(١٧) حِيَاتُ التَّرَفِ

حَانَتْ مِنْهُ التِّفَاتَةُ. رَأَى عَلَى مَقْرَبَةِ مِنْهُ أَرَائِكَ مِنَ الْكَنُوْسِ، بَارِعَةَ الصُّنْعِ؛ عَلَيْهَا وَسَائِدُ مِنَ الْحَرِيرِ، وَرُدِيَّةُ الْلَّوْنِ، مُغَطَّاةً بِنَفَائِسِ مِنَ الدَّمَقْسِ.

رَأَى جَمْهَرَةً مِنَ الشَّبَابِ، تَفِيُضُ عَلَى وُجُوهِهِمُ التَّعْمَةُ، فَوْقَ الْوَسَائِدِ. كَانُوا يَبْدُونَ لِمَنْ يَرَاهُمْ، فِي صُورَةِ الْكُسَالِيِّ الْخَالِمِينَ، الْمُنْغَمِسِينَ فِي الرَّاحَةِ وَالْتَّرَفِ. كَانُوا بَيْنَ النُّؤُمِ وَالْيَقْظَةِ يَتَنَاهَّبُونَ.

كَانُوا سَادِرِيْنَ فِي أَحَلَمِهِمْ. كَانَتْ تِيَابُهُمْ مُزْرَكَشَةً بِالْمَاءِسِ.

حَانَتْ مِنْ «أَبِي الْغُصْنِ» التِّفَاتَةُ. رَأَى رَجُلًا صَامِتًا يَحْمُلُ بَيْنَ يَدِيهِ صِينِيَّةً مِنَ الْبَلُورِ، عَلَيْهَا أَكْوَابٌ مِنَ الْيَاقُوتِ الْأَزْرَقِ، مَقَابِضُهَا مِنَ الْزُّمْرُدِ، مَمْلُوءَةً بِلَدَائِدَ مِنَ الْأَشْرِبَةِ؛ كَشَرَابِ التُّفَاحِ وَالْكُمْثَرِيِّ وَالْبُرْنَقَالِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ.

رِيحُ الْمَسْكِ تَتَبَعَّثُ فِي أَرْجَاءِ الْقَاعَةِ مِنْ مَبَارِخِ مَصْنُوعَةِ مِنَ الْفَضَّةِ، مَصْفُوفَةٍ فِي نِيَّاطِ عَجِيبٍ، حَوْلَ أَسِرَّةِ مِنَ الْذَّهَبِ الْأَصْفَرِ، مُوْشَأَةٍ بِاللُّؤْلُؤِ وَأَصْدَافِهِ.

(١٨) هَيْكُلُ الرَّاحَةِ

دَهَشَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِمَّا رَأَى. لَمْ يُعْجِبْهُ ذَلِكَ التَّرَفُ الَّذِي يَغْمُرُ أُولَئِكَ الشَّبَابَ؛ فَيُحِبُّ إِلَيْهِمُ الرَّاحَةَ وَالْكَسَلَ، ثُمَّ لَا يَلْبِسُ أَنْ يَنْتَهِي بِهِمْ إِلَى الْفَنَاءِ.

سَأَلَ «أَبُو الْغُصْنِ»، الْمِصْبَاحَ: «أَيُّ شَيْءٍ هَذَا الَّذِي أَرَى؟»

أَدْرَكَ الْمِصْبَاحُ مَا يَدُورُ بِخَلِدِهِ مِنَ الْأَفْكَارِ. قَالَ الْمِصْبَاحُ: «هَذَا هَيْكُلُ الرَّاحَةِ! فِي هَذِهِ الْقَاعَةِ يَتَعَذَّبُ الْمُتَرْفُونَ الْمُتَبَطِّلُونَ. الرَّاحَةُ تُضْجِرُهُمْ، وَالْبَطَالَةُ تُمْرِضُهُمْ، هُؤُلَاءِ يُعْذَبُونَ بِالنَّعِيمِ، وَيُشَقَّقُونَ بِالرَّاحَةِ، كَمَا يُعْذَبُ عِيُونُهُمْ بِالشَّقَاءِ!»

حَانَتْ مِنْ «أَبِي الْغُصْنِ» التِّفَاتَةُ. رَأَى أَمَامَهُ تَمَثَّلًا مِنَ الْمَرْمَرِ يُمَثِّلُ الْحَظَّ. كَانَ عَلَى صُورَةِ فَتَاهِ مَلَائِكَةَ، جَالِسَةٍ عَلَى سَرِيرِ مِنَ الْذَّهَبِ، مُحَلَّ بِأَثْمَنِ الْفُصُوصِ، وَهِيَ جَمِيلَةُ الْقَسَمَاتِ، صَافِيَةُ الْلَّوْنِ لَيْسَ فِي جَيْنِهَا النَّقِيُّ أَتَرَ لِلتَّجَعُّدِ. عَيْنَاهَا الْجَمِيلَاتِانِ، لَيْسَ فِيهِمَا شَعَاعٌ مِنَ التَّفَكِيرِ وَالْفَهْمِ، بَلْ تَدْلَانِ عَلَى بَلَاهَةِ وَفَرَاغِ بَالِ. لَمْ تُؤَثِّرِ السَّنُونَ وَالْأَيَّامُ فِي جَسِيمَهَا أَقْلَى تَأْثِيرِ.



اقْتَرَبَ مِنْهَا «أَبُو الْعُصْنِ». نَهَضَتْ إِلَيْهِ الْفَتَاهُ مُنْبَسِمَةً. شَخَّصَتْ إِلَيْهِ بِبَصَرِهَا، كَأَنَّمَا تُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ جَلِيلَةً أَمْرِهِ. انْفَرَجَتْ شَفَّاتُهَا عَنْ صَوْتِ رَائِعِ الْغَنَاءِ، بَارِعِ الْأَدَاءِ. رَتَّلَ تِمْتَالُ السَّعَادَةِ الْأَنْشُودَةِ التَّالِيَةِ، أَبْدَعَ تَرْتِيلِهِ:

أَنَا جَلَّابُ الرَّحَاءِ
اسْمِي الْجَدُّ وَعَنِي
نَافِذٌ فِي كُلِّ أَمْرٍ
كَمْ صَغِيرٌ، بِي أَضْحَى
وَفَقِيرٌ، عَادَ — بَعْدَ الـ^ا
إِنَّ لِي شَأْنًا عَجِيبًا
لَا أُبَالِي، حِينَ أَحْطُو

أَنَا يَنْبُوْعُ الصَّفَاءِ
كُلُّ الْوَانِ الْهَنَاءِ
نَاصِرٌ لِلضُّعْفَاءِ
هَازِئًا بِالْأَقْوَيَاءِ
فَقْرٌ — مُؤْفُورُ الثَّرَاءِ
فِي تَصَارِيفِ الْقَضَاءِ
بِأَعْوَجَاجٍ وَالْتِوَاءِ!

مِصْبَاحُ الْكَنْزِ

تَلَفَّتْ «أَبُو الْغُصْنِ» حَوْلَهُ. رَأَى تَمَاثِيلَ مُبْدِعَةٍ مِنَ الْمَرْمَرِ، تُمَثِّلُ الشَّجَاعَةَ وَالْعَمَلَ وَالرَّجَاءَ. كَانَتْ تُرْتَلُ أَنَاشِيدَ رَائِعَةً. اسْتَمَعَ إِلَيْهَا وَهِيَ تُنْشِدُ:

الشَّجَاعَةُ:

لَامْ شَأْنُ الْأَقْوِيَاءِ
وَى نُفُوسُ الْمُضْعَفِاءِ
لَمْ يَنْلِ مِنْ كِبْرِيَائِي
وَنَفَادِي وَقَضَائِي

أَنَا لَا أَحْفَلُ بِالْأَ
إِنَّمَا تَصْرُخُ بِالشَّكْ
يَكْدُرُ الدَّهْرُ وَيَصْفُو
لَا يَفْلُ الْحَطْبُ عَزْمِي

الْعَمَلُ:

أَنَا رَمْزٌ لِلْبَقَاءِ
وَجِهَادٍ وَمَضَاءِ

أَنَا لِلْخُلُدِ شَعَارُ
الْأَهْبُ النَّاسَ بَعْزِمٍ

الرَّجَاءُ:

لَيْسَ لِي أَيُّ اِنْتِهَاءٍ
ظُلُمَاتٍ بِضِيَاءِ

لَيْسَ لِي أَيُّ اِبْتِدَاءٍ
أَغْلُبُ الْيَاسَ فَأَمْحُو

كَانَمَا أَفَاقَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنْ رُقَادٍ عَمِيقٍ. كَانَمَا انْتَهَى مِنْ حُلْمٍ طَوِيلٍ. حَرَّاجَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنَ الْقَاعَةِ. قَالَ: «كَلَّا. لَا أُحِبُ التَّرْفَ، وَلَا أُطِيقُ الرَّاحَةَ. التَّرْفُ وَالرَّاحَةُ – فِيمَا أَرَى – مَجْلِبَةُ الشَّقَاءِ. وَدَاعِيَةُ إِلَى الْفَنَاءِ.»

(١٩) حِدِيقَةُ الْحَيَاةِ

التَّفَتْ «أَبُو الْغُصْنِ» حَوْلَهُ. رَأَى نُفُسَهُ فِي الْحُجْرَةِ ذَاتِ الْأَرْكَانِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا. قَالَ الْمِصْبَاحُ: «سَمِعْتُكَ تَهْتَقُ بِالْحَيَاةِ. انْظُرْ أَمَامَكَ لَعَلَّكَ وَاجِدٌ فِي هَذِهِ الْحِدِيقَةِ طِلْبَتَكَ، وَبَالْغُ فِيهَا أُمِّيَّتَكَ!»

أَلْقَى الْمِصْبَاحُ نُورَهُ عَلَى الْحُجْرَةِ سَاطِعًا وَهَاجًا، يَكَادُ لِوَهَجِهِ يُدِيبُ الْجُدْرَانَ، وَيُخْتِرُ الْحِيطَانَ. تَجَلَّتْ أَمَامَ «أَبُو الْغُصْنِ» فُنُونُ مِنَ الْطُّرُفِ، وَالْوَانُ مِنَ الْعَجَائِبِ، لَا يُحِيطُ بِهَا الْوَصْفُ. تَبَدَّتْ أَمَامَهُ حَدِيقَةُ الْحَيَاةِ فِي أَبْهَى رُوَايَةِ لَمْ يَفْتَنُهُ مَا رَأَهُ فِي أَرْجَائِهَا مِنْ كُنُوزِ الْذَّهَبِ وَالْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ، إِنَّمَا فَتَنَهُ وَسَحَرَ لُبَّهُ مَا رَأَهُ فِي الْحَدِيقَةِ مِنْ أَعْشَابٍ وَأَرْهَارٍ، وَأَشْجَارٍ وَأَنْهَارٍ، وَبَلَابِلٍ وَأَطْيَارٍ.

أَمْتَلَّا الْمَكَانُ بِأَنْكِي الرَّوَائِحِ الْعَطَرَةِ. افْتَنَتِ الْطَّيُورُ فِي تَغْرِيَدَهَا عَلَى أَغْصَانِ الشَّجَرِ. امْتَزَجَ بِغَنَائِهَا حَرَبِرُ الْمِيَاهِ وَهَدِيرُهَا، بَيْنَ حَشَائِشِ الْحَدِيقَةِ وَأَعْشَابِهَا. غَمَرَتِ السَّعَادَةُ نَفْسَ «أَبُو الْغُصْنِ». ذَكَرَتْهُ بِوَلَدِيهِ وَزَوْجِهِ. تَمَنَّى لَوْ صَاحِبُوهُ فِي هَذَا الْعَالَمِ الْفَاتِنِ الْبَهِيجِ!

(٢٠) رُمُوزٌ وَتَمَاثِيلٌ

أَنْعَمَ النَّظَرُ فِي تِلْكَ الثَّمَارِ النَّاضِحةِ ... خُيَّلَ إِلَيْهِ أَنَّ التُّفَاحَةَ تُمَثِّلُ الْعِلْمَ. وَأَنَّ الْكُمَثَرَ تَرْمِزُ إِلَى الصَّنَاعَةِ. وَالْكَرِيزَ تَمَثِّلُ فِيهِ صُورَةُ الْلُّطْفِ وَالْوَدَاعَةِ. وَعَنْبَ الْتَّعَلُّبِ تَنْبِعُ مِنْهُ ضِحْكَةُ السُّرُورِ وَالْمَرِحِ.

تَخَيَّلَ الشَّجَاعَةَ تَحْتَ قِشْرَةِ التِّينِ. وَالطَّلِيَّةَ تَحْتَ قِشْرَةِ الْمِشْمِشِ. وَالْإِقْتِصَادَ فِي الْلَّيْمُونِ الْحُلُوِّ. وَالْإِحْسَانَ فِي الْبُرْتُقَالِ. وَجَمَالَ الْفَنِّ فِي هَيْتَهُ الْحَوْخِ. وَرَمْزُ الصَّبِيرِ فِي الْبُرْقُوقَةِ. وَمَصْدَرَ الْفَصَاحَةِ فِي الْعَنْبِ. وَهَكَذَا ...!

اَحْتَوَتِ الْحَدِيقَةُ جَمِيعَ مَا تُخْرِجُهُ بِلَادُ الدُّنْيَا مِنْ الْوَانِ الثَّمَرِ، وَفُنُونِ الشَّجَرِ وَالرَّهَرِ، فِي جَمِيعِ الْفُصُولِ.

عِجبُ «أَبُو الْغُصْنِ» مِمَّا رَأَى. بَحَثَ عَنْ مَصْدَرِ الْأَشْعَةِ الَّتِي أَنْضَجَتِ الْأَشْجَارَ، وَفَفَحَّتِ الْأَرْهَارَ، وَأَنْطَقَتِ الْأَطْيَارِ!

عِجبُ أَيُّ عَجِبٍ! نُورٌ يَمْلأُ الْأَرْجَاءَ. مِنْ أَيْنَ جَاءَ؟! لَا شَمْسَ — فِي الْكَهْفِ — وَلَا سَمَاءً!

«أَبُو الْغُصْنِ» يُسَائِلُ نَفْسَهُ مَدْهُوشًا: «تُرِى مِنْ أَيِّ كَوْكِ تَتَبَعُ الْحَيَاةُ فِي هَذَا الْكَهْفِ الْمُفْقَلِ؟ تُرِى أَيُّ قُوَّةً أَنْشَأَتْ فُنُونَ هَذِهِ الْتُّحَفِ وَالْبَدَائِعِ، وَنَسَقَتْ أَشْتَاتَ مَا أَرَى مِنَ الطُّرُفِ وَالرَّوَايَعِ؟»

(٢١) صَوْتُ هَامِسٌ

صَوْتُ خَافِفُ يَهْمِسُ. إِنَّهُ صَوْتُ الْمِصْبَاحِ يَقُولُ: «الْعَمَلُ. إِنَّهُ الْعَمَلُ، يَا أَبَا الْغُصْنِ»! إِنَّهُ الْعَمَلُ وَحْدَهُ، لَا شَيْءَ غَيْرُهُ! لَوْلَا الْعَمَلُ لَتَعَطَّلَ كُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ! لَوْلَا لَتَوَقَّفَ الْكَوْنُ عَنِ الْحَرَكَةِ، وَكَفَّ الْفَالَّكُ عَنِ الدَّوْرَانِ!»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «صَدَقْتَ، يَا سَيِّدِي! إِنَّهُ الْعَمَلُ. لَا شَيْءَ غَيْرُ الْعَمَلِ. هُوَ — كَمَا تَقُولُ — مَصْدُرُ الْحَرَكَةِ. وَالْحَرَكَةُ بِرَكَةٍ، كَمَا تَقُولُ الْأَمْثَالُ الصَّادِقَةُ. لَكِنَّ التَّجْرِيَةَ عَلَمْتُنَا أَنَّ الْعَمَلَ لَا يُجْدِي وَلَا يُؤْتِي شَيْرًا، إِذَا لَمْ تُمْدَدُ الشَّمْسُ بِحَرَارَتِهَا وَضُوئِهَا. بِغَيْرِ الشَّمْسِ لَا تَنْمُو حَيَاةً وَلَا يَنْضَجُ ثَمَرًا!»

قَالَ الْمِصْبَاحُ: «كَلَامُكَ حَقٌّ، حَقٌّ لَا رَيْبٌ فِيهِ وَلَا مِرَاءٌ. لَمْ تَعْدُ الصَّوَابَ فِيمَا تَقُولُ. لَوْلَا الشَّمْسُ مَا كَانَ نَبَاتٌ، وَلَا عَاشَ حَيٌّ مِنَ الْكَائِنَاتِ. هَذَا، فِي عَالَمِكُمُ الْأَرْضِيُّ. أَمَّا فِي عَالَمِنَا الْعُلُوِّيِّ — حَيْثُ نَعِيشُ — فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِنُورِ الشَّمْسِ وَلَا حَرَارَتِهَا. الْأَمْرُ عِنْدَنَا جُدُّ مُخْتَلِفٌ. شَتَّانَ بَيْنَ حَيَاتَنَا.

لَوْ كَانَ هَذَا الْكَهْفُ مُتَّصِلًا بِعَالَمِكُمُ الْإِنْسِيِّ، لَكَانَ كَمَا تَقُولُ. لَكِنَّهُ مُنْفَصِلٌ عَنْ عَالَمِكُمُ الْأَرْضِيِّ، مُتَّصِلٌ بِعَالَمِنَا الْعُلُوِّيِّ؛ لِذَلِكَ يَغُمُرُهُ النُّورُ دُونَ حَاجَةٍ إِلَى الشَّمْسِ.

(٢٢) فَضْلُ الْعَمَلِ

شَيْءٌ وَاحِدٌ يَجْمَعُ بَيْنَنَا، وَلَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ أَيْنَا. لَا تَقُومُ لَكُمْ قَائِمَةٌ — بِدُونِهِ — وَلَا لَنَا. تَشْتَرِكُ فِيهِ الْكَائِنَاتُ، وَلَا تَسْتَغْنِي عَنْهُ عَلَى اخْتِلَافِ الْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا، وَقُوَّاهَا وَأَحْجَامِهَا. تَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّمْلَةُ الْمُنْتَاهِيَّةُ فِي الضَّالَّةِ وَالصَّغْرِ، كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْفِيلُ الْمُنْتَاهِي فِي الصَّخَامَةِ وَالْكِبِيرِ، يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْإِنْسِيُّ الْخَائِرُ الْضَّعِيفُ، وَالْجِنِّيُّ الْمَارِدُ الْعَنِيفُ. إِنَّهُ الْعَمَلُ. حَيٌّ عَلَى الْعَمَلِ. حَيٌّ عَلَى الْعَمَلِ.»

لَادَ «أَبُو الْغُصْنِ» بِالصَّمْتِ. غَرَقَ فِي بَحْرِ مِنَ التَّأَمْلِ. لَمْ يُلْبِسْ أَنْ صَحَا مِنْ تَفْكِيرِهِ الْعَمِيقِ. التَّفَقَ إِلَى الْمِصْبَاحِ قَائِلًا: «صَدَقْتَ. صَدَقْتَ. مَا خُلِقْنَا إِلَّا لِلْعَمَلِ. لَا حَيَاةَ — لِكُلِّ مَنْ فِي الْوُجُودِ — بِغَيْرِ عَمَلٍ. حَيَّ عَلَى الْعَمَلِ». ^{١٤}

٢٣) شَجَرَةُ الْفَاكِهَةِ

بَعْدَ قَلِيلٍ حَلَّ بِهِ التَّعْبُ: ظَاهِمًا ^{١٣} شَدِيدٌ وَسَغُبُ ^{١٤}! عَلَى مَقْرَبَةِ مِنْهُ شَجَرَةُ دَانِيَةُ الْقُطْوُفِ، مُحَمَّلَةُ بِلَذَائِذِ الشَّمْرِ، طَعَامُ سَائِعٍ، وَشَرَابٌ هَنْيٌ. فِيهِمَا شِبَاعٌ وَرِيٌّ. تَمَرٌ يُغْرِيَهُ وَيُرَاوِدُهُ. امْتَدَتْ لَقْطَفِهِ يَدُهُ. مَا بِالْهُ يَقِبِضُ يَدُهُ بَعْدَ أَنْ بَسْطَهَا! مَا بِالْهُ يَتَرَاجِعُ خَائِفًا مَدْعُورًا؛ كَأَنَّمَا لَدَغَتْهُ أَفْعَى، أَوْ لَسَبَّتْهُ ^{١٥} عَقْرُبٌ! كَادَ يَتَنَكَّبُ سَبِيلَ الْأَمَانَةِ وَالظُّلْمِ، وَيَتَرَدَّدُ فِي مَهَاوِي الْضَّلَالِهِ وَالشَّرِّ. حَاطِرُ كَرِيمٌ طَافَ بِرَأْسِهِ، أَشَاعَ الْحِكْمَةِ فِي قَرَارِهِ نَفْسِهِ. سُرْعَانٌ مَا تَيَقَّظَ ضَمِيرُهُ الْحَيُّ. أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يُعَايِبُهَا. يُسَائِلُهَا وَيُحَاسِبُهَا: كَيْفُ يَجْرُؤُ عَلَى الظَّمَعِ فِيمَا لَيْسُ لَهُ؟

كَيْفَ يَسْتَحِلُّ لِنَفْسِهِ أَنْ يَلْمِسَ فَاكِهَةَ لَمْ يَأْذِنْ لَهُ صَاحِبُهَا فِيهَا؟ أَسْرَعَ بِالْفِرَارِ وَالْهَرَبِ. حَمِدَ اللَّهَ عَلَى أَنْ يَسَّرَ لَهُ سَبِيلَ الْهِدَايَةِ، وَنَجَاهُ مِنْ فِتْنَةِ الْغَوَايَةِ.

٢٤) حَوْضُ الْمَاءِ

حَوْضٌ مِنَ الرُّخَامِ عَلَى مَقْرَبَةِ مِنْ «أَبِي الْغُصْنِ»: حَوْضٌ يَسْبِبُ إِلَيْهِ الْمَاءُ مِنْ نَافُورَةِ عَالِيَّةِ. الْحَوْضُ تَكْتَنِفُهُ الْأَزْهَارُ. مَأْوِهُ الْعَذْبُ النَّمِيرُ يَتَدَدَّقُ أَمَامَ نَاظِرِيَّهُ. الظَّمَاءُ يَكَادُ

١٣. عَطْشَن.

١٤. جَوْع.

١٥. لَدْغَتْهُ.

يُقْتَلُهُ. قَالَ فِي نَفْسِهِ: «لِلْفَاكِهَةِ صَاحِبُ يَمْلِكُهَا. أَمَّا الْمَاءُ فَلَيْسَ وَقْفًا عَلَى صَاحِبِهِ، بَلْ هُوَ حِلٌّ مُبَاحٌ مَبْدُولٌ لِشَارِبِهِ». فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ، لَمْ يَرَدَّ «أَبُو الْعُصْنِ» فِي الْإِرْتَوَاءِ مِنْ مَاءِ الْحَوْضِ. مَا كَانَ أَعْدَبَهُ مَاءً! قَطَرَاتُ قَلِيلَةٍ مِنْهُ أَرْوَهُتْ. مَا إِنْ اسْتَقَرَتْ فِي جَوْفِهِ حَتَّى سَرَتْ فِي عُرُوقِهِ الصَّحَّةُ، وَنَمَسَّتْ فِي مَفَاصِلِهِ الْعَافِيَةُ؛ وَزَايَلَ أَعْضَاءُهُ الْفُتُورُ وَالْوَهَنُ. تَحَرَّكَ حِسْمُهُ الْهَامِدُ بَعْدَ يَسِّ. خَفَّ بَعْدَ ثَقِيلِ رَشْقٍ بَعْدَ كَلَالٍ. نَشَطَ بَعْدَ كَسْلٍ. صَحَّ بَعْدَ سَقَمٍ. قَوَى بَعْدَ ضَعْفٍ. خَيَّلَ إِلَيْهِ أَنَّ دَمًا قَوِيًّا يَدْبُبُ فِي جَسْمِهِ وَيَسْرِي فِي عُرُوقِهِ. أَحَسَّ قُوَّةً لَا عَهْدَ لَهُ يَمْتَلِهَا فِي طُفُولَتِهِ وَصِبَاهُ.

(٢٥) قَطَرَاتُ الْعَافِيَةِ



مَا أَسْعَدَهُ بِهَذِهِ النَّتِيَّةِ!

إِنَّ كُنُوزَ الْعَالَمِ كُلَّهَا لَا تُسَاوِي مَا أَظْفَرَتْهُ بِهِ الْقَطَرَاتُ الْعَذْبَةُ مِنْ صِحَّةٍ وَنَشَاطٍ
وَمَا سَكَبَتْهُ فِي عُرُوقِهِ مِنْ قُوَّةٍ وَعَافِيَةٍ.
عَمَرَتِ الْبَهْجَةُ قَلْبَهُ، صَيَّحَ قَائِلاً: «مَا أَسْعَدَ إِلَّا إِنْسَانٌ يَعِيشُ حَيَاتَهُ سَلِيمَ الْجِسمِ
مَعَافِيَ قَوِيًّا!»

أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يُسَائِلُهَا: «تُرِى مِنْ أَيْنَ سَرَتْ إِلَيَّ هَذِهِ الْقُوَّةُ الْمُفَاجِهَةُ؟ أَكَانَ
فِي قَطَرَاتِ الْمَاءِ الْقَلِيلَةِ سُرُّ هَذَا التَّغَيُّرِ الشَّامِلِ الطَّارِئِ، وَمَبْعَثُ هَذِهِ الْقُوَّةِ الْعَارِمَةِ
الْمُفَاجِهَةَ؟!»

(٢٦) صَوْتُ الْمِصْبَاحِ

رَنَّ فِي أَذْنِهِ صَوْتُ الْمِصْبَاحِ. اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «صَدَقْتَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»!
مَا عَدَوْتَ الصَّوَابَ. مِنْ خَصَائِصِ هَذَا الْمَاءِ أَنَّهُ يَمْنَحُ^{١٦} شَارِبَهُ أَتْمَنَّ مَا يَرْجُوهُ –
فِي الْحَيَاةِ – مِنْ أَمَانَى. مِنْ عَجِيبِ مَرَايَاهُ: أَنَّهُ يُدِيمُ لِشَارِبِهِ الْصِّحَّةَ وَالشَّبَابَ. مِنْ
حَسَنَاتِهِ أَنَّهُ يَقِيهِ شَرَّ الْأَمْرَاضِ وَالْعَاهَاتِ، وَيُجْبِنُهُ شُرُورَ الْصُّبُفِ وَالْوَهَنِ. هِيَهَا أَنْ
تَدِبُّ الشَّيْخُوَّةُ إِلَى جَسْمِ شَارِبِهِ، تِلْكَ بَعْضُ خَصَائِصِ هَذَا الْمَاءِ الْعَجِيبِ، وَهَذِهِ بَعْضُ
مَرَايَاهُ.

بَقِيَ شَيْءٌ وَاحِدٌ أُرِيدُ أَنْ أَنْبَهُكَ إِلَيْهِ ...

(٢٧) مُقَاطَعَةُ غَيْرِ مَقْصُودَةٍ

كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» غَارِقاً فِيمَا ظَفَرَ بِهِ مِنْ السَّعَادَةِ، الَّتِي أَظْفَرَهُ بِهَا مَاءُ الْحَوْضِ
الْمَسْحُورُ.

لَهُ الْعُذْرُ إِذَا مَلَكَ عَلَيْهِ الْفَرْحُ كُلَّ نَفْسِهِ، وَأَدْهَلَهُ الْفَوْزُ عَنْ كُلِّ مَا حَوْلَهُ، لَهُ الْعُذْرُ
إِذَا غَفَلَ عَنِ الْمِصْبَاحِ، غَيْرَ غَامِدٍ.

^{١٦} يعطى.

أَيُّهَا الْقَارِئُ الْعَزِيزُ: لَوْ كُنَّا — أَنْتَ أَوْ أَنَا — مَكَانَ «أَبِي الْغُصْنِ»! تُرَى مَاذَا كُنَّا صَانِعِينَ؟ أَمَا كَانَ الْفَرَحُ يَطْغَى عَلَيْنَا — كَمَا طَغَى عَلَى «أَبِي الْغُصْنِ» — فَيُنْسِينَا الْإِصْفَاءَ إِلَى بَقِيَّةِ الْحَدِيثِ الَّذِي بَدَأْهُ الْمِصْبَاحُ؟

(٢٨) أَمْلُ وَرَجَاءُ

أَيُّ فَوْزٍ وَأَيُّ سَعَادَةٍ أَدْرَكَا «أَبَا الْغُصْنِ»؟ مَا أَجْدَرَهُ بِمَا ظَفَرَ! تُرَى: أَيْتَاهُ لَنَا — أَنْتَ وَأَنَا — أَنْ نَرَوْيَ مِنْ هَذَا الْمَاءِ الَّذِي شَرِبَ مِنْهُ «أَبُو الْغُصْنِ».

تُرَى: أَيْسِتُطِيعُ الْعِلْمُ أَنْ يَهْتَدِي — بَعْدَ زَمِنٍ، قَرِيبًا كَانَ أَمْ بَعِيدًا — إِلَى سِرِّ هَذَا الْمَاءِ النَّاجِعِ الشَّافِيِّ؟

(٢٩) تَحْذِيرٌ هَامِسٌ

اسْتَعْذَبَ «أَبُو الْغُصْنِ» الْمَاءَ. سَاوَرَهُ الطَّمْعُ فِي مَزِيدٍ مِنَ السَّعَادَةِ. حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ أَنْ يَغْتَرِفَ مِنَ الْحَوْضِ جُرْعَةً أُخْرَى.

صَوْتُ هَامِسٍ يُحَذِّرُهُ. صَوْتُ الْمِصْبَاحِ يَهْمِسُ فِي أُذُنِهِ قَائِلًا: «مَا بِالْكَثِيمُ أُذُنِيَكَ عَنْ سَمَاعِ نَصِيحَتِي؟ مَا بِالْكَثِيمُ تُقَاطِعُنِي؟ مَاذَا عَلَيْكَ لَوْ سَمِعْتَ بَقِيَّةَ حَدِيثِي؟!» خَلَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِمَّا صَنَعَ. ابْتَدَأَ الْمِصْبَاحَ مُعْتَدِرًا عَنْ حَطَّتِهِ. اسْتَأْنَفَ الْمِصْبَاحَ قَائِلًا: «قُلْتُ لَكَ إِنَّ شَيْئًا وَاحِدًا يَدْفَعُنِي وَاجْبِي إِلَى تَحْذِيرِكِ مِنْهُ، وَتَنْبِيهِكَ إِلَيْهِ. لَكِنَّكَ غَفَلْتَ عَنِي. أَنَا أَتَنَمُسُ لَكَ الْعُذْرَ. لَسْتُ أَجْهَلُ أَنْ فَرَحَكَ — بِمَا ظَفِرْتَ بِهِ — أَذْهَلَكَ عَنْ وَاجِبِ الْإِسْتِمَاعِ إِلَى نَصِيحَتِي. عَفَوْتُ عَنْكَ هَذِهِ الْمَرَّةَ. إِيَّاكَ أَنْ تَعُودَ لِمِثْلِهَا!» أَدْرَكَ «أَبُو الْغُصْنِ» خَطَأهُ. اشْتَدَّ بِهِ الْخَجلُ. أَسْرَعَ إِلَى الْإِعْتِدَارِ عَمَّا بَدَرَ مِنْهُ مِنْ خَطِئٍ غَيْرِ مَقْصُودٍ وَلَا مُتَعَمِّدٍ.

قَالَ الْمِصْبَاحُ: «أَعْلَمُ — يَا «أَبَا الْغُصْنِ» — أَنَّ مَنْ يَشْرُبُ مِنْ هَذَا الْحَوْضِ مَرَّةً وَاحِدَةً، تُكْتُبُ لَهُ الصَّحَّةُ وَالْعَافِيَّةُ طُولَ حَيَاتِهِ. إِنَّمَا شَرِبَ مِنْهُ مَرَّةً أُخْرَى، عَاجِلُهُ الْمَوْتُ وَطَوَاهُ الْفَنَاءُ!»

(٣٠) الشَّيْخُ الْفَتَى

ارتَّاعَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِمَّا سَمِعَ. رَفَعَ رَأْسَهُ مَدْهُوشاً. أَرَادَ أَنْ يُكَرِّرُ اعْتِدَارَهُ ... يَا لِلْمُفَاجَأَةِ! مَا أَعْجَبَ مَا حَدَثَ!

شَابٌ جَمِيلُ الْطَّلْعَةِ، بَسَّامُ التَّغْرِيرِ، غَصْنُ الْإِمَابِ، مَوْفُورُ الشَّبَابِ، أَنِيقُ الْثِيَابِ، يُقْبِلُ عَلَيْهِ وَيُحِبِّيهِ. دَهِشَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِمَّا رَأَى!

كَانَ الْقَادِمُ فِي هَيْثَةِ الْفَتَى الْوَسِيمِ. كَانَ فِي قَسِّمَاتٍ وَجْهُهُ الْمُشْرِقِ شَبَهُ عَجِيبٍ يُذَكْرُهُ بِضَيْفِهِ؟ «أَبِي شَعْشَعِ». لَيْسَ بَيْنَهُمَا مِنْ خِلَافٍ، إِلَّا فَرْقٌ مَا بَيْنَ الشَّبَابِ الْفَيَاضِ بِالنَّشَاطِ وَالْحَرَكَةِ، وَالشَّيْخُوَخَةِ الْوَاهِنَةِ الْفَانِيَةِ.

اشْتَدَّتْ حَيْرَةُ «أَبِي الْغُصْنِ». لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يَقُولُ.

ابْنَدَرَهُ الْفَتَى قَائِلاً: «أَيُّ شَاغِلٍ أَذْهَلَكَ عَنْ رَدِّ التَّحْيَةِ؟ مَاذَا يَرِيُّكَ مِنْ أَمْرِي؟ مَا بِالْكَ تُدِيمُ النَّظَرَ إِلَيَّ؟»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «عَجَبٌ مَا أَرَى، أَيُّ عَجِيبٍ! كَيْفَ لَا تَتَمَلَّكُ الْدَّهْشَةُ، وَتَسْتَدِّي بِي الْحَيْرَةُ؟!

صُورَةُ فَيَاضَةٍ بِالْفُتُوَّةِ، رَازِخَةٍ بِالشَّبَابِ وَالْقُوَّةِ، ذَكَرْتُنِي بِشَيْخٍ مَهِيبٍ جَلِيلٍ. كَانَ يَصْحَبُنِي مُنْذُ وَقْتٍ قَلِيلٍ. كَانَ صَاحِبِي الْعَزِيزُ، شَيْخًا طَاعِنًا فِي السِّنِّ، تَحَالَّفْتُ عَلَيْهِ الْأَمْرَاءُ وَالْعِلَّلُ. أَعْجَرْتُهُ الشَّيْخُوَخَةَ، وَأَضْسَاهُ الْهَرَمُ. كَانَ – فِي الْحَقِّ – أَشْبَهُ إِنْسَانٍ بِكَ. صُورَتُكَ تُمَثِّلُهُ فِي أَوَّلِ الشَّبَابِ. صُورَتُهُ تُمَثِّلُكَ فِي نِهَايَةِ الشَّيْخُوَخَةِ.»

(٣١) حِدِيثُ الْفَتَى

قَالَ الْفَتَى: «مَا أَجْدَرَكَ بِالشُّكْرِ عَلَى كُلِّ حَالٍ. لَمْ تَعُدْ الصَّوَابَ فِيمَا ظَنَّنْتَ! هَيَّهاتَ أَنْ أَنْسِى لَكَ صَنِيعَكَ الْكَرِيمَ. أَنْتَ حَاطِرَتْ بِحَيَاكَ لِتُنْقَدَ – مِنَ الْمَوْتِ – شَخْصًا لَا تَعْرِفُهُ. أَتَحْسَبُ أَنَّ جَمِيلَكَ ذَهَبَ سُدَى؟! أَتَظُنُّ أَنَّ مَعْرُوفَكَ ضَاعَ بِلَا جَزَاءٍ؟ كَلَّا، يَا صَاحِبَ. إِنَّ أَجْرَ الْمُحْسِنِ لَا يَضِيغُ أَبَدًا. كَلَّا – يَا «أَبَا الْغُصْنِ» – لَا يَدْهُبُ الْعُرْفُ ^{١٧} بَيْنَ اللَّهِ

وَالنَّاسُ! لَا بُدَّ أَنْ يَلْقَى الْمُحْسِنُ جَزَاءً مِنَ اللَّهِ. لَا بُدَّ أَنْ يَكَافِئَهُ عَلَى مَا بَذَلَ مِنْ جَمِيلٍ.»
قَالَ أَبُو الْغُصْنِ: «أَيْ كَلَامٌ أَسْمَعُ؟ أَتَعْنِي أَنَّكَ أَنْتَ...؟»

قَالَ الشَّيْخُ: «نَعَمْ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». مَا عَدَوْتَ الصَّوَابَ فِيمَا ظَنَنتَ. أَنَا مِنْ حَسِبْتَ.
أَنَا «أَبُو شَعْشَعٍ»، «لَعْلَعُ بْنُ دَعْدَعِ بْنِ هَدْرِشٍ» الَّذِي أَنْفَدْتَ حَيَاتَهُ لِيَهُ أَمْسِ مِنَ الْغَرَقِ.
كُنْتُ أَمْرُ بِبَلَدِكَ، لِحُسْنِ حَظِّي وَحَظْكَ. عَرَفْتُ مَأْسَاتَكَ. أَعْجَبَنِي ثَبَاتُكَ – فِي مُوَاجَهَةِ
الْخُطُوبِ – وَشَجَاعَتُكَ. أَرْدَتُ أَنْ أَحْفَفَ عَنْكَ بَعْضَ مَا تُعَانِي مِنْ أَلْمِ.

عَرَمْتُ عَلَى أَنْ أُهِيَّ لَكَ الْوَسِيلَةَ لِأَدَاءِ مَا عَلَيْكَ مِنْ دِينٍ؛ لِتَسْتَأْنِفَ حَيَاةَ كَرِيمَةَ،
تَسْتَرِدُ فِيهَا مَا فَقَدْتَ مِنْ ثَرَاءٍ وَغَنَّى. تَبَدَّيْتُ لَكَ – أَوْلَ مَا تَبَدَّيْتُ – فِي صُورَةِ شَيْخٍ
هَرِمٍ، طَاعِنٍ فِي السِّنِّ. لَمْ أَغْفُلْ عَنْكَ – مُنْذُ فَارْقَتُكَ – لَحْظَةً وَاحِدَةً. لَمْ تَغْمُضْ لِي عَيْنُ
عَنْ حِرَاسَتِكَ. ظَلَّتْ سَاهِرًا عَلَيْكَ، دُونَ أَنْ تُبَصِّرَنِي. حَرَصْتُ عَلَى أَنْ أَسْتَحْفِي عَنْكَ.
عَرَفْتُ مُرْوَةَكَ وَصِدْقَ أَمَانَتِكَ. كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّكَ لَنْ تَتَعَدَّ شُرْبَ الْمَاءِ لِتَرْوَى. ذَلِكَ
حُقْ لَا يُنَازِعُكَ فِيهِ أَحَدُ. الْمَاءُ مَبْدُولٌ لِشَارِبِهِ. كُنْتُ عَلَى شَقِّهِ أَنْ يَدَكَ لَنْ تَمَنَّدَ إِلَى شَيْءٍ
مِمَّا تَنَوَّءُ بِهِ الشَّجَرَةُ مِنْ جَنِّيِ التَّمَرِ، مَا دُمْتَ لَمْ تَسْتَأْذِنْ صَاحِبَهُ فِي أَخْدِهِ.
كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ نَجَاحِكَ فِي هَذِهِ التَّجْرِيَةِ الْعَسِيرَةِ، بَعْدَ مَا شَاهَدْتُهُ مِنْ كَرِيمٍ

شَمَائِلَكَ، وَنُبْلِ فَضَائِلَكَ. صَحَّ مَا تَوَقَّعْتُ. لَمْ يَخْبُظْ ظَنِّي. صَدَقَ تَأْمِيلِي فِيكَ.
لِكِنِّي بِرَغْمِ ثِقَتِي فِي أَمَانَتِكَ، رَأَيْتُ أَنْ أَحْتَاطَ لِلْطَّوَارِيَةِ. حَشِيْتُ أَنْ تُصْغِيَ إِلَيْ
وَسُوْسَةِ الشَّيْطَانِ. تَعْمَدْتُ أَنْ أَكُونَ عَلَى مَقْرَبَةِ مِنْكَ. كُنْتُ مُتَحَفِّزاً لِمَنْعِكَ عَنْ قَطْفِ
الْتَّمَرِ، لَوْ أَنَّكَ هَمَمْتَ بِذَلِكَ.

فَضْلُ الْأَمَانَةِ (٣٢)

شَدَّ مَا بَهَجَنِي وَأَسْعَدَنِي أَنْ رَأَيْتُكَ تَكُفُّ يَدَكَ – دُونَ أَنْ يَمْنَعَكَ أَحَدُ – عَنْ لَمْسِ مَا
هَمَمْتَ بِقَطْفِهِ مِنْ ثَمَارِ الشَّجَرَةِ! كَانَتْ نَمَرَاتُهَا مُسِرَّةً لَكَ، دَانِيَةً الْقُطُوفِ. لِكِنَّ رَهْدَتَ
فِيهَا، وَعَزَّزْتَ عَنْهَا،^{١٨} أَحْوَاجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهَا.

١٨ انصرفت عنها.

كَانَ مِنْ دَوَاعِي نَجَاحِكَ وَسَلَادِتَكَ، أَنْ تَعْفَفْتَ عَنْ ثَمَرَاتِهَا وَتَوَرَّعْتَ. هَنِيَّا لَكَ مَا صَنَعْتَ. أَسْعَدْتُكَ أَمَانَتُكَ. أَنْقَذْتُكَ مِنْ شَرِّ عَظِيمٍ. إِنَّهَا «شَجَرَةُ الشَّقَاءِ»، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». ثَمَرَاتُهَا تَحْوِي كُلَّ مَا يَفِيضُ بِهِ الْعَالَمُ مِنْ بَلَاءٍ وَشَرٍّ، وَأَذِيَّةٍ وَضَرٍّ. لَمْ يَغْرِسْهَا غَارِسٌ، وَلَمْ يَرْزُعْهَا زَارِعٌ. لَمْ يَعْهَدْهَا بِالسَّقِيِّ سَاقٍ وَلَا بُسْتَانِيٌّ. لَمْ يُشْرِفْ عَلَى نَمَائِهَا إِنْسَانٌ. لَمْ يَفِ بِرَعَايَتِهَا كَائِنٌ كَانَ.

شَاءَتْ قُدْرَةُ اللَّهِ — سُبْحَانَهُ — أَنْ تَنْبُتَ وَحْدَهَا فِي عَالَمِ الْحَيَاةِ. سُحْقًا لَهَا. مَا أَتَعْسَهَا شَجَرَةً! مَا أَتَعْسَ جُنَاحَهَا، وَقَاطِفِي ثَمَرَاتِهَا.

كَمْ أَتَعْبَتِ الْمُخْلِصِينَ، وَسَمَّمْتِ حَيَاةَ الْكِرَامِ الْعَالَمِينَ! كَمْ بَذَلَ الْهُدَاءُ الْمُصْلِحُونَ مِنْ جُهُودٍ لِاجْتِيَاثِ أَصْلِهَا؛ وَإِرَتِهَا مِنَ الْوُجُودِ! ظَلَّتْ — بِرَغْمِ ذَلِكَ — دَانِيَةُ الْفَطْوَفِ، مَوْصُولَةُ النُّمُوِّ؛ فِي كُلِّ ثَمَرَةٍ مِنْ ثَمَرَاتِهَا سَمٌ قَاتِلٌ زُعَافٌ، يَتَوَارَى فِي طَيَّاتِهَا، وَيَكُمْنُ تَحْتَ قُشْرِتَهَا.

هَنِيَّا لَكَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». مَا كَانَ أَكْرَمَ نَفْسَكَ، وَأَنْبَلَ سَجِيَّتَكَ! مَا كَانَ أَبْعَدَ نَفْسَكَ الرَّاضِيَةَ الْمَرْضِيَّةَ عَنِ الْأَثْرَةِ وَالْأَنَانِيَّةِ!

عَصَمَكَ اللَّهُ مِنِ السُّوءِ، وَنَجَّاكَ مِنَ الْأَدَى؛ بِفَضْلِ مَا أَسْبَغَ عَلَيْكَ مِنْ كَرِيمِ الْخِصَالِ وَبَيْلِ الْخَلَالِ. قَنَاعَةٌ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ أَمَانَةً وَإِيمَانُ. صَبْرٌ عَلَى مَكَارِهِ الزَّمَانِ. نَفْسٌ مُطْمَئِنَّةٌ صَابِرَةٌ، لَا تَشْعُرُ بِحَسْرَةٍ عَلَى مَا فَاتَ، وَلَا بِلَهْفَةٍ عَلَى مَا هُوَ آتٍ.

يُمْثِلُ هَذِهِ السَّجَاجِيَا فُتِنْتُ بِكَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»، وَأَحَدُتُ نَفْسِي بِمُعَاوِنَتِكَ.

«أَبِي الْغُصْنِ» (٣٣) قَنَاعَةُ

إِنَّ ثَمَرَاتِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ — وَحْدَهَا — مُحَرَّمَةٌ عَلَيْكَ. كُلُّ مَا عَدَاهَا — مِنَ الثَّمَرَاتِ الْأُخْرَى — مُبَاخٌ لَكَ. خُذْ مِنْهُ مَا تَشَاءُ. هُوَ حَلَالٌ لَكَ. اطْعَمْهُ لِذِيَّنَا هَنِيَّا. كُلُّهُ سَائِنَا مَرِيَّا. وَهَبْتُ لَكَ — مَعَ هَذِهِ الْحَدَائِقِ الْيَانِعَةِ — كُلَّ مَا يَحْتَوِيهِ الْكَهْفُ مِنْ نَفَائِسِ الْكُنُوزِ!

كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» — كَمَا عِلِّمْتَ — مُتَرَفِّعًا، زَاهِدًا فِيمَا لَيْسَ لَهُ. لِذَلِكَ لَمْ يُرْحِبْ بِهَذَا الْعَطَاءِ الْجَزِيلِ.

(٣٤) حَيٌّ عَلَى الْعَمَلِ

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «مَا بَالُ السَّيِّدِ الْجَلِيلِ «أَبِي شَعْشَعٍ» يَقْتَنُ فِي الْإِحْسَانِ إِلَيَّ، وَيَغْلُو فِي مُكَافَأَتِي إِلَى هَذَا الْحَدِّ! مَا حَاجَةُ مِثْلِي إِلَى كُنُوزٍ وَنَفَائِسٍ لَمْ يَبْذُلْ فِيهَا جُهْدًا يُسَوِّغُ لَهُ الظَّفَرُ بِهَا، وَالْحُصُولُ عَلَيْهَا! كَيْفَ يُفَرِّحُ بِشَرْوَةٍ لَمْ يَكْسِبْهَا بِكَدِهِ وَعَرَقِهِ؟ هَيَّهَا أَنْ يَشْعُرَ بِالسَّعَادَةِ الْحَقِّ مِنْ يُدْرِكُهَا دُونَ عَنَّا، وَيَمْتَلِكُهَا بِلَا شَمِّ! هَيَّهَا ذَلِكَ هَيَّهَا! أَنْتَ أَعْرَفُ مِنِّي وَآخْبُرُ. لَيْسَ فِي الْحَيَاةِ مَتَاعٌ حَقِيقَيٌّ دُونَ سَعْيٍ وَلَا عَمَلٍ. عَبْثٌ كُلُّ مَا عَدَا ذَلِكَ وَهُرَاءُ. هَبَاءٌ فِي هَبَاءٍ. رَمَادٌ يَدْرُو هُوَ الْهَوَاءُ.»

صَمَتَ «أَبُو الْغُصْنِ» شَيْئًا. اسْتَأْنَفَ حَدِيثَهُ قَائِلًا: «مِنْ حُسْنِ حَظِّي أَنْ اتَّهَدْتُ الْعَمَلَ — مُنْذُ نَشَأْتُ — دَأْبِي وَعَادَتِي، وَارْتَضَيْتُهُ قَانُونِي وَشِرْعَتِي، رَأَيْتُ فِيهِ — مُنْذُ عَقْلَتُ — ضَالَّتِي وَسَلْوَاتِي، وَسُرُورِي وَبَهْجَتِي، وَأَنْسِي وَلَدَتِي. كَذَلِكَ كَانَ أَبِي مِنْ قَبْلِهِ. كَذَلِكَ نَشَأْنَا — عَلَى غِرَارِهِ — مُنْذُ طُفُولَتِي. وَكَذَلِكَ أَنْشَأْنَا أَبْنِي وَابْنَتِي، وَمَنْ يَتَلَوُهُمَا مِنْ ذُرَيْتِي.»

(٣٥) مَطْلُبُ يَسِيرٌ

حَسْبِي أَنْ يُعِينَنِي السَّيِّدُ الْجَلِيلُ عَلَى بِنَاءِ دَارِي وَاسْتِئْنَافِ تِجَارَتِي. عَلَيَّ — وَحْدِي — أَنْ أَسْتَرِدَ مَا فَقَدْتُهُ بِعُونِ اللَّهِ وَهَمَّتِي، وَكَدْحِي وَمُثَابَرَتِي.»

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «لَكَ مَا تُرِيدُ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». مَا رَأَيْتُ أَصْدَقَ مِنْكَ حُكْمًا، وَأَوْفَرَ مُرْوَةً وَأَصْدَقَ عَزْمًا! شَأْنُ الرَّجُلِ الْحَقِّ ... يُؤْتِرُ الْكَدَّ وَالْتَّعَبَ عَلَى الرَّاحَةِ وَالْتَّبَطُّلِ. يَرَى فِي عَنَاءِ الْعَمَلِ لَذَّةً يَنْصَاعُ بِالْقِيَاسِ إِلَيْهَا كُلُّ مَا فِي الدُّنْيَا مِنْ لَذَائِنَ وَمَسَرَّاتِ، وَمَبَاهِجَ فَاتِنَاتِ. يُلْتَمِسُ الْعَوْنَانِ مِنَ اللَّهِ، وَلَا يُعْوَلُ عَلَى أَحَدٍ سِوَاهُ.»

لَا زَالَتِ الْأَيَّامُ تَزِيدُنِي بِكَثِقَةٍ وَإِعْجَابًا. إِنَّ كُلَّ مَا تَنَالُهُ مِنْ نَجَاحٍ — مَهْمَا عَظُمَ — قَلِيلٌ بِالْقِيَاسِ إِلَى مَا مَيَّزَكَ اللَّهُ بِهِ مِنْ أَصَالَةٍ رَأِيٍّ وَقَطَانَةٍ، وَصَبْرٍ عَلَى الْمَكَارِهِ وَأَمَانَةٍ. لَكَ مَا تُرِيدُ. لَنْ أَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْعَمَلِ. لَنْ أَقْفَ في سَيِّلِ رَغْبَتِكَ، وَتَحْقِيقِ أُمْنِيَّتِكَ.

خُذْ مِنْ هَذَا الْكِيسِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَالٍ، لِتُعِيدَ بِنَاءَ بَيْتِكَ. أَمَّا تِجَارَتُكَ، فَإِنِّي سَاهِرٌ عَلَيْهَا وَرَاعِيَهَا، وَقَائِمٌ بِحِرَاسَتِهَا وَمُتَوَلِّيَهَا.»

(٣٦) شُكْرٌ وَتَقْدِيرٌ

ابْتَهَجَ «أَبُو الْغُصْنِ» بِمَا سَمِعَ. لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يَشْكُرُ صَاحِبَهُ بَعْدَ مَا أَسْدَاهُ إِلَيْهِ مِنْ فَضْلٍ. لَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ قَالَ: «أَنَّى يُتَاحُ لِي أَنْ أَجِدَ السَّبِيلَ إِلَى شُكْرِكَ، عَلَى مَا بَذَلْتَ لِي مِنْ مَعْوِنَةٍ وَفَضْلٍ جَزِيلٍ!»

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «خَيْرٌ مَا تُقْدِمُهُ إِلَيَّ مِنْ شُكْرٍ: أَنْ يُحَالِفَكَ التَّوْفِيقُ فِي عَمَلِكَ. خَيْرٌ مَا يَبْهُجُنِي: أَنْ يَنْجُحَ سَعْيُكَ، وَتَعْمَرَ الْبَهْجَةُ خَاطِرَكَ. فِي سَعَادَةِ أَمْتَالِكَ — مِنَ السَّرَّاةِ الْأَمْنَاءِ، الشَّاكِرِينَ الْأَوْفِيَاءِ — انتِصَارُ الْمُمْلِلِ الْأَخْلَافِيَّةِ الْعَالِيَّةِ، وَابْتَهَاجٌ لِكُلِّ مَنْ يَقْدِرُ كَرِيمَ الْخَلَالِ، وَصَالِحَ الْأَعْمَالِ.»

(٣٧) وَطَنُ «أَبِي شَعْشَعٍ»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «هَلْ لِي أَنْ أَطْمَعَ فِي رُؤْيَاكَ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ الْيَوْمِ؟» لَدَأْ «أَبُو شَعْشَعٍ» بِالصَّمْتِ. لَمْ يُبَيِّنْ أَنْ قَالَ لَهُ مُتَمَهِّلًا مُسْتَأْنِيًا: «سَابِدُلُ إِمْكَانِي فِي تَحْقِيقِ رَغْبَتِكَ. لَا تَنْسَ أَنَّ جَزِيرَةَ «الْوَقَوْاقِ» وَطَنِي. أَشْغَالِي فِيهَا تَسْتَغْرِقُ وَقْتِي كُلَّهُ. أَنَا أَزُورُ هَذَا الْكَهْفَ بَيْنَ حِينَ وَحِينٍ، كُلَّمَا وَجَدْتُ فُسْحَةً تُتَبِّعُ لِي أَنْ أَسْتَرِيحَ قَلِيلًا مِمَّا أَكَابِدُ طُولَ الْعَامِ مِنْ عَمَلٍ مُتَقْلِلٍ مُرْهِقٍ يَسْتَدِعِيهِ وَاجِبٍ، لِإِنْجَازِ مَا وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَيَّ مِنْ أَعْبَاءِ الْحُكْمِ فِي جَزِيرَةِ «الْوَقَوْاقِ».

(٣٨) نَائِبُ الْجِنِّ

سَتَجِدُ مَنْ يَقُومُ عَنِّي بِإِنْجَازِ مَطَالِبِكَ، وَتَحْقِيقِ رَغَبَاتِكَ. سَتَجِدُهُ أَمَامَكَ كُلَّمَا احْتَجْتَ إِلَيْهِ. سَتَرَى فِيهِ مُرِشدًا وَمُعِينًا، وَصَاحِبًا وَفِيًّا أَمِينًا. إِنَّهُ «مِصْبَاحُ الْكَنْزِ» الَّذِي قَدَّمَ نَفْسَهُ إِلَيْكَ. وَعَرَضَ خِدْمَتَهُ عَلَيْكَ.»

عَقَّبَ الْمِصْبَاحُ عَلَى قَوْلِ «أَبِي شَعْشَعٍ»، قَائِلًا: «سَتَرَى — فِي قَابِلِ الْأَيَّامِ — مِصْدَاقَ مَا سَمِعْتَ، يَا أَبَا الْغُصْنِ.»

اسْتَأْنَفَ «أَبُو شَعْشَعٍ» قَائِلًا: «وَهَبْتُ لَكَ مِصْبَاحَ الْكَنْزِ؛ لِيَكُونَ عَوْنًَا صَادِقًا، وَنَاصِحًا أَمِينًا. سَرَّاهُ – كُلُّمَا اخْتَبَتْ إِلَيْهِ – طَوْعَ أَمْرِكَ، وَرَهْنَ إِشَارَتِكَ. حَسْبُكَ أَنْ تَلْمُسَهُ بِيَدِكَ، ثُمَّ تَأْمُرُهُ بِمَا تَشَاءُ. لَنْ يَتَرَدَّدَ لَحْظَةً وَاحِدَةً فِي تَحْقِيقِ كُلِّ مَا تُرِيدُ.

٣٩) قُوَّةُ الْمِصْبَاحِ

كُنْ عَلَى ثِقَةٍ – يَا «أَبَا الْغُصْنِ» – أَنَّنِي لَمْ أُعْطِكَ هَذَا الْمِصْبَاحَ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ وَثَقْتُ بِحُكْمِكَ، وَأَعْجَبْتُ بِشَجَاعَتِكَ، وَأَيْقَنْتُ بِتَبَصُّرِكَ وَنَزَاهَتِكَ. فِي قُدْرَاتِكَ – مُنْذُ الْيَوْمِ – أَنْ تُعَاقِبَ بِهَذَا الْمِصْبَاحِ مَنْ تَشَاءُ، وَتُؤْذِبَ مَنْ تُرِيدُ. لَا تَنْسِ أَنَّ كُلَّ مَا يَتَمُّ – عَلَى يَدِ الْمِصْبَاحِ – لَا سَيِّلًا إِلَى اسْتِدْرَاكِهِ إِلَّا فِي جَزِيرَةِ عَبْقَرِ».

٤٠) نَصِيحَةُ «أَبِي شَعْشَعٍ»

أَرَادَ «أَبُو الْغُصْنِ» أَنْ يُعَاوِدَ الشُّكْرَ. ابْتَدَرَهُ «أَبُو شَعْشَعٍ» قَائِلًا: «عُدْ إِلَى بَيْتِكَ – يَا «أَبَا الْغُصْنِ» – رَاسِدًا سَالِمًا، كَاسِبًا غَانِمًا. نَصِيحَةٌ إِلَيْكَ أَلَا تُطْلَعَ أَحَدًا عَلَى سِرْكَ، وَأَلَا تُفْخِي لِإِنْسَانٍ بِدُخْلِتِكَ. حَذَارٌ أَنْ يَعْرِفَ أَحَدٌ مُصْدَرَ فَلَاحِكَ، وَسِرَّ نَجَاحِكَ. لَا تَنْسِ الْحِكْمَةَ الْمَأْتُورَةَ: «اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ حَوَاجِكُمْ بِالْكِتَمَانِ». بِهَذَا وَحْدَهُ تَأْمُنُ مَكْرَ الْحَاقِدِينَ، وَتَسْلُمُ مِنْ كَيْدِ الْحَاسِدِينَ.

لَا تَنْسِ أَنَّ النَّجَاحَ يُبَيِّنُ الْعَجَزَةَ: يُوَغِّرُ صُدُورُهُمْ. يُلْهِبُ أَحْقَادَهُمْ. يُغْرِي الْكُسَالَى الْخَائِفِينَ بِمُعَاكِسَةِ الْعَالَمِينَ النَّاجِحِينَ. سُنَّةُ اللَّهِ – فِي حَلْقِهِ – وَشِرْعُتُهُ، جَرَتْ بِهَا مَشِيَّتُهُ، وَاقْتَضَتْهَا حِكْمَتُهُ. لَا رَيْبَ أَنَّ كَيْدَ الْحُسَادِ دَلِيلٌ عَلَى فَضْلِ الْمَحْسُودِ، وَعُلُوُّ مَنْزِلَتِهِ. لَكِنَّ الْعَاقِلَ جَدِيرٌ أَنْ يَتَبَتَّهِ إِلَى وَاحِدَيْنَ:

أَوَّلُهُمَا: أَنْ يَعْتَصِمَ بِالصَّبِرِ، فَيَحْرِمَ أَمْرَهُ، وَيَكْتُمَ سِرَّهُ.

الثَّانِي: أَنْ يُوَاصِلَ الْجِدَّ وَيَفْرُغَ لِعَمَلِهِ، دُونَ أَنْ يَلْتَفَتَ إِلَى الْوَرَاءِ؛ حَتَّى لَا يُصِيبَهُ مَا أَصَابَ طُلَّابَ الْكَنْزِ، فَيُمْسَخَ صَحْرَاءً كَمَا مُسْخُوا».

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «لَعَلَّكَ تُشِيرُ إِلَى طُلَّابِ الْكِنْزِ الَّذِينَ حَدَّثْنَا عَنْهُمْ قِصَّةً؟ عَجَابٌ الْدُّنْيَا الْثَّلَاثَ!»

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «لَسْتُ أَعْنِي غَيْرَهُمْ. فَكَيْفَ عَرَفْتَ سِرَّهُمْ؟!»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «كَانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّي أَنَّ جَدِّي: «جَحْوَانَ» سَمِعَ هَذِهِ الْأُسْطُورَةَ الرَّائِعَةَ مِنْ صَدِيقِهِ «خُرَافَةَ». اشْتَدَّ بِهَا إِعْجَابُ جَدِّي. كَتَبَهَا بِيَدِهِ. أَهْدَاهَا إِلَى وَلَدِهِ: «تَائِبَةً». اشْتَدَّ بِهَا إِعْجَابُ أَبِي. كَانَتْ مِنْ أَنْفُسِ مَا خَلَفَهُ لِي. كَانَ لِقِرَاءَتِهَا أَحْمَدُ الْأَنْرِي فِي نُفُوسِنَا جَمِيعًا. أُعْجِبَ بِهَا وَلَدَائِي وَزَوْجَتِي، كَمَا أُعْجِبْتُ بِهَا «رُبِّيَّةً» جَارِتِي.»

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «مُنْذُ مِائَةَ عَامٍ، لَقِيَتُ «خُرَافَةَ» كَمَا لَقِيْتُكَ، وَسَقَيْتُهُ مِنْ مَاءِ الْحَوْضِ كَمَا سَقَيْتُكَ. لَقِيَتُ — مِنْ قَبْلِهِ — الْفَاصَّةَ الْمُبِدِعَةَ «شَهْرَزَادَةَ»، وَسَقَيْتُهَا مِنْ هَذَا الْحَوْضِ الرَّوِيِّ. أَهْدَيْتُ كِلَيْهِمَا — فِيمَا أَهْدَيْتُ — قِصَّةً: «عَجَابِ الْدُّنْيَا الْثَّلَاثَ»، تَقْدِيرًا لَهُمَا، وَإِعْجَابًا بِفِنْهُمَا.»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «كَانَ مِنْ نَكَاتِ الْحَرِيقِ أَنِّي احْتَرَقَتِ الْقِصَّةُ، فِيمَا احْتَرَقَ مِنْ أَثَاثِ الْبَيْتِ.»

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»، وَالْبِسْمُ لَا تُفَارِقُ شَفَتَيْهِ: «لَا عَلَيْكَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». سَرَّتِي — عِنْدَ عَوْدِتِكَ إِلَى بَيْتِكَ — مَخْطُوطًا جَدِيدًا، بِدِيلًا مِنَ الْمَخْطُوطِ الَّذِي أَتَى عَلَيْهِ الْحَرِيقُ.»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «خَبَّرْتِي — يَا سَيِّدِي — كَيْفَ أَشْكُرُكَ؟»

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «خَيْرٌ مَا تُقْدِمُهُ إِلَيَّ مِنْ شُكْرٍ أَنْ تَنْتَفِعُ بِمَا تَحْوِيهِ تِلْكَ الْقِصَّةُ الْفَرِيَدَةُ مِنْ رَوَائِعِ الْكَلْمِ، وَنَفَائِسِ الْحِكْمِ.»

لَا تَنْسَ قَوْلَ «الدَّرْوِيشِ» لِطَالِبِ الْكِنْزِ: «إِنَّ حُسَادَكَ لَنْ يَكُفُوا عَنْ تَعْوِيقِكَ، كُلَّمَا اقْتَرَبَتِ مِنَ الْكِنْزِ تَعْلُو صَيْحَانُهُمْ، مُتَاجِجَةً بِالْغَضَبِ صُدُورُهُمْ، تُتَادِيكَ بَيْنَ مُشَجِّعٍ وَمُخَذِّلٍ، وَمُهَبِّبٍ وَمُعْذِلٍ، تُهَذِّرُكَ مِنْ هُولِ مَا أَنْتَ قَادِمٌ عَلَيْهِ، تَارَةً تَتَوَعَّدُكَ، وَتَارَةً تَرْجُوكَ.»

حَذَارٌ أَنْ تُقْصِحَ لَهَا عَنْ مَكْنُونِ سِرِّكَ، وَتَشْرَحَ لَهَا مَا خَفِيَ مِنْ أَمْرِكَ. حَذَارٌ أَنْ تَعْبَأَ بِهَا، أَوْ تَأْبَهُ لَهَا. أَعْمَضُ عَنْهَا الْعَيْنَيْنِ. أَصِمَّ دُونَهَا الْأَذْنَيْنِ. حَذَارٌ أَنْ تَلْتَفِتَ إِلَى الْوَرَاءِ، حَتَّى لَا تُمْسَخَ صَخْرَةً صَمَّاءً!»

مِصْبَاحُ الْكَنْزِ

لَا تَنْسَ أَنَّ السَّعِيدَ السَّعِيدَ مَنْ يُصْمُ أَذْنِيَهُ عَنْ سَمَاعِ لَغْوِهِمْ، وَالشَّقِيقَيِّ الشَّقِيقَيِّ مَنْ يَحْفَلُ بِهِرَائِهِمْ، أَوْ يَلْتَفِتُ إِلَى عَوَائِهِمْ!»
انْقُلْ حِكْمَةَ الدَّرْوِيشِ هَذِهِ إِلَى وَلَدِيْكَ، وَإِلَى كُلِّ مَنْ تَلَقَّى مِنَ النَّاسِ.»
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «شُكْرًا لَكَ، أَلْفُ شُكْرٍ عَلَى مَا أَسْدَيْتَ إِلَيَّ مِنْ فَضْلٍ وَبِرٍّ.»

(٤١) الْوَقْتُ

رَنَّ فِي الْفَضَاءِ صَوْتُ رَائِعِ النَّغْمِ، فَاتَّ الْأَدَاءِ. أَنْصَتَ إِلَيْهِ «أَبُو الْغُصْنِ» وَهُوَ يَقُولُ:
قَالَتِ الطَّيْرُ: «لَقَدْ حَلَ الشَّتَاءُ
وَاسْتَبَدَ الْبَرْدُ، وَأَشَدَّ الصَّقِيقُ
سَوْفَ الْقَاكَ، إِذَا عَادَ الرَّبِيعُ»
فَوَدَاعًا — أَيُّهَا الْغُصْنُ — وَدَاعًا

* * *

قَالَتِ الْأَوْرَاقُ لِلْغُصْنِ: «وَدَاعًا!
أَيُّهَا الْغُصْنُ! فَقَدْ حَلَ الشَّتَاءُ
سَوْفَ الْقَاكَ إِذَا مَا الطَّيْرُ عَادَتْ
فِي الرَّبِيعِ الطَّلَقِ تَشُدُّ بِالْغَنَاءِ»

* * *

إِنَّنِي أَنْفَسُ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ
وَأَنَا — مِنْ حَيْثُ أَمْضَى — لَا أَعُودُ!»
ثُمَّ قَالَ الْوَقْتُ لِلنَّاسِ: «وَدَاعًا!
تَرْجِعُ الْأَوْرَاقُ وَالطَّيْرُ جَمِيعًا

(٤٢) خَارِجُ الْكَنْزِ

تَوَارَى «أَبُو شَعْشَعٍ» كَمَا تَوَارَتْ مَعَهُ الْأَزْهَارُ وَالثَّمَارُ، وَحَوْضُ الْمَاءِ وَالْحَدِيقَةُ وَالْأَطْيَارُ،
وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ عَجَابِ الْفِرْدَوْسِ الَّذِي رَأَاهُ «أَبُو الْغُصْنِ».
سَادَ الْكَهْفَ ظَلَامٌ دَامِسٌ. عَادَ كَمَا كَانَ أَوَّلَ مَا دَخَلَهُ.

هَمَسَ «مِصْبَاحُ الْكَنْزِ» بِصَوْتٍ خَافِتٍ. قَالَ: «أَلْمَ تُدْرِكُ قِيمَةَ الْوَقْتِ؟ مَاذَا تَنْتَظِرُ، يَا «أَبَا^١
الْغُصْنِ»؟ مَا حَاجَتُكَ إِلَى الْبَقَاءِ فِي هَذَا الْمَكَانِ الْمُوْحِشِ؟»
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «صَدَقْتَ. فَكَيْفَ السَّيْلُ إِلَى الْخُرُوجِ؟»
قَالَ لَهُ الْمِصْبَاحُ: «أَنْسَيْتَ الْمِفْتَاحَ الدَّهْنِيَّ الَّذِي أَلْقَتَ بِهِ الْحَيَّةُ إِلَيْكَ؟»

تَعَجَّبَ «أَبُو الْغُصْنِ». لَمْ يَدْرِ كَيْفَ نَسَى الْمِفْتَاحَ، مَعَ قُوَّةِ دَاكِرَتِهِ. أَسْرَعَ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَى الْبَابِ فَفَتَّاهُ، ثُمَّ خَرَجَ.

تَذَكَّرَ «أَبُو الْغُصْنِ» أَنَّهُ نَسِيَ الْمِفْتَاحَ فِي ثَقْبِ الْبَابِ دَاخِلَ الْكَنْزِ قَبْلَ خُرُوجِهِ، كَمَا نَسِيَ خَارِجَ الْبَابِ قَبْلَ دُخُولِهِ.

هُمْ بِالْعَوْدَةِ إِلَى الْكَنْزِ، لِيَسْتَرِدُ الْمِفْتَاحَ، فَلَمْ يَسْتَطِعُ. أَقْفَلَ الْبَابُ – فِي الْحَالِ –
بِغَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى مِفْتَاحٍ!

رَأَى «أَبُو الْغُصْنِ» – أَمَامَ بَابِ الْكَهْفِ – بَعْلَةً مُسَرَّجَةً، مُلْجَمَةً. أَدْرَكَ «أَبُو الْغُصْنِ» أَنَّ «مِصْبَاحَ الْكَنْزِ» أَعْدَاهَا لَهُ. لَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ يَشْكُرَ لِلْمِصْبَاحِ هَدِيَّتَهُ.
رَكِبَ الْبَعْلَةَ إِلَى دَارِهِ. انْقَلَبَ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا.

الفصل الخامس

بَدْءُ السَّعَادَةِ

(١) حَدِيثُ نَفْسٍ

عَزِيزِي الْقَارِئَ:

مَا أَحْسَبُكَ فِي حَاجَةٍ إِلَى وَصْفِ ابْتِهاجِ «أَبُو الْغُصْنِ» حِينَ عَادَ إِلَى بَيْتِهِ – آخِرَ النَّهَارِ – مُنْتَصِرًا غَانِمًا، بَعْدَ أَنْ خَرَجَ فِي صَبَاحِ الْبَاكِرِ مَحْزُونًا مُتَالَّمًا. كَانَ قَلْبُهُ يَخْفُقُ سُرُورًا. كَانَتْ بَعْلَتُهُ تَشْرُكُهُ فِي فَرَحِهِ، تَبَخْتُرُ وَهِيَ تَحْمِلُهُ. تَرَاقَصُ فِي مِشْيَتِهَا وَفَقَ نَبَضَاتِ قَلْبِهِ، وَاهْتَزَّ سَاقِيَهُ، وَتَمَايِلُ جَسْمِهِ.

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ» لِنَفْسِهِ: «مَا أَشْوَقَ أَنْدَنِي إِلَى لِقَائِكَ، يَا «عُكْمُوسُ»! مَا أَشْوَقَ أَنْدَنِي إِلَى سَمَاعِ مَا مَيَّزَكَ اللَّهُ بِهِ مِنْ نَهْيِقِ آدَمِيٍّ، وَصَوْتِ حِمَارِيٍّ! لَا رَيْبَ أَنَّكَ سَتَسْتَرِسْلُ فِي النَّهْيِقِ، حِينَ تُبَصِّرُ مَا أَفَاضَهُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ ثَرَاءِ عَظِيمٍ، وَخَيْرٍ عَمِيمٍ.

أَئِنَّ أَنْتَ، يَا «خَوَارُ» لِتَرَى أَيُّ نِعْمَةٍ أَفَاضَهَا اللَّهُ عَلَيَّ؟ مَا كَانَ أَشَدَّ فَرَحَكَ لِمَا حَلَّ بِي مِنْ مَصَابِ وَالَّامِ! شَدَّ مَا يُبَرِّحُ بِكَ الْحُزْنُ وَالشَّقَاءُ، حِينَ تَرَى مَا أَفَاءَهُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ رَغَادَةٍ وَسَعَادَةً!»

(٢) شَكْوَى «رَبَابَةَ»

بَعْدَ قَلِيلٍ، اقْتَرَبَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنْ بَيْتِهِ. كَانَتْ بَعْلَتُهُ مِنْ طُرْفَاءِ الْجِنِّ. شَكَرَ لَهَا «أَبُو الْغُصْنِ» صَنِيعَهَا، وَهُوَ يُوَدِّعُهَا.

اسْتَأْنَفَ «أَبُو الْغُصْنِ» سَيْرَهُ إِلَى بَيْتِهِ. كَانَتْ رَوْجَتُهُ «رَبَابَةُ» تَرَقَّبُ عَوْدَتَهُ بِفَارِغِ الصَّبَرِ. كَانَ قَلْبُهَا يَفِيضُ حُزْنًا وَالْمَاءَ. أَسْرَعَتْ «رَبَابَةُ» إِلَيْهِ، حِينَ لَمَحَتْهُ قَادِمًا عَلَيْهَا. رَأَاهَا تَسْتَقْبِلُهُ مَحْزُونَةَ الْقُلْبِ، شَاحِبَةَ الْوَجْهِ، بَاكِيَةَ الْعَيْنِ. ابْتَدَرَتْهُ مُسَائِلَةً: «مَاذَا أَطَالَ غَيْبَكَ، وَأَخْرَ عَوْدَتَكَ؟»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «كَيْفَ تَقُولِينِ؟ أَتُرِيدُنِي تَأْخَرُتُ؟» قَالَتْ «رَبَابَةُ»: «أَتَطْلُنُ غَيْرَ ذَلِكَ؟ أَلمْ تَخْرُجْ مَعَ شُرُوقِ الشَّمْسِ؟ هَا أَنْتَ ذَا تَعُودُ مَعَ غُرُوبِهَا!»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «شَدَّ مَا أَسْرَعْتَ شَمْسَ هَذَا النَّهَارِ بِالْغُرُوبِ! كَذِلِكَ تَقْصُرُ أَيَّامُ السَّعَادَةِ، وَتَطْلُو أَيَّامُ الشَّقَاءِ!» فَرَكَ «أَبُو الْغُصْنِ» يَدِيهِ. اسْتَأْنَفَ حَدِيثَهُ قَائِلًا: «نَعَمْ. نَعَمْ! إِنِّي فِي الْحَيَاةِ أَيَّامًا تَمُرُ بِنَا فِي مِثْلِ سُرْعَةِ الْبَرْقِ!»

قَالَتْ «رَبَابَةُ» مُتَحَسِّرَةً: تَعْنِي أَيَّامَ السَّعَادَةِ وَالْهَنَاءِ! أَيْنَ مِنَّا تِلْكَ الْأَيَّامُ؟ مَا أَظْنُهَا تَعُودُ! لَكِنَّ أَيَّامَنَا — كَمَا تَرَى — مَلِيئَةُ الشَّقَاءِ؛ فَهِيَ تَمُرُ كَمَا تَمُرُ الْأَعْوَامُ! أَلَا تَرَى مَا حَلَّ بِنَا مِنْ كَوَارِثَ وَأَحْدَاثٍ؟ أَلَا تَرَى كَيْفَ أَصْبَحَ بَيْتُنَا حَالِيَاً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؟ حَتَّى الْأَثاثُ الْحَقِيرُ الَّذِي سَلَمَ لَنَا بَعْدَ الْحَرِيقِ، كَانَ نَصِيبُهُ أَنْ يُبَاعَ بِالْوَكْسِ، وَالثَّمَنُ الْبَخِسِ! أَلَا تَرَانَا فَقَدَنَا كُلَّ مَا فِي الدَّارِ؟

فَقَدَنَا الْغَالِيَ وَالْحَقِيرَ. فَقَدَنَا بَالِي الْحَصِيرِ، بَعْدَ أَنْ فَقَدَنَا نَفَائِسَ الْحَرِيرِ. ضَاقَتْ بِنَا الْحَيَاةُ! كَيْفَ نَنَامُ؟ لَمْ يَبْقَ لَنَا مِنْ فِرَاشِ غَيْرِ الْأَرْضِ، وَلَا لِحَافِ غَيْرُ السَّقْفِ. أَخَذَ «الْعُكْمُوسُ» كُلَّ مَا نَمْلَكُ. بَاعَهُ بِدَرَاهِمَ قَلِيلَةً!»

(٣) مُفَاجَأَةٌ

كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» يَسْتَمِعُ إِلَى قَوْلِهَا، بَاسِمَ التَّغْرِيْرِ مُتَهَلِّلًا. شَغَلَهُ فَرْحُهُ بِمَا ظَفَرَ، عَنْ كُلِّ مَا يُحِيطُ بِهِ مِنْ مَظَاهِرِ الْبُؤْسِ وَالشَّقَاءِ. كَانَ مُطْمَئِنًّا النَّفْسِ، بِمَا أَحْرَرَهُ مِنْ فَوْزٍ وَانتِصَارٍ. كَانَ يُفْرُكُ يَدِيهِ مِنْ فَرِطِ السُّرُورِ.

دَهَشَتْ رَوْجَتُهُ مِمَّا يَبْدُو عَلَى أَسَارِيرِ رَوْجَهَا مِنْ فَرَحٍ وَابْتِهاجٍ. اشْتَدَّ بِهَا الْعَجْبُ، حِينَ فَاجَأَهَا بِقَوْلِهِ: «شَدَّ مَا أَحْسَنَ «الْعُكْمُوسُ» إِلَيْنَا! مَا أَجْدَرَهُ بِالثَّنَاءِ عَلَى مَا أَسْدَى

مِنْ جَمِيلٍ؟ بَلَّغَنَا الْمُنْيَ، بَلْ فَوْقَ غَایَاتِ الْمُنْيَ. أَرَاحَنَا مِنْ هُمْ مُقِيمٍ، وَخَلَّصَنَا مِنْ أَثَاثٍ بَالِ قَدِيمٍ!

وَقَفَتْ «رَبَابَةُ» صَامِتَةً. لَمْ تَفْهَمْ مَا يَعْنِيهِ «أَبُو الْغُصْنِ».

اسْتَأْنَفَ زَوْجُهَا قَائِلًا: «أَينَ الْوَلَدَانِ؟ أَينَ «جُحِيَّةُ»؟ أَينَ «جَحْوَانُ»؟ مَاذَا صَنَعَ «الْعُكْمُوسُ» بِهِمَا؟ هَلْ جَرُوا عَلَى الإِسَاءَةِ إِلَيْهِمَا؟

كَانَتِ الْبَهْجَةُ طَاغِيَّةً عَلَى «أَبِي الْغُصْنِ»، وَهُوَ يَسْتَمِعُ إِلَى شَكَاهَ زَوْجِهِ. بُهْتَ «رَبَابَةُ» مِنْ اسْتِخْفَافِهِ بِمَا يَعْمَرُهَا مِنْ مَصَابِبِ مُتَلَاحِقَةٍ!

أَقْبَلَتْ عَلَى نَفْسِهَا تُسَائِلُهَا: «مَاذَا حَبَلَ زَوْجِي؟! مَا بَالُهُ يَسْتَقْبِلُ الْمَأْسَاةَ الْخَانِقَةَ بِالْإِغْرَاقِ فِي الصَّحْكِ؟ أَيُّ هَذِيَانٌ أَصَابَ الْمِسْكِينَ؟ تُرَى هَلْ أَذْهَلَتْ النَّكَبَاتُ الْمُتَلَاحِقَاتُ، فَالْتَّالِثُ عَقْلُهُ وَأَخْتَطَ؟! وَارْحَمْتَاهُ لَهُ!»

لَمْ تُنْهِ «رَبَابَةُ» بِشَيْءٍ يَنْتُمُ عَلَى مَا يُسَاوِرُهَا مِنْ قَلْقٍ وَأَنْزَعَاجٍ. افْتَصَمَتْ «رَبَابَةُ» بِالْتَّجَلِيدِ وَالصَّبِرِ. لَمْ تَزِدْ عَلَى أَنْ قَالَتْ: «الْوَلَدَانِ فِي بَيْتِ «زُبَيْدَةَ». جَزَاهَا اللَّهُ خَيْرًا بِمَا صَنَعَتْ. أَشْفَقَتْ عَلَيْهِمَا. أَوْتَهُمَا فِي بَيْتِهَا. تَكَفَّلَتْ بِإِطْعَامِهِمَا. وَالْعِنَاءَةُ بِأَمْرِهِمَا».

نَظَرَ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَى زَوْجِهِ فِي حُلُونَ وَإِشْفَاقٍ. شَكَرَ لَهَا صَبْرَهَا وَاحْتِمَالَهَا لِمَا مَرَّ بِهَا مِنْ أَحْدَاثٍ قَاهِزَاتٍ، وَأَرْمَاتٍ عَاصِفَاتٍ. كَادَ دَمْعُ الْفَرَحِ يَجْرِي عَلَى خَدَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «أَنْتَهِي عَهْدُ الْمَصَابِبِ وَالْمَحَنِ، يَا «رَبَابَةُ». لَا بُؤْسَ بَعْدَ الْيَوْمِ وَلَا شَجَنَ. لَا شَقَاءَ — إِنْ شَاءَ اللَّهُ — وَلَا حَزَنَ. طَرَقَتِ السَّعَادَةُ بَابَنَا، وَاسْتَقَرَّتِ فِي دَارِنَا!»

(٤) فَرْحَةُ «رَبَابَةَ»

نَظَرَتْ «رَبَابَةُ» إِلَى مَا جَلَبَهُ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنْ مَالٍ وَفِيرٍ. شَهِدَتْ مِصْدَاقَ مَا يَقُولُ. اشْتَدَّ فَرْحُهَا بِمَا رَأَتْ. سَأَلَتْهُ مُتَعَجِّلًا: «مَنْ ذَا الَّذِي أَدْخَلَ السَّعَادَةَ عَلَيْنَا؟ أَيُّ نَفْسٍ كَرِيمَةٍ سَاقَهَا اللَّهُ إِلَيْنَا؟ مَنْ ذَا الَّذِي أَقْرَضَهُ هَذَا الْمَالَ؟»

(٥) فَضْلُ «أَبِي شَعْشَعٍ»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «الْمَالُ مَالُنَا، لَا يَخْصُّ أَحَدًا غَيْرَنَا. لَنْ يُطَالِبَنَا أَحَدٌ بِرَدٍّ دِرْهَمٍ وَاحِدٍ مِنْهُ.»

سَأَلَتُهُ رَبَابَةُ: «خَبَّرْنِي؟ كَيْفَ حَصَلَتْ عَلَيْهِ؟»

قَالَ: «هُوَ مِنْحَةٌ مِنْ ضَيْفِنَا أَبِي شَعْشَعٍ أَسْدَاهَا إِلَيْنَا جَزَاءً مَا أَسْلَفْتُهُ مِنْ جَمِيلٍ.

بَذَلَهَا مُكَافَأَةً لِي عَلَى أَنْ أَنْقَدْتُ حَيَاتَهُ مِنَ الْفَرَقِ، لَيْلَةً أَمْسِ.

لَمْ تَقِفْ مُسَاعِدَتُهُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ. أَضَافَ إِلَيْنَا فَضْلًا آخَرَ: مَنَحَنِي قُوَّةً أُخْرَى.

سَتَعْرِفُنَّ نَبَأَهَا، مَتَى حَانَ وَقْتُهَا. لَكِنْ لَا سَيِّلٌ إِلَى ذَلِكِ الْأَنَّ. لَوْ تُرْكَ لِي الْأَمْرُ، أَفْضِلُتُ

إِلَيْكَ بِكُلِّ شَيْءٍ. أَخِذْتُ عَلَيَّ الْعُهُودُ وَالْمَوَاثِيقُ، لَا أُفْشِيَ — مِمَّا عَلِمْتُ — سِرًا.

حَسْبُكِ — يَا رَبَابَةً — مَا سِمِّعْتِ. لَا تَسْأَلِينِي أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلْتِ. لَا تَنْتَيِ الْحِكْمَةَ

الْفَائِلَةَ: «مَا كُلُّ مَا يُعْرَفُ يَحْبُّ أَنْ يُقَالَ، وَلَا كُلُّ مَا يَحْبُّ أَنْ يُقَالَ جَاءَ أَوْاْنَهُ، وَلَا ...»

أَكْمَلَتْ رَبَابَةُ الْحِكْمَةَ قَائِلَةً: «وَلَا كُلُّ مَا جَاءَ أَوْاْنَهُ حَسْرَ أَهْلَهُ!»

(٦) أَثَاثٌ جَدِيدٌ

رَأَيَا أَمَامَ الْبَابِ رَجُلَيْنِ ظَرِيفَيْنِ — فِي مِثْلِ لَوْنِ الْأَبْنُوْسِ — فِي يَدِ كُلِّ مِنْهُمَا صُنْدُوقٌ صَغِيرٌ مِنْ خَشْبِ الصَّنْدَلِ. تَوَجَّهَ الرَّجُلَانِ إِلَى «أَبِي الْغُصْنِ» بِالْتَّحْمِيَةِ. رَدَ عَلَيْهِمَا «أَبُو الْغُصْنِ» أَحْسَنَ رَدًّا. وَضَعَ الرَّجُلَانِ الصُّنْدُوقَيْنِ بِالْقُرْبِ مِنَ الْبَابِ.

قَالَ أَحَدُهُمَا: «مَرْحَى. هَا هُوَ ذَا الْأَثَاثُ. مَا أَبْدَعَهُ!»

قَالَ الْأُخْرَ: «بَخٌ. بَخٌ. إِلَيْكُمَا الْبِضَائِعَ، مَا أَجْمَلَهَا!»

قَبْلَ أَنْ يَتَفَوَّهُ «أَبُو الْغُصْنِ» بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، ابْتَدَرَهُ الرَّجُلَانِ يَقُولَانِ: «حَذَارٍ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». لَا نُرِيدُ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا. خَيْرٌ مَا تُسْدِيهِ إِلَيْنَا مِنْ جَمِيلٍ: أَنْ تَقْرَ عَيْنَا، وَتَنْتَعَمْ بِالْأَلَّ. عِمْ ظَلَامًا، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»..»

تَوَارَى الرَّجُلَانِ فِي الْحَالِ.

فَرَكَتْ «رَبَابَةُ» عَيْنِيهَا مُتَعَجِّبَةً. فَغَرَّتْ^١ فَاهَا^٢ مَدْهُوشَةً. لَمْ تُدْرِكْ — مِمَّا تَرَى — شَيْئًا. لَمْ تَفْهُمْ لَهُ مَعْنَى. عَرَفَ «أَبُو الْغُصْنِ» بِنَكَائِهِ مَاذَا يَعْنِي الرَّجُلَانِ. عَرَفَ — لِطُولِ احْتِبَارِهِ — أَنَّ «أَبَا شَعْشَعِ» صَادِقٌ فِيمَا يَقُولُ دَائِمًا. أَذْرَكَ أَنَّ صَاحِبَهُ أَكْبُرُ مِنْ أَنْ يَهْرَأَ بِهِ، أَوْ يَسْخَرُ مِنْهُ.

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ» لِرَوْجَتِهِ «رَبَابَةَ»: «سَتَرِينَ بَعْدَ حِينَ، جَوابَ مَا تَسْأَلِينَ.»

(٧) فَرْحَةُ زُبِيدَةَ

قَدِمَتْ زُبِيدَةُ وَمَعَهَا «جَحْوَانُ» وَ«جُحَيَّةُ». قَالَتْ لَهُمَا «زُبِيدَةُ» مَسْرُورَةً: «أَعْدَدْتُ الْمَائِدَةَ. هَلْمَا إِلَى دَارِي. هِيَ لَكُمَا دَارٌ وَمَقْرٌ، لَنْ تَبْرَحَاهَا أَوْ يَبْتَسِمَ لَكُمَا الزَّمَانُ، وَيَرْجِعَ لَكُمَا الْغَنِيَّ كَمَا كَانَ.»

اَشْتَدَّ إِعْجَابُ «أَبِي الْغُصْنِ» بِصَفَاءِ قَلْبِهَا، وَنَقَاءِ سَرِيرَتِهَا. قَالَ لَهَا: «شُكْرًا لَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ وَتَصْنَعِينَ. يَسْرُنِي أَنْ أَقُولَ لَكِ: إِنَّ عَهْدَ السَّعَادَةِ مِنَّا قَرِيبٌ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ». أَخْرَجَ «أَبُو الْغُصْنِ» كِيسًا مَمْلُوًّا دَنَانِيرَ. أَفْرَغَ فِي إِحْدَى يَدَيْهِ جَارِتِهِ نِصْفَ مَا فِي الْكِيسِ، وَهُوَ يَقُولُ: «أَنَّعْرِفِينَ «أَبَا شَعْشَعِ» الَّذِي نَزَّلَ ضَيْفًا عَلَيْنَا أَمْسِ؟ شُكْرًا لَهُ.

وَهَبَ لِي مِلْءُ هَذَا الْكِيسِ دَاهِبًا، لِأُعِيدَ بِنَاءَ بَيْتِي. عَلَى الرُّحْبِ وَالسَّعَةِ أَقْبُلُ ضِيَافَتِكِ!»

قَالَتْ «زُبِيدَةُ»: «مَا أَعْجَبَ أَمْرًا هَذَا الشَّيْخُ! أَهُوَ عَلَى مِثْلِ مَا وَصَفْتَ مِنَ الْتَّرَاءِ؟^٣»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «أَغْنَى مِنَ الْخَلِيفَةِ: رَأْسُ الْأَغْنِيَاءِ. أَكْرَمُ مِنْ «حَاتِم»: رَمْزُ الْكُرَمَاءِ. أَذْكَرِي مِنْ «إِيَّاسٍ»: قُدْوَةُ الْأَذْكَيَاءِ. أَفْصَحُ مِنْ «سَحْبَانَ»: إِمَامُ الْفُصَحَاءِ.»

(٨) فَرْحَةُ الْوَلَدَيْنِ

رَأَى وَلَدُهُ «جَحْوَانُ» الصُّنْدُوقَيْنِ اللَّذَيْنِ أَحْضَرَهُمَا الرَّجُلَانِ.

١ فَتَحَتْ.

٢ فَمَهَا.

٣ الْغَنِيَّ.

صَاحَ «جَحَّوْا» مُبْتَهِجاً: «يَا لَهُمَا مِنْ صُنْدُوقَيْنِ بَدِيعَيْنِ؟ هَلْ أَعْطَاكُمَا الضَّيْفُ؟»
 قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «نَعَمْ. أَرْسَلْهُمَا إِلَيْنَا هَدِيَّةً.»
 قَالَتْ «جُحَيَّةُ»: «لِمَاذَا لَا تَفْتَحُهُمَا، يَا أَبَتَاهُ؟»
 قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «لِكُلِّ شَيْءٍ زَمْنٌ وَمِيقَاتُ. لَا تَتَعَجَّلِي الْأَشْيَاءَ قَبْلَ أَوَانِهَا. لَا
 تَنْسِي الْحِكْمَةَ الْقَاتِلَةَ: مَنْ تَعَجَّلَ شَيْئًا قَبْلَ أَوَانِهِ، عُوْقَبَ بِحَرْمَانِهِ.»
 حَسْبُنَا الْيَوْمَ أَنْ نُمْتَعَ أَنْفُسَنَا بِمَا هَيَّاهُ اللَّهُ لَنَا مِنْ مَبَاهِجٍ وَمَسَرَّاتٍ. جَارِتُنَا الْكَرِيمَةُ
 اخْتَارْتُنَا لَهَا ضُيُوفًا. شُكْرًا لَهَا، شُكْرًا لَهَا. مَا أَجْدَرَنَا بِتَلْبِيةِ دَعْوَتَهَا، وَقَبِيلُ ضِيَافَتَهَا؟»

(٩) دِينَارٌ ذَهَبِيٌّ

أَعْادَ «أَبُو الْغُصْنِ» دَنَانِيرَهُ إِلَى الْكِيسِ. سَقَطَ مِنْهَا دِينَارٌ عَلَى الْأَرْضِ. انْقَضَ عَلَيْهِ
 «جَحَّوْا»: كَمَا يَنْقَضُ قَطْ عَلَى فَارِ! ظَلَّ يُدْوِرُهُ أَسْرَعَ تَدْوِيرِ أَمَامِ عَيْنَيِّ أَحْتِهِ: «جُحَيَّةُ».
 لَهُ الْعُذْرُ فِي فَرَحِهِ: مَرَّتْ عَلَيْهِمَا الْأَيَّامُ السَّابِقَةُ لَمْ يَشْهَدَا فِيهَا قِطْعَةً وَاحِدَةً مِنَ
 الْذَّهَبِ.

(١٠) نَوْمٌ هَنِيُّ

ظَلَّ مِصْبَاحُ الْكَنْزِ فِي مَكَانِهِ مِنْ جَيْبِ «أَبِي الْغُصْنِ» صَامِنًا سَاكِنًا. مَا كَانَ الْمِصْبَاحُ
 لِيَتَنَخَّلَ إِلَّا إِذَا جَدَ الْحِدْ وَاحْتَاجَ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَى مُعَاوَنَتِهِ.
 بَعْدَ قَلِيلٍ أَحَسَّ «أَبُو الْغُصْنِ» أَنَّهُ فِي حَاجَةٍ شَدِيدَةٍ إِلَى الرَّاحَةِ بَعْدَ مَا لَقِيَهُ فِي يَوْمِهِ
 مِنَ التَّعَبِ. اسْتَلَقَ عَلَى الْحَصِيرِ الَّذِي أَعْدَتْهُ «رَبَابَةُ» لِنَوْمِهِ. قَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَارْتَاحَ بَالُهُ.
 أَسْلَمَ عَيْنَيْهِ لِلْكَرَى مَسْرُورًا.

(١١) حِدِيثُ الْمِصْبَاحِ

الصُّبُّح طَلَّعَ. أَرْسَلَتْ شَمْسُ الصَّبَاحِ أَوَّلَ أَشْعَتَهَا الْدَّهْبِيَّةَ عَلَى الْكُوْنِ. نَفَدَتْ شُعَاعَةُ مِنْ ثَنَّاِيَا النَّافِذَةِ. سَمِعَ «أَبُو الْغُصْنِ» صَوْتًا حَافِتًا يَهْمُسُ فِي أُذُنِهِ: «إِنْهُضْ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». طَلَّعَ النَّهَارُ. حَسْبُكَ نَوْمًا، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». لَا تَعُودْ نَفَسَكَ الْكَسَلَ. لَا تَسْتَسِلَّمَ لِلنَّوْمِ وَالرَّاحَةِ. إِنَّهُمَا — كَمَا تَعْلَمُ — أَفْهَمُ النَّجَاحِ، وَبَاعِثُ الْإِخْفَاقِ. إِنْهُضْ — يَا «أَبَا الْغُصْنِ» — إِنْ كُنْتَ لَا تَرَأْلُ عَازِمًا عَلَى بَنَاءِ بَيْتِكَ وَتَنْظِيمِهِ.»

(١٢) عَتَابٌ رَّقِيقٌ

كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» مُسْتَغْرِقًا فِي لَذِيْدِ أَحْلَامِهِ. أَيْقَظَهُ هَمْسُ الْمِصْبَاحِ. تَلَفَّتْ لِيَرِي مَصْدَرَ الصَّوْتِ الَّذِي يُعَايِثُ وَيُحِقِّرُ لِلْعَمَلِ. لَمْ يَجِدْ أَحَدًا. أَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِفَ الرَّاحَةَ، وَيَسْتَسِلِّمَ إِلَى النَّوْمِ.

عَاوَدَهُ هَمْسُ الْمِصْبَاحِ. كَانَ — عَلَى حُفُوتِهِ — يُشْعِرُ سَامِعَهُ أَنَّهُ وَاجِبُ الطَّاعَةِ، لَا سَيِّلَ إِلَى مُخَالَفَتِهِ.

أَنْصَتَ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «كَيْفَ لَا تَعْرِفُنِي، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». مَا أَسْرَعَ مَا نَسِيَتِي. أَنَا «مِصْبَاحُ الْكَنْزِ» صَاحِبُ الْأَمْيَنْ، وَمُرْشِدُكَ الَّذِي لَا يَخُونُ. حَيَّ عَلَى الْعَمَلِ. إِنْهُضْ مِنْ فِرَاشِكَ. حَسْبُكَ نَوْمًا يَا «أَبَا الْغُصْنِ».» قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ» لِنَفْسِهِ: «وَيْ! إِنِّي لَأَخْشَى أَنْ يَكُونَ «أَبُو شَعْشَعٍ» أَهْدَى إِلَيَّ سَيِّدًا مُطَاعَمًا، لَا خَارِدًا مُطِيعًا. لَكِنَّهُ — عَلَى كُلِّ حَالٍ — نَاصِحٌ أَمِينٌ، لَا يَتَوَحَّى غَيْرَ نَفْعِي وَهَدَايَتِي. لَيْسَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ طَاعَتِهِ، وَتَلْبِيَّ نُصْحِهِ وَمَشْوَرِتِهِ.»

(١٣) بَعْدَ أَسَابِيعَ

نَهَضَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنْ نَوْمِهِ، بَدَا يَوْمُهُ بِالصَّلَاةِ وَالشُّكْرِ لِخَالِقِهِ، عَلَى مَا مَنَحَهُ مِنْ سَعَادَةٍ وَتَوْفِيقٍ. انْصَرَفَ إِلَى إِعْدَادِ الْعَمَالِ وَالصُّنْنَاعِ لِبَنَاءِ الْبَيْتِ عَلَى أَحْسَنِ طِرَازٍ.

بَعْدَ سِتَّةِ أَسَابِيعَ تَمَّ نِصْفُ الْبَيْتِ؛ بِرَغْمِ مَا بَذَلَهُ مِنْ جُهُودٍ مُضْبَطَةٍ. ضَاقَ صَدْرُ «أَبِي الْغُصْنِ». گَانَ مُتَحَفِّزاً لِاستِئْنَافِ تِجَارَتِهِ. نَدَّتْ مِنْهُ أَنَّهُ مَحْزُونٌ. قَالَ هَامِسًا: «مَنْ لِي بِمَنْ يُرِشِّدُنِي إِلَى وَسِيلَةٍ لِتَنْشِيطِ هُوَلَاءِ الْعُمَالِ؛ لَعَلَّهُمْ يَتَّهُونَ مِنْ إِتْمَامِ الْبَيْتِ؟»

(١٤) بِنَاءُ الدَّارِ

عَاوَدَهُ الصَّوْتُ الْهَامِسُ يَقُولُ: «كَيْفَ هَذَا؟ أَنْسَيْتَ «مِصْبَاحَ الْكَنْزِ»؟ لَوْ طَلَبْتَ نُصْحَهُ، لَمَّا طَالَتْ حَيْرَتَكَ. لَوْ اسْتَهَنْتَ بِهِ لَأَسْعَفَكَ بِمَا تُرِيدُ.» قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»؟ «مَا بِالْكَ لَمْ تُخْبِرْنِي بِذَلِكَ مَا دُمْتَ قَادِرًا عَلَيْهِ؟» قَالَ الْمِصْبَاحُ: «كَيْفَ، وَأَنْتَ لَمْ تَطْلُبْ مِنِّي شَيْئًا؟» قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «هَا أَنَا ذَا الْتَّمَسُ مِنْكَ أَنْ تَبْذُلْ جُهْدَكَ فِي بِنَاءِ الْبَيْتِ بِاسْرَاعِ مَا تَسْتَطِيْعُ.»

قَالَ الْمِصْبَاحُ: «لَيْكَ – يَا «أَبَا الْغُصْنِ» – لَيْكَ. لَنْ تَرَى مِنِّي إِلَّا مَا يُسْرُكَ. أَرْسَلَ الْمِصْبَاحُ أَشْعَةً نَارِيَّةً الَّهَبَتْ نُفُوسَ الْعُمَالِ وَالصُّنَاعَ، وَمَلَأْتُهُمْ نَشَاطًا وَقُوَّةً. طَغَتْ عَلَيْهِمْ مَوْجَةٌ مِنَ الْحَمَاسَةِ وَالْتَّفَانِي فِي الإِخْلَاصِ. اندفَعُوا يَتَسَابَقُونَ – فِي الْعَمَلِ – وَيَتَنَافَسُونَ. انْهَمَ الْبَنَاءُونَ فِي إِقَامَةِ الْبَيْتِ، وَالنَّجَارُونَ فِي قَطْعِ الْحَشْبِ وَتَقْصِيلِهِ. أَسْرَعَ الْحَدَادُونَ وَالنَّقَاشُونَ وَالْمُنْجَدُونَ – وَمَنْ إِلَيْهِمْ – يُبَارِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا. لَوْ رَأَيْتُهُمْ – أَيُّهَا الصَّدِيقُ الصَّغِيرُ – حَسِبْتَ أَنَّكَ تَرَى خَلِيلَةَ نَحْلٍ دَائِبَةَ عَلَى الْعَمَلِ فِي نَشَاطٍ يَتَضَاءَلُ بِالْقِيَاسِ إِلَيْهِ كُلُّ نَشَاطٍ. لَعَلَّكَ تَعَجَّبُ – وَحَقَّ لَكَ أَنْ تَعَجَّبَ – إِذَا قُلْتُ لَكَ: إِنَّ الْبَنَاءَ تَمَّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ. اسْتَطَاعَ الْعُمَالُ أَنْ يُنْجِزُوا فِي سَاعَاتٍ ثَلَاثٍ مَا كَانُوا يُنْجِزُونَهُ فِي سِتَّةِ أَسَابِيعَ.

قَالَ الْمِصْبَاحُ بِصَوْتِهِ الْهَارِيِّ الْلَّطِيفِ: «كَانَتْ – فِي الْحَقِّ – مُهِمَّةً شَاقَّةً مُتَعَبَّةً؛ لِكِنَّهَا تَمَّتْ – وَالْحَمْدُ لِلَّهِ – عَلَى حَيْرِ مَا يُرَامُ.»

١٥) فَضْلُ الْمِصْبَاح

لَا تَسْلُ عَنِ ابْتِهَاجِ «أَلِي الْغُصْنِ» وَ«رَبَابَةَ»، وَوَلَدِيهِمَا، حِينَ رَأَوْا بَيْتَهُمْ يَتَمْ بِنَاؤِهِ بِمِثْلِ هَذِهِ السُّرْعَةِ الْخَارِقَةِ، الَّتِي يَعْجِزُ الْعَقْلُ عَنْ تَصْوُرِهَا وَتَعْلِيَهَا. خُلِيلٌ إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يَشْهُدُونَ حَلْمًا عَابِرًا، لَا حَقِيقَةً مَائِلَةً.

لَهُمُ الْعُذْرُ فِي ذَلِكَ قُوَّةُ الْمِصْبَاحِ بَدَأْتِ الْمَالُوفَ لَدِيْهِمْ! قَرَبْتُ مَا صَعْبَ عَلَيْهِمْ.
ذَلَّتِ الْمُحَالَ أَنَّالَّهُمْ مَا لَا يُنَالُ حَقَّقْتُ لَهُمْ بَعِيدَ الْأَمَالِ.

١٦) تَأْثِيثُ الْبَتْ

الآن تحقق حلم «أبي الغصن». تم له بناء منزله، أكمل ما يكون البناء. لم يبق عليه إلا يُعنى بتأثيثه. هنا وقع في حيرة. مَاذا يصنع بعد أن نفدا ماله أو كاد. جلس «أبو الغصن» مطربقا. فرَكَ جبينه مُسْتَغْرِقاً في أفكاره. أقبل على نفسه يسألها: «مَاذا أنا صانع الآن؟»

أَجَابَهُ الْمُصْبَاحُ فِي سُخْرِيَّةٍ بِاسْمِهِ، مَمْرُوجَةً بِالْدُّعَابَةِ وَالْتَّوْدِ: «الْأَثَاثُ عِنْدَكَ، يَا أَبَا الْغُصْنِ! أَتْرَاكَ نَسِيَّةً؟»

قالَ أَبُو الْغُصْنِ: «أَيُّ أَثَاثٍ تَعْنِي؟»
أَجَابَهُ الْمِصْبَاحُ ضَاحِكًا: «الْأَثَاثُ الَّذِي أَهْدَاكُهُ صَاحِبُكَ «أَبُو شَعْشَعٍ». كَيْفَ نَسِيَتَهُ،
يَا مُنْكِرَ الْجَمِيلِ؟!»
ذَكَرَ «أَبُو الْغُصْنِ» هَدِيَّةً «أَبِي شَعْشَعٍ». أَسْرَعَ إِلَى الصُّنْدُوقِ. فَتَحَهُ أَمَامَ رَوْجَتِهِ
وَهَاجَرَتِهِ وَمَلَدِهِ.

لَا تَسْلُمُ عَنْ دَهْشَتِهِمْ حِينَ أَيْصَرُوا أَثَاثَ بَيْتٍ كَامِلٍ. كَانَ أَثَاثًا عَجِيْبًا. كَانَ مُتَنَاهِيًّا فِي الصَّغِيرَةِ. كَانَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِلَعْبِ الْأَطْفَالِ الصَّغِيرَةِ.

٥. تعرُّفُ أسلابها.

۷۰

حَسِبَتْ «رَبَابَةُ» أَنَّ زَوْجَهَا يَعْرُضُ لُعْبًا لِوَلَدِيهِ: «جَحْوَانَ» وَ«جُحَيَّةَ». رَأَتْ غَيْرَ مَا حَسِبَتْهُ رَأَتْ زَوْجَهَا يُخْرُجُ مِنَ الصُّنْدُوقِ أَرِيكَةً صَغِيرَةً فِي مِثْلِ طُولِ الْأَنْمَلَةِ، ثُمَّ يَضَعُهَا — وَمَظَاهِرُ الْجِدُّ مُرْتَسِمَةٌ عَلَى مُحَيَّاهُ — فِي رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ حُجْرَةِ الْأَسْتِقْبَالِ!

الْجَمِيعُ يَتَضَاحَكُونَ مِمَّا يَرَوْنَ. سُرْعَانَ مَا انْقَلَبَتْ سُخْرِيَّتِهِمْ دَهْشَةً، وَتَبَدَّلَتْ دُعَابَيُّهُمْ حَيْرَةً.

رَأَوْا تِلْكَ الْأَرِيكَةَ الْمُتَنَاهِيَّةَ فِي الصَّغْرِ تَكْبُرُ، ثُمَّ تَكْبُرُ ... وَلَا تَرَالْ تَكْبُرُ حَتَّى يَبْلُغَ حَجْمُهَا مِسَاخَةَ الْمَكَانِ الَّذِي أَعْدَهُ لَهَا فِي رُكْنِ حُجْرَتِهِ.

هَكَذَا صَنَعَ «أَبُو الْغُصْنِ» بِجَمِيعِ مَا فِي الصُّنْدُوقِ مِنْ قِطْعَ الْأَثَاثِ رَاكِ نِسِيَّتِهِ! أَبَا الْغُصْنِ» الْأَثَاثُ عِنْدَكَ، وَأَبْسِطَةٌ وَرُغْوُفٌ وَأَصْوَنَةٌ وَمَكَابِرٌ وَوَسَائِدٌ وَأَغْطِيَّةٌ وَأَكْسِيَّةٌ وَأَنْيَةٌ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَدْوَاتِ الدَّارِ وَأَثَاثِهَا.

كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» يُخْرِجُ الْقِطْعَةَ — مِنَ الصُّنْدُوقِ الصَّغِيرِ — وَيَضَعُهَا فِي الْمَكَانِ الَّذِي أَعْدَهُ؛ فَلَا تَلْبَثُ أَنْ تُصْبِحَ فِي الْحَجْمِ الَّذِي أَرَادَهُ لَهَا.

ضَاقَ الْبَيْتُ — عَلَى سَعَتِهِ — بِمَا احْتَوَاهُ الصُّنْدُوقُ مِنْ أَثَاثٍ بَاهِرِ الصُّنْعِ. فَاضَ الْأَثَاثُ عَنْ حَاجَتِهِ: ضَاقَتْ بِهِ حُجْرَاتُ الْبَيْتِ عَلَى سَعَتِهَا. أَوْدَعَ بَاقِيَّهُ فِي سَرَادِيبِ الْبَيْتِ وَمَخَازِنِ الْقَفْمِ وَمُسْتَوَدِ الْمُهَمَّلَاتِ. كَانَتْ أَجْزَاءُ الْأَثَاثِ غَایَةً فِي الْإِبْدَاعِ وَالْفَخَامَةِ: مَادَةً وَصُنْعًا، مَحْبَرًا وَمَنْظَرًا، نَفَاسَةً وَمَظْهَرًا. كَانَتْ جَدِيرَةً بِمَا ظَلَفَ بِهِ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنْ عَيْشِ رَغِيدِ، وَحَظَّ مُوْفَقٍ سَعِيدٍ.

قَالَتْ «جُحَيَّةَ» مُتَالِمَةً: «أَيْنَ أُرْجُوْحَتِي وَأُرْجُوْحَةُ أَخِي، يَا أَبْنَاهُ؟ كَيْفَ أَغْفَلُهُمَا جَالِبُ الْأَثَاثِ؟»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «هَذَا ذَنْبٌ غَيْرُ مُغْتَفِرٍ! كَيْفَ تُنُوِّسِيْتُ أُرْجُوْحَاتَكُمَا؟» أَسْرَعَ «جَحْوَانَ» وَ«جُحَيَّةَ» إِلَى الصُّنْدُوقِ الصَّغِيرِ بِاِحْتِيَّنِ عَمَّا بَقَيَ فِيهِ. وَجَدَا سُلْكَيْنِ دِقِيقَيْنِ — مِنَ الْذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ — نَسِيَ أَبُوهُمَا أَنْ يُخْرِجَهُمَا مِنَ الصُّنْدُوقِ. أَنْعَمَ الْوَلَدَانِ النَّظَرَ فِيهِمَا. وَجَدَاهُمَا عَلَى هَيْتَهُ أُرْجُوْحَتَيْنِ مُتَنَاهِيَّتَيْنِ فِي الصَّغْرِ، تَأْنَقَ صَانِعُهُمَا فِي إِبْدَاعِهِمَا.

قَرَأَ «أَبُو الْغُصْنِ» عَلَى إِحْدَاهُمَا: أُرْجُوْحَةً «جَحْوَانَ»، وَعَلَى الْأُخْرَى: أُرْجُوْحَةً «جُحَيَّةً». نُقْشَتِ الْجُمْلَتَانِ بِحُرُوفٍ دَقِيقَةٍ مِنَ الْلُّؤْلُؤِ الْمُّشَمِّنِ.

أَذْرَكَ «أَبُو الْغُصْنِ» – بِذَكَائِهِ وَفِطْنَتِهِ، وَتَجْرِبَتِهِ وَمَرَانَتِهِ – أَنَّهُمَا أُرْجُوْحَتَانِ وَلَدَيْهِ. صَعِدَ «أَبُو الْغُصْنِ» عَلَى كُرْسِيٍّ عَالٍ مِنَ الْخَشْبِ. عَلَقَ طَرَفِيُّ الْأُرْجُوْحَتَيْنِ الصَّغِيرَتَيْنِ فِي مِسْمَارَيْنِ مُثَبِّتَيْنِ فِي الْحَائِطِ.

سَأَلَتْ «جُحَيَّةً» أَبَاهَا: «أَيُّ شَيْءٍ هَذَا، يَا أَبَاهَا؟» أَذْنَاهَا «أَبُو الْغُصْنِ» مِنْ أَنْفِهِ. شَمَّ أَرِيجَهَا.⁷ قَالَ لَهَا بَاسِمًا: «لَعَلَّهَا زَهْرَةُ الْأَمْلِ!»

هَمَسَ «مَصْبَاحُ الْكَنْزِ»؛ بِصَوْتٍ خَافِتٍ: «مَا أَعْجَبَ ذَكَاءَكِ! صَدَقْتَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». هِيَ كَمَا تَخَيَّلْتَ – زَهْرَةُ الْأَمْلِ – الْأَمْلُ – كَمَا تَعْلَمُ – نُورُ إِلَهِيُّ، يَعْمُرُ النَّفْسَ؛ فَتَرَى فِيهِ عَرَاءَ الْمُنْكُوبِينَ، وَرَجَاءَ الْمُعْلُوْبِينَ، وَسَلْوَةَ الْبَائِسِينَ، وَبَلْسَمَ الْمَجْرُوْجِينَ!»

رَفَعَهَا «أَبُو الْغُصْنِ» نَحْوَ السَّمَاءِ. نَادَى زَوْجَتَهُ «رَبَابَةً»، وَوَلَدَهُ «جَحْوَانَ»، وَابْنَتَهُ «جُحَيَّةً». جَلَسُوا حَوْلَهُ يُشَاطِرُونَهُ مَا فَاضَ عَلَى قَلْبِهِ مِنَ الْفَرَحِ، وَيُرِدُّونَ دَعَوَاتِهِ الَّتِي ابْتَهَلَ بِهَا إِلَى اللهِ، فِي الْأُغْنِيَّةِ التَّالِيَّةِ:

أَمْنَهُ – كُلَّمَا تَفَرَّعَ – عِنْدَكْ
ضَغْفَهُ، فَأَنْبَرَى يُرَدِّدُ حَمْدَكْ
وَفُؤَادِي بِالصَّمْتِ يَحْفَظُ عَهْدَكْ
وَعَلَيْكَ اغْتِمَادُنَا: أَنْتَ وَحْدَكْ
وَاهِدٌ – يَا رَبَّنَا – إِلَى الْخَيْرِ عَبْدُكْ!

ذَلِكَ الطَّائِرُ الْمُفَرَّعُ، يَلْقَى
أَنْتَ قَوْيَتَ بِالْجَنَاحَيْنِ مِنْهُ
وَلِسَانِي بِالْقَوْلِ يُعْلِنُ شُكْرَكْ
فِيكَ آمَالُنَا، وَمِنْكَ هُدَانَا
فَاحِبُّ، يَا حَالِقَ الْبَرِيَّةِ، رِفْدُكْ

الفصل السادس

بَيْنَ يَدِي الْقَاضِي

(١) اسْتِئْنَافُ الْعَمَلِ

مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ، هَدَأَ بَالُ «أَبِي الْغُصْنِ». انْتَظَمْتُ أَعْمَالُهُ. ارْتَاحَ حَاطِرُهُ. سَكَنَ بِلْبَالُهُ. حَالَفُهُ النَّجَاحُ مُطَرِّدًا مُتَنَابِعًا.

كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» — كَمَا رَأَيْتَ — عَاقِلًا شَرِيفًا مَشْغُوفًا بِالْعَمَلِ، لَا يُحِبُّ أَنْ يَتَكَلَّ فِي غَيْرِهِ، وَلَا يَرْضِي أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى سَوَادِهِ، لَمْ يَكُنْ يَرَى نَفْسَهُ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْإِسْتِعْنَانَةِ بِ«مَصْبَاحِ الْكَنْزِ». ادْخَرَ الْمِصْبَاحَ لِلنَّوَائِبِ وَالْمَازِقِ الْحَرِجَةِ الَّتِي لَا يُجْدِي فِيهَا غَيْرُهُ.

لَمْ يَنْسِ فَضْلَ جَارِتِهِ «زُبِيْدَةَ». كَافَأَهَا — عَلَى مَعْوِنَتِهَا وَإِخْلَاصِهَا — بِأَنْ عَاهَدَ إِلَيْهَا بِالإِشْرَافِ عَلَى تِجَارَتِهِ الْوَاسِعَةِ، الَّتِي اسْتَرَدَتْ شُهُرَتَهَا. لَمْ تَلْبِسْ أَنْ زَادَتْ أَعْمَالُهَا، وَزَادَ أَعْمَالُهَا، حَتَّى أَصْبَحَتْ أَكْبَرَ مَحْلِ تِجَارِيٍّ فِي بَلْدِهِ.

هَكَذَا اجْتَمَعَتْ لَهُ وَلِزُوْجِهِ وَوَلَدِيهِ وَجَارِتِهِ كُلُّ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ وَالْهَنَاءِ؛ بِفَضْلِ صَبِرِهِ وَأَمَانَتِهِ، وَحَرْمِهِ وَمُثَابَرَتِهِ!

(٢) عَوْدَةُ «الْعُكْمُوْسِ»

نَعُودُ الْآنَ إِلَى «الْعُكْمُوْسِ»! إِنَّ فِي الْعَوْدَةِ إِلَيْهِ لَتَفْكِهَةَ لِلنَّفْسِ، وَتَرْوِيْحًا لِلْقَلْبِ. لَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ نَذْكُرَ «أَبَا الْغُصْنِ» دُونَ أَنْ نَذْكُرَ إِلَى جَانِبِهِ ذَلِكَ «الْعُكْمُوْسِ»!

مَرَّتِ الْأَيَّامُ عَلَى «الْعُكْمُوسِ»، وَهُوَ يَرْقَبُ أَنْ يَجِيءَ إِلَيْهِ «أَبُو الْغُصْنِ» مُسْتَعْطِفًا
صَارِعًا، يَسْأَلُ التَّجَارُوْرَ عَمَّا بَقَى مِنْ دَيْنِهِ، بَعْدَ أَنْ حَجَّ عَلَى أَثَاثِ بَيْتِهِ، وَهُمْ بَيْنِ
بَقِيَ مِنْ دَارِهِ. لَكِنَّ شَدَّ مَا أَدْهَشَ «الْعُكْمُوسَ» أَنْ تَمُرُّ الْأَيَّامُ وَالْأَسَابِعُ، دُونَ أَنْ يَرَى
عَرِيمَهُ^١ «أَبَا الْغُصْنِ».

ذَا صَبَّاحٍ، قَالَ «الْعُكْمُوسُ» فِي نَفْسِهِ: «تَرَى مَاذَا آلَ إِلَيْهِ أَمْرُ «أَبِي الْغُصْنِ» وَقِرْدِهِ
الصَّغِيرِ الَّذِي ضَرَبَ أُذُنِي بِمَغْرَفَتِهِ؟ إِنَّ بَيْعَ أَثاثِهِ الْبَالِي لَمْ يَفِ بِنِصْفِ دَيْنِي. مَاذَا عَلَيَّ
إِذَا عَاوَدْتُ الْكَرَّةَ، لَعَلَّيْ أَظْفَرُ بِجَدِيدٍ عِنْدُهُ فَأَبْيَعُهُ، لِيُؤْدِي بَعْضَ مَا بَقَى عَلَيْهِ!»

(٣) حَيْرَةُ وَحَسْرَةُ

لَمْ يَتَرَدَّدِ «الْعُكْمُوسُ» فِي إِنْجَازِ فِكْرَتِهِ. قَصَدَ إِلَى بَيْتِ «أَبِي الْغُصْنِ». مَرَّ بِهِ - ذَاهِبًا
آتِيًا - دُونَ أَنْ يَعْرِفَهُ أَوْ يَقْطُنَ إِلَيْهِ. أَنَّى^٢ لَهُ أَنْ يَهْتَدِي، بَعْدَ أَنْ تَحَوَّلَ الْبَيْتُ إِلَى صَرْحٍ
مُنِيفٍ؟

أَيْنَ الْبَيْتُ الْمُهَدَّدُ الْخَرِبُ؟ لَا سَيِّلَ إِلَى الْعُثُورِ عَلَيْهِ. تَحَوَّلَ إِلَى سُوقِ تِجَارِيَّةٍ كَبِيرَةٍ
فِي قَصْرٍ فَاحِرٍ؛ لَا مَثِيلَ لَهُ فِي الْمَدِينَةِ. خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ أَخْطَأَ مَكَانَ الْبَيْتِ.
رَجَعَ «الْعُكْمُوسُ» إِلَى نَفْسِهِ يُسَائِلُهُ: «أَيْنَ بَيْتُ عَرِيمِي؟ كَانَ فِي هَذِهِ الْمِنْطَقَةِ، وَأَعْجَبَا! كَيْفَ أَمْحَى أَتْرُهُ؟ أَتْرَانِي ضَلَّلُ الطَّرِيقِ. أَتْرَانِي أَخْطَأْتُ مَوْقِعَهُ؟»
كَانَ عَلَى حَقٍّ فِي حَيْرَتِهِ وَضَلَالِهِ! لَهُ الْعُذْرُ فِي سُؤَالِهِ!

مَا كَانَ «الْعُكْمُوسُ» لِيَهْتَدِي إِلَى بَيْتِ «أَبِي الْغُصْنِ»، لَوْلَا أَنْ أَنَّا حَتَّى لَهُ الْمُصَادَفَةُ
أَنْ يُلْتَقِيَهُ خَارِجًا مِنْ بَيْتِهِ - فِي تِلْكَ الْلَّحْظَةِ - وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى سُدَّةٍ^٣ بِاِبِهِ.
بِعِتَ «الْعُكْمُوسُ» حِينَ رَأَهُ. فَتَحَ مُتَحَيِّرًا فَاهُ. جَحَظَتْ عَيْنَاهُ. ارْتَنَعَ - مِنَ الدَّهْشَةِ
- حَاجِبًا. تَقَلَّصَتْ شَفَتَاهُ. انْتَصَبَتْ أَذْنَاهُ؛ كَأَنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَتَلَقَّفَ بِهِمَا الْأَخْبَارَ وَيَسْمَعَ
الْأَنْبَاءَ؛ لَعَلَّهُ يَعْرِفُ كَيْفَ تَبَدَّلَ حَالُ «أَبِي الْغُصْنِ» مِنَ الْفَقْرِ وَالْمَسْكَنَةِ إِلَى التَّرَاءِ وَالْعِزْنِ.

١ مدِينَة.

٢ كَيْفَ.

٣ عَتَبَة.

رَأَى مَا اسْتَجَدَ فِي دُكَانِ غَرِيمِهِ مِنْ نَفِيسِ الْبَضَائِعِ الْمُكَدَّسَةِ. كَادَ قَلْبُهُ يَنْخُلُ
اَنْقَلَبَ اَزْدِرَاؤُهُ وَتَكَرُّهُ إِجْلَالًا وَإِكْبَارًا.

(٤) تَحِيَّةُ حَاقِدَةٌ

بُدْلَ مِنْ هَيْنَتِهِ وَسَخْنَتِهِ. حَلَّتِ ابْتِسَامَتُهُ مَكَانَ عُبُوسِهِ وَجَهَامَتِهِ. تَوَجَّهَ إِلَى «أَبِي الْغُصْنِ»
يَسْأَلُهُ مُنَوَّدًا: «سُعْدَ يَوْمُكَ. عَزَّ قَوْمُكَ. كَيْفَ حَالُكَ. يَا أَبَا الْغُصْنِ؟»
أَجَابَهُ «أَبُو الْغُصْنِ» سَاحِرًا: «حَالِي كَمَا تَرَى، يَا عُكْمُوسُ!»

(٥) بَقِيَّةُ الدِّينِ

قَالَ «الْعُكْمُوسُ» مُتَطَلِّفًا: «هَلْ أَجِدُ مِنْ وَقْتٍ سَيِّدي «أَبِي الْغُصْنِ» مَا يَسْمَحُ لِي بِأَنْ
أُذْكَرَهُ بِمَا بَقَيَ لِي عَلَيْهِ مِنْ دَيْنٍ تَقْهِي يَسِيرٌ؟»
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ» مُتَبَالِهًا: «أَيَّ دَيْنٍ تَعْنِي، يَا عُكْمُوسُ؟»
قَالَ «الْعُكْمُوسُ»: «بَقِيَّةُ الدِّينِ الَّذِي اقْتَرَضْتَهُ مِنِّي..»
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «أَلَمْ تَحْجِرْ عَلَى أَثَاثِ الدَّارِ؟»
قَالَ «الْعُكْمُوسُ»: «عَفْوًا، يَا سَيِّدي «أَبَا الْغُصْنِ»، عَفْوًا. الْحَجْرُ لَمْ يَفِ بِدَيْنِكَ، بَلْ
عَلَى الْعَكْسِ!...»
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «عَلَى الْعَكْسِ مِمَادًا؟ لَعَلَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ: إِنَّ بَيْعَ الْأَثَاثِ قَدْ
زَادَ فِي دَيْنِي وَلَمْ يَنْقُصْهُ!»
حَسِبَهُ «الْعُكْمُوسُ» جَادًا. لَمْ يَقْطُنِ الْغَيْبُ إِلَى تَهْكِمِهِ. قَالَ: «عَجَبًا، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»!
كَيْفَ يَغِيَّبُ عَنْ ذَكَائِكَ مِثْلُ هَذِهِ الْحِقِيقَةِ؟
الْأَثَاثُ الْبَالِي لَمْ يَكُنْ لِي صُلْحٌ لِأَدَاءِ الدِّينِ، إِذَا بَقَيَ عَلَى حَالِهِ، بِغَيْرِ إِصْلَاحٍ! كَانَ عَلَيَّ
أَنْ أَتَعَهَّدَ بِالْإِصْلَاحِ أَوَّلًا؛ حَتَّى أَتَمَكَّنَ مِنْ بَيْعِهِ! أَنْفَقْتُ — فِي سَبِيلِ ذَلِكَ — خَمْسَةً
وَثَلَاثِينَ دِينَارًا..».

٤ مُظَاهِرًا بِالْبَلَهِ وَالْغَفَلَةِ.

تَوَقَّفَ «الْعُكْمُوسُ» عَنِ الْكَلَامِ لَحْظَةً. سَعَلَ مَرَّتَيْنِ. كَادَ يَغْصُّ بِرِيقِهِ. اسْتَرَّدَ جُرَأَتُهُ وَصَفَاقَتُهُ. اسْتَأْنَفَ قَائِلًا: «لَكَفَنِي نَفْلُ الْأَثَاثِ عَشَرَةَ دَنَانِيرًا!» تَقَاضَانِي مَنْدُوبُ الْفَاقِي عَشَرَةَ دَنَانِيرًا أُخْرَى، هِيَ رُسُومُ الْفَقِيَّةِ. أَنْتَ تَرَى أَنَّ مَجْمُوعَ مَا أَنْفَقْتُهُ خَمْسَةُ وَخَمْسُونَ دِينَارًا.

أَتَعْلَمُ: بِكُمْ دِينَارًا بَاعَ الدَّلَالُ أَثَاثَكَ؟ بِخَمْسِينَ دِينَارًا فَقَطُ، لَمْ تَرْدُ وَلَمْ تَنْقُصْ. هَا أَنْتَ ذَا تَرَى أَنَّ دَيْنَكَ زَادَ وَلَمْ يَنْقُصْ! زَادَ خَمْسَةَ دَنَانِيرَ، تُضَافُ إِلَى مِائَتِي الدِّينَارِ الَّتِي بَقِيَتْ عَلَيْكَ قَبْلَ بَيْعِهِ. أَصْبَحَ الدِّينُ خَمْسَةَ دَنَانِيرَ وَمِائَتِينَ.

أَغْنَمْ شُكْرِي وَشَنَائِي. أَوْفِ دَيْنَكَ؛ بَعْدَ أَنْ يَسْرَ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَفَرَّجَ كُرْبَتَكَ. لَا تَنْسَ أَنَّنِي تَجَاوَرْتُ عَنْ ثَمَنِ مَا لَحِقْنِي مِنِ الْإِهَانَةِ فِي بَيْتِكَ. أَنَّدُكُرْ كَيْفَ أَهْوَى وَلَدُكَ عَلَى رَأْسِي بِالْمُغْرَفَةِ؟ كَادَ الشَّقْقِي الظَّرِيفُ يَقْتُلُنِي، لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ! لَكَنَّنِي أُوْثِرْ أَنْ أَكْرِمَكَ وَأَتَجَاوِرَ لَكَ عَنِ الْكَثِيرِ، مُكْفِيَاً بِالنَّزَرِ الْيَسِيرِ. أَمْتَالُكَ الْفَلَائِلُ مِنْ كِرَامِ النَّاسِ، جَدِيرُونَ بِالْإِكْرَامِ وَالْتَّجَاوِزِ عَنْ هَنَوَاتِهِمْ. ٦ أَمْتَالُكَ الْأَخْيَارُ خَلِيقُونَ لَا نَتَشَدَّدَ فِي اقْتِصَادِهِمْ ٧ كُلَّ مَا لَنَا عَلَيْهِمْ مِنْ حُقُوقٍ وَدِيُونٍ».

غَيْرُ «أَبِي الْغُصْنِ» كَانَ يَتَمَلَّكُ الْغَضَبُ مِنْ إِسْرَافِ «الْعُكْمُوسِ» فِي مُعَالَطَتِهِ وَسُوءِ نِيَّتِهِ، وَنَمَادِيهِ فِي تَغْفِلَهِ وَالْتَّظَاهِرِ بِصَدَاقَتِهِ. لَكِنْ «أَبَا الْغُصْنِ» – كَمَا عَرَفْتَ – كَانَ أَرْحَبَ أَفْقًا، وَأَكْبَرَ عَقْلًا، وَأَوْفَرَ حَلْمًا، مِنْ أَنْ يَضِيقَ بِأَمْتَالِ هَذِهِ الصَّفَائِرِ.

أَتَعْرِفُ كَيْفَ أَجَابَ الْمُغَالِطَ الْكَبِيرَ؟

أَجَابَهُ فِي سُخْرِيَّةٍ بَاسِمَةٍ: «كَيْفَ تُرِيدُنِي عَلَى أَنْ أَدْفَعَ الدِّينَ نَاقِصًا؟!»

قَالَ «الْعُكْمُوسُ»: «بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»، مَاذَا تَعْنِي؟»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «لَا بُدَّ مِنْ أَدَاءِ الدِّينِ كَامِلًا. لَا بُدَّ مِنْ أَدَاءِ ثَمَنِ الْإِهَانَةِ الَّتِي الْحَقَّهَا وَلَدِي بِكَ. لَا بُدَّ مِنْ مُكَافَأَةِ الدَّلَالِ الَّذِي بَاعَ الْأَثَاثَ.

٥ أَخْتَارَ.

٦ هَفْوَاتِهِمْ.

٧ مَطَالِبِهِمْ.

يُضافُ إِلَى هَذَا تَقْدِيرُ مَا أَنْفَقْتَ – مِنَ الْوَقْتِ – فِي الدَّهَابِ وَالْعُودَةِ بَيْنَ بَيْتَنَا، وَالدَّهَابِ وَالْعُودَةِ بَيْنَ بَيْتِكَ وَدَارِ الْقَضَاءِ. أَنْسَيْتَ أَنَّكَ الْقَيْتَ عَلَى التَّحِيَّةِ وَتَفَضَّلَتِ الْبَسْلَامِ؟ أَنْسَيْتَ أَنَّكَ دَعَوْتَ لِي بِالْخَيْرِ؟ كَيْفَ نَسِيْتَ هَذِهِ الْمُحَامِدَ؟ إِنَّهَا دُبُّونُ أَسْلَفَتَهَا إِلَيَّ.

كَيْفَ نَسِيْتَ أَنْ تُقَاضِيَنِي عَلَيْهَا أَجْرًا تُضِيفُهُ إِلَى مَا عَلَيَّ مِنْ دَيْنٍ؟ شَدَّ مَا أَسْرَفْتَ فِي كَرْمِكَ، يَا «عُكْمُوسُ»! بَقِيَ أَمْرُ خَطِيرٍ، نَسِيْتَ أَنْ تُطَالِبَنِي بِهِ. لَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ تَجَاوِزْتَ عَنِ الْمُطَالَبَةِ بِثِمَنِهِ؟

مَا أَعْجَبَ غَيَّاً «الْعُكْمُوسُ»! خَيْلٌ إِلَيْهِ طَمَعَهُ أَنَّ غَرِيمَهُ جَاءَ فِيمَا يَقُولُ. اندفعَ يَسْأَلُهُ: «مَاذَا نَسِيْتُ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»؟ بَارَكَ اللَّهُ فِي وَفَائِكَ، وَأَدَمَ عَلَيَّ بِعَمَّةِ إِحْاثَاتِكَ؟»

قَالَ «أَبَا الْغُصْنِ»: «أَنْتَ حِينَ رَأَيْتَ أَثَاثَ بَيْتِي لَا يَصْلُحُ لِأَدَاءِ شَيْءٍ يَسِيرُ مِنْ دَيْنِكَ، شَعَرْتُ بِصَدْمَةٍ مُفَاجِيَّةٍ كَادَتْ تُودِي بِحَيَايَتِكَ. لَا شَكَّ عِنْدِي فِي أَنَّ هَذِهِ الصَّدْمَةَ أَسْلَمَتْكَ إِلَى الْمَرْضِ. كَمْ دَفَعْتَ ثَمَنًا لِأَطْبَائِكَ؟ كَمْ أَنْفَقْتَ ثَمَنًا لِدَوَائِكَ؟ أَلَيْسَتَ هَذِهِ دُبُّونًا عَلَيَّ؟ كَيْفَ نَسِيْتَ أَنْ تُطَالِبَنِي بِهَا؟»

اشْتَدَّ فَرْخُ «الْعُكْمُوسِ» بِمَا سَمِعَ. امْتَلَأَ قَلْبُ الْغَيْرِيَّ لَهْفَةً وَطَمَعًا. نَسِيَ أَنَّ غَرِيمَهُ يَسْخَرُ مِنْهُ. انْطَلَقَ يَلْهُجُ بِشُكْرٍ «أَبِي الْغُصْنِ» وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ. أَسْرَفَ فِي الدُّعَاءِ، مُنْمَادِيًا فِي الرَّجَاءِ.

قَالَ «أَبَا الْغُصْنِ»: «حَسْبُكَ ثَنَاءً وَدُعَاءً – يَا «عُكْمُوسُ» – حَتَّى لَا يَزِيدَ الدِّينُ أَكْثَرَ مِمَّا زَادَ!»

أَذْهَلَ «الْعُكْمُوس» الطَّمَعُ. أَضْلَلَهُ الْحِرْصُ وَالشَّرَهُ. صَدَقَ مَا سَمِعَ. اندفعَ يَقُولُ: «كَلَّا يَا «أَبَا الْغُصْنِ». أَنْتَ جَدِيرٌ بِأَكْثَرِ مَا قُلْتُ. لَنْ أَتَقَاضَيْ أَجْرًا عَلَى ثَنَائِي. أَنَا أَتَجَاوِزُ لَكَ عَنْ ثَمَنِ دَعَوَاتِي الْأُخِيرَةِ. لَكِنْ خَبْرُنِي، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»: مَتَى تُؤَدِّي إِلَيَّ كُلُّ هَذِهِ الدُّبُّونِ؟»

قَالَ «أَبَا الْغُصْنِ»: «أُعْطِيْكَهُ عَنْ طِيبِ خَاطِرِ أَمَامِ الْقَاضِيِّ!؟»

قَالَ «الْعُكْمُوسُ»: «مَا حَاجَتْنَا إِلَى الْقَاضِيِّ بَعْدَ أَنْ غَمَرْتَنِي بِكَرْمِكَ؟»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «لَا بُدَّ لِي مِنْ أَنْ أُبَرِّئَ ذَمَّتِي أَمَامَ اللَّهِ، وَأَمَامَ نَفْسِي، وَأَمَامَكَ، وَأَمَامَ الْفَاقِهِي، وَأَمَامَ النَّاسِ جَمِيعًا!»
انْخَدَعَ «الْعُكْمُوسُ» بِقَوْلِ «أَبِي الْغُصْنِ». اسْتَدَّ فَرَحَهُ بِمَا سَمِعَ. ذَهَبَ مَعَهُ إِلَى دَارِ الْقَضَاءِ.

(٦) حِوَارُ الْقَاضِي

مَثَلُ الْغَرِيمَانِ أَمَامَ الْقَاضِيِّ.
سَأَلَ الْقَاضِي عَنْ جَلَّيَةِ الْخَبَرِ. شَرَحَ «الْعُكْمُوسُ» قَضِيَّتَهُ مَعَ عَرِيمِهِ.
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «أَرَأَيْتَ كَيْفَ يُقَرِّرُ دَائِنِي أَنَّ دَيْنِي لَمْ يَنْقُضْ – بَعْدَ أَنْ بَاعَ أَثَاثِي – بَلْ زَادَ؟»
قَالَ الْقَاضِي: «أَيُّ عَجَبٍ فِي هَذَا؟ أَلْمَ يَقْلُ إِنَّهُ أَصْلَحَ الْأَنَاثَ؟»
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «لَا تَنْسَ – يَا فَخْرَ الْقَضَاءِ، وَنَبْرَاسَ الْعَدَالَةِ، وَمِرَأَةَ الْحَقِّ – أَنَّهُ أَصْلَحَ الْأَنَاثَ لِنَفْسِهِ وَفَائِدَتِهِ، وَلَمْ يُصْلِحْهُ مِنْ أَجْلِ فَائِدَتِي أَنَا.»
قَالَ الْقَاضِي: «هَذَا مَوْضِعُ بَحْثٍ وَنَظَرٍ.»
قَالَ «الْعُكْمُوسُ»: «لَوْ لَمْ يَضْطَرَّنِي إِلَى الْحَجْزِ عَلَى أَنَاثِ بَيْتِهِ وَأَخْذِهِ، لَمَّا كُنْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى إِصْلَاحِهِ.»
قَالَ الْقَاضِي: «الْعُكْمُوسُ عَلَى حَقٍّ فِيمَا يَقُولُ.»

طَالَ الْحِوَارُ.

خَتَمَ الْقَاضِي الْجِلْسَةَ قَائِلًا: «مَاذَا عَلَيْكَ – يَا «أَبَا الْغُصْنِ» – لَوْ سَمِحْتَ لِغَرِيمِكَ بِكُلِّ مَا طَلَبَ، مَا دُمْتَ عَلَى مَا وَصَفَكَ بِهِ مِنْ وَفْرَةِ التَّرَاءِ؟»^٨
ابْتَسَمَ «أَبُو الْغُصْنِ» قَائِلًا: «أَتَرْضَى أَنْ أُعْطِيَهُ مَا لَيْسَ لَهُ بِحَقٍّ؟»

^٨ كثرة الغنى.

(٧) دَعْوَةُ مُسْتَجَابَةٍ

قَالَ «الْعُكْمُوسُ»: «أَقْسِمُ بِاللَّهِ: إِنِّي صَادِقٌ غَيْرُ حَانِثٍ فِي كُلِّ مَا قَرَرْتُهُ أَمَامَ الْقَاضِي. أَنَا أَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَمْسَحَنِي حِمَارًا إِذَا كُنْتُ كَذَبْتُكُمَا كَلِمَةً وَاحِدَةً، مِمَّا رَوَيْتُهُ لَكُمَا!»

أَمْسَكَ «أَبُو الْغُصْنِ» بِ«مِصْبَاحِ الْكَنْزِ»، يَسْتَعِينُهُ عَلَى تَلْبِيةِ رَغْبَتِهِ.
 قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «مَا أَحْوَجْنِي إِلَى حِمَارٍ لِحَمْلِ بَضَائِعِي وَحَمْلِي! لَعَلَّ اللَّهَ يَمْسَخُكَ حِمَارًا — أَيُّهَا الشَّقِيقُ — مَا دُمْتَ تُقْسِمُ بِهِ كَاذِبًا!»
 لَمْ يَتَمَالِكِ الْقَاضِي أَنْ يَضْحَكَ مِنْ الْمُدَاعِبَةِ الْجُحْوِيَّةِ الظَّرِيفَةِ.

لَكِنْ حَدَثَ مَا لَيْسَ فِي الْحِسْبَانِ: كَفَ الْقَاضِي عَنِ الضَّحِكِ. انْقَلَبَتِ الدُّعَاةِ الْحُلُوَّةُ جِدًا مَرِيرًا.

أَبْصَرَ الْقَاضِي أَذْنِي «الْعُكْمُوس» تَمْتَدَانِ حَتَّى تُصْبِحَا فِي طُولِ أَذْنِي الْحِمَارِ، وَقَدْمَاهِي تَكَسِّيَانِ شَعْرًا، وَتَبَدُّوَانِ فِي مِثْلِ سَاقَيِ الْحِمَارِ! عَجَبٌ عَاجِبٌ! عَجَبٌ عَاجِبٌ!
 بَرَزَتِ الْحَوَافِرُ فِي نِهَايَةِ يَدِيهِ وَرِجْلِيهِ! غُطِيَ جَسْمُهُ بِجَلْدِ حِمَارٍ وَشَعْرِ حِمَارٍ! تَبَدَّلَتْ حُلَّتُهُ. أَصْبَحَتْ ثِيَابُهُ بَرْدَعَةً فَخْمَةً. صَارَ لَهُ حِزَامٌ وَرَسَنٌ. أَصْبَحَ كَمَا يَقُولُ الشَّاعِرُ:

بُدَّلَ مِنْ مِشِيَّةٍ بِحُلَّتِهِ مِشِيَّةٌ فِي الْحِزَامِ وَالرَّسَنِ!

ذُعِرَ الْقَاضِي، أَقْبَلَ الْقَاضِي عَلَى «أَبِي الْغُصْنِ» مُتَحَبِّبًا. قَالَ: «لَا رَيْبٌ عِنْدِي أَنَّكَ رَجُلٌ شَرِيفٌ صَادِقُ. لَا شَكٌ فِي أَنَّ غَرِيمَكَ حَادِعٌ كَاذِبُ. لَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يُمْسِحْ حِمَارًا. حَسْبُكَ أَنْ أَتَأْخَرَ اللَّهُ لَكَ مَرْكَبًا يَحْمِلُكَ إِلَى بَيْتِكَ. اذْهَبْ إِلَى دَارِكَ رَاشِدًا آمِنًا، فِي حَلَّكَ وَنَرْحَالَكَ!»

^٩ ثوابه.

^{١٠} حبل على أنفه.

ابْتَسَمْ «أَبُو الْغُصْنِ» مُتَهَكِّمًا. قَالَ: «شُكْرًا لَكَ – أَيُّهَا الْإِمَامُ الْعَادِلُ – عَلَى تَلَطُّفِكَ لَكِنْ لَا مَنَاصَ لِي مِنْ إِيَّاعِ مَا بَقِيَ عَلَيَّ مِنْ دَيْنِ «الْعُكْمُوسِ». لَا بُدَّ أَنْ تُعْطِيهِ إِيَّاهُ، مَتَى طَلَبُهُ مِنْكَ. الْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ. هَذَا دَيْنُ لَهُ عَلَيَّ، لَا مَفَرَّ مِنْ أَدَاءِهِ». حَارَّ «الْعُكْمُوسُ» أَنْ يَتَكَلَّمُ. أَعْجَزَهُ الْكَلَامُ. تَحَوَّلَ كَلَامُهُ نَهِيَّقَ حِمَارٍ أَصِيلٍ فِي حِمَارِيَّتِهِ! لَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ مَاذَا قَالَ «الْعُكْمُوسُ».



لَعَلَّ «أَبَا الْغُصْنِ» وَحْدَهُ كَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُفْسِرَ لَنَا خَوَاطِرَ ذَلِكَ الْحِمَارِ، لَوْ اسْتَعَانَ بِذَكَائِهِ، أَوْ اسْتَعَانَ بِمُصْبَاحِهِ. لَكِنَّهُ لَمْ يَفْعُلْ. قَالَ الْقَاضِي: «كُنْ مُطْمَئِنًّا، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». لَنْ تَخْرُجَ هَذِهِ الدَّنَانِيرُ مِنْ يَدِي إِلَّا إِذَا عَادَ «الْعُكْمُوسُ» إِلَى طَلَبِهَا».

استأذنَ «أَبُو الْغُصْنِ» القاضي في العودة. أذن القاضي له شاكراً متودداً. أمسكَ «أَبُو الْغُصْنِ» بِزِمامِ حِمَارِهِ الْأَكْمِيِّ الْخَبِيثِ، بَعْدَ أَنْ سَحَرَهُ «مِصْبَاحُ الْكَنْزِ». خَرَجَ بِهِ إِلَى الطَّرِيقِ. أَتَمَ اللَّهُ نَصْرَهُ عَلَى الشَّرِّيرِ.

(٨) جَزَاءُ الْعِصْيَانِ

اعتلى ظهر الحمار. هم بالعوده إلى بيته. حاول الشقيق أن يتخابث. انطلق يقفز ويجمح ويرفس بقدميه، ويمشي عامداً في طرائق وعرة ملتوية. شهد القاضي عناد الحمار وتمرده. أعطى «أبا الغصن» عصا ليقوم بها اعوجاج حماره.

أذعن الحمار واستكان^{١١} حين رأى العصا في يد غريمه. سرعان ما أرخى أذنيه وأسلس قياده. مشى مستسلماً صاغراً إلى حيث أراد راكبه. استقل «أبُو الْغُصْنِ» حماره عائداً إلى بيته. كان أولهما مستغرقاً في تأمله وتفكيره. كان الآخر مبتئساً بآخرته ومصيراً.

(٩) مُنَاجَاهَةُ «أَبِي الْغُصْنِ»

كان «أَبُو الْغُصْنِ» يُحَدِّثُ نَفْسَهُ مُبْتَهِجاً. كان يقول: «ما أَعْجَبَ شَانِكَ، وَأَعْرَبَ أَمْرَكَ، أَيُّهَا «الْعَكْمُوْسُ»! ما أَعْظَمَ نَفْعَكَ حِمَاراً، وَأَشَدَّ ضَرَرَكَ إِنْسَانًا! الْآنَ اسْتَقَامَتِ مُشِيكُكَ. اعْتَدَلَ سِيرُكَ. حَسْنَتِ سِيرُكَ. لَيْكَ وَلِدَتِ حِمَاراً تَنْفَعُ النَّاسَ، وَتَهُونُ عَلَيْهِمْ مَتَاعِبَ الْحَيَاةِ، بِمَا تُسْلِفُهُ إِلَيْهِمْ مِنْ مَعْوِنَةٍ صَادِقَةٍ.

من العجيب أنَّ أذنيك الطويلتين قد انسجمتا حين حللت في الصورة الحمارية، بعده أن اشتدَّ تنازعُهما حين كُنْتَ في الصورة الأدمية. كُنَّا نَنْفُرُ مِنْ صَوْتِكَ الْحِمَارِيِّ الْمُنْكَرِ لِشُذُوذِهِ. كُنَّا نَسْتَكِرُهُ لِبَشَاعَتِهِ. أَمَّا الْآنَ، فَنَرَاهُ شَيْئاً طَبِيعِيًّا، لِإِنْسِجَامِهِ وَالْفِتَهِ».

١٠) مُنَاجَاهُ «الْعُكْمُوسُ»

كَانَ لِ«الْعُكْمُوسُ» حَدِيثٌ آخَرُ. كَانَ يُنَاجِي نَفْسَهُ مَهْمُومًا مَحْزُونًا. كَانَ يَقُولُ: «تُرَى إِلَى أَيِّ غَایَةٍ يَنْتَهِي مَصِيرُ أَهْلِي وَبَيْتِي؟ لَا شَكَّ فِي أَنَّهُمْ سَيَسْلُكُونِي فِي عِدَادِ الْهَالِكِينَ، وَيَنْتَقِلُ مَالِي إِلَى أَيْدِي الْوَرَثَةِ الْخَاطِفَينَ. لَا زَرْبَ فِي ذَلِكَ وَلَا مِرَاءَ. لَيْسَ لِي زَوْجٌ وَلَا وَلَدٌ. أَهِ لَوْ كُنْتُ أَدْرِي!»

١١) حِكْمَةُ غَالِيَةٍ

فِي تِلْكَ الْجُمْلَةِ الْأَخِيرَةِ، جَمَعَ «الْعُكْمُوسُ» حِكْمَةَ الْحَيَاةِ وَعِبْرَتَهَا. جَمَعَهَا فِي قَوْلِهِ: «آهِ لَوْ كُنْتُ أَدْرِي!»

صَدَقَ «الْعُكْمُوسُ». مَا أَظْلَنَهُ حَفَلَ بِالصَّدْقِ قَبْلَ هَذِهِ الْمَرَّةِ.
أَوْدَعَ «الْعُكْمُوسُ» تِلْكَ الْحِكْمَةَ الْذَّهِيَّةَ الْخَالِدَةَ، أَبْدَعَ مَا فِي الْحَيَاةِ مِنْ مَعَانٍ وَغَایَاتٍ! كَمْ فِي الْحَيَاةِ مِنْ وَيْلَاتٍ وَمَصَائبٍ، كَانَ الْمَرْءُ يَسْتَطِيعُ اجْتِنَابَهَا، لَوْ كَانَ يَدْرِي أَخِرَّهَا، وَيَعْرِفُ مَغْبِبَتَهَا! كَمْ مِنْ فَوَائِدٍ وَمَنَافِعَ كَانَ الْمَرْءُ يَسْتَطِيعُ اجْتِنَابَهَا وَالظَّفَرَ بِهَا؛ لَوْ كَانَ يَدْرِي عُقُبَاهَا وَغَایَتَهَا!

الْطَّالِبُ الْكُسْلَانُ. لَوْ كَانَ يَدْرِي مَصِيرَهُ، تَمَلَّ حَيَاتُهُ الْقَالِبَةُ الْجَافَّةُ، حَافِلَةُ بِالشَّقَاءِ، مُفْعَمَةُ بِالْكَوَارِثِ، يَسُودُهَا الدُّلُّ وَالْهُوَانُ، وَيُسْيِطُرُ عَلَيْهَا الْبُؤْسُ وَالْحَرْمَانُ.
الْمُسِيءُ لَوْ كَانَ يَدْرِي مَصِيرَهُ، تَمَلَّ لَعْنَيْهِ مَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنْ جَزَاءٍ، فَكَفَ عَنْهَا لِيَتَجَنَّبَ الْكَوَارِثَ الَّتِي يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لَهَا. الْكَاذِبُ لَوْ كَانَ يَدْرِي عَاقِبَةَ كَذِبِهِ. الظَّالِمُ لَوْ كَانَ يَدْرِي عَاقِبَةَ بَعْنِيهِ. الشَّرُّهُ لَوْ كَانَ يَدْرِي عَاقِبَةَ طَمَعِهِ. الْبَخِيلُ لَوْ كَانَ يَدْرِي عَاقِبَةَ حِرْصِهِ ... لَوْ كَانَ هُوَلَاءَ يَدْرُونُ، لَكَفَ كُلُّ مِنْهُمْ عَنْ رَذِيلِهِ، وَاسْتَقَامَ عَلَى فَضْلِيَّتِهِ.

لَوْ كَانَ الْمُجْتَهُدُ يَدْرِي عَاقِبَةَ اجْتِهادِهِ. لَوْ كَانَ الصَّابِرُ يَدْرِي عَاقِبَةَ صَبَرِهِ. لَوْ كَانَ الْأَمِينُ يَدْرِي عَاقِبَةَ أَمَانَتِهِ، لَوْ كَانَ الْمُحْسِنُ يَدْرِي عَاقِبَةَ إِحْسَانِهِ. لَوْ كَانَ الصَّادِقُ يَدْرِي عَاقِبَةَ صِدْقِهِ.

لَوْ دَرَى هُوَلَاءَ جِمِيعًا عَاقِبَةَ أَعْمَالِهِمْ، إِذْنَ صَاعُفُوا جُهُودَهُمْ، وَاسْتَزَادُوا مِنْ فَضَائِلِهِمْ، وَتَخَلَّصُوا مِنْ نَقَائِصِهِمْ، وَاسْتَكْثَرُوا مِنْ مَحَامِدِهِمْ.

(١٢) جَارُ «الْعُكْمُوسِ»

اقْتَرَبَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنْ بَيْتِهِ لِقِيَةً «أَبُو عَلَيٌّ» فِي طَرِيقِهِ ابْنَدَرَهُ بِالْتَّحِيَّةِ. رَدَ عَلَيْهِ «أَبُو الْغُصْنِ» تَحِيَّةً بِالْحَسْنَى مِنْهَا.

كَانَ «أَبُو عَلَيٌّ» يَسْكُنُ بِجَوارِ «الْعُكْمُوسِ». كَانَ إِعْجَابُهُ بِمَحَمَّدِ «أَبِي الْغُصْنِ» لَا يَقُلُّ عَنْ سُخْطِهِ عَلَى مَسَاوِيِ «الْعُكْمُوسِ».

فَرِحَ «الْعُكْمُوسِ» بِلِقَاءِ «أَبِي عَلَيٌّ» رَأَى فِي لِقَائِهِ مُفَاجَّهَةَ سَارَةَ، تُحَفَّ مِنْ كُرْبَتِهِ، وَتُهَوَّنُ مِنْ مُصِيبَتِهِ. ابْنَدَرَ «أَبَا عَلَيٌّ» بِالْتَّحِيَّةِ.

يَا لِشَقَائِهِ وَحَيْتِهِ، وَلِمِهِ وَحَسْرَتِهِ! أَرَادَهَا تَحِيَّةً نَاطِقَةً، فَإِذَا هِيَ صَيْحَةٌ نَاهِقَةٌ. أَعْجَرَتْهُ عَنِ الْكَلَامِ حَمَارِيَّتُهُ، بَعْدَ أَنْ فَارَقَتْهُ آدَمِيَّتُهُ.

قَالَ «أَبُو عَلَيٌّ»: «مَا أَعْجَبَ حِمَارَكَ الْجَدِيدَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»؟ وَيْ وَيْ! أَغْرَبَ حِمَارَ رَأْيِتُهُ، أَنْكَرَ صَوْتَ سَمِعْتُهُ، صِيَاحُهُ يُذَكِّرُنَا بِنَهْيِقِ «الْعُكْمُوسِ» كَمَا تُذَكِّرُنَا صُورَتُهُ بِهِ! صَمَّتْ «أَبُو الْغُصْنِ» عَنِ الْكَلَامِ، لَمْ يَزِدْ عَلَى ابْتِسَامٍ.

اسْتَأْنَفَ «أَبُو عَلَيٌّ» قَائِلًا: «طَالَمَا دَعَوْنَا اللَّهَ أَنْ يُرِيَّخَ الْعَالَمَ كُلَّهُ مِنْ شَرِّ هَذَا الشَّرِّ الْقَاسِيِّ، الَّذِي يَسْتَغْلُلُ فَقْرَ دَائِنَهُ أَشْنَعَ اسْتِغْلَالِ». فَلَا يَتَوَرَّعُ عَنِ التَّفَنُّ في سَرْقَةِ مَالِهِ، بِمَا يُضَاعِفُهُ مِنْ رِبَا فَاحِشٍ. شَدَّ مَا يُذْهَشُنِي أَلَا تَكُفَّ عَنْ مُعَامَلَتِهِ، بَعْدَ مَا لِقِيَتِ مِنْ فُتُونِ إِسَاعَتِهِ، وَضُرُوبِ أَذِيَّتِهِ!»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»، فِي تَهْكُمٍ بِاسْمِ: «لَعَلَّكَ قَسْوَتْ عَلَيْهِ فِي حُكْمِكَ! عَلَى كُلِّ حَالٍ أَنَا لَا أُخَالِفُكَ فِي أَنَّهُ سَلَكَ — فِي مُعَامَلَتِي — أَسْوَأَ السُّبُلِ. لَمْ يَتُرُكْ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ الْقَسْوَةِ وَالْغِشِّ وَالْخِذَاعِ وَالسَّرْقَةِ؛ إِلَّا سَلَكَهَا، فِي غَيْرِ تَرْدُدٍ وَلَا حَيَاءً». اشْتَدَّ غَيْظُ «الْعُكْمُوسِ» مِمَّا سَمِعَ. قَفَرَ بِصَاحِبِهِ قَفْزَةً كَادَتْ — لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ — تُسْقِطُهُ عَلَى الْأَرْضِ.

كَانَ لَا بُدَّ مِنْ عِقَابِهِ عَلَى إِسَاعَتِهِ، حَتَّى لَا يَتَمَادِي فِي حَمَاقَتِهِ. ابْنَدَرَهُ «أَبُو الْغُصْنِ» بِضَرْبَةٍ مِنْ عَصَاهُ، رَجَعَتْ إِلَى هُدَاهُ. سَكَنَتْ ثَائِرَةُ «الْعُكْمُوسِ». أَدَبَتْهُ الْعَصَاصَ بَعْدَ أَنْ عَجَزَ عَنْ تَأْدِيهِ الْحِلْمُ. كَانَ لَهَا مِثْلُ السُّحْرِ فِي تَقْوِيمِ أَعْوَجَاجِهِ. وَكَفَهُ عَنْ تَمَارِيَهِ فِي عِتَادِهِ وَلَجَاجِهِ.

استأنفَ «أبو الغُصْن» قائلاً: «صَدَقْتَ – يَا أَخِي – فِي حُكْمِكَ عَلَى «الْعُكْمُوسِ». مَا أَضْيَعَ الْحِلْمَ وَأَعْجَزُهُ عَنْ تَقْوِيمِ بَعْضِ الْأَشْرَارِ، مِمْنُ لَا سَبِيلٌ إِلَى إِصْلَاحِ حَالِهِ وَإِيَقَاظِ ضَمِيرِهِ بِغَيْرِ الْعِقَابِ الرَّادِعِ. انْظُرْ إِلَى هَذَا الْحِمَارِ الشَّرِسِ الْعَنِيدِ: كَيْفَ أَغْرِاهُ الْحِلْمَ وَأَدَبْتُهُ الْعَصَا! هَيْهَا – يَا أَخِي – أَنْ تَسْتَقِيمَ الْحَيَاةِ بِغَيْرِ قَصَاصِ!» قَالَ «أَبُو عَلَيٌّ»: «الْحَقُّ مَعَكَ يَا «أَبَا الغُصْنِ»! لِكُلِّ طَبْعٍ مَا يُلَائِمُهُ.» بُهِتَ «الْعُكْمُوسُ» حِينَ كَشَفَتْ لَهُ الْعَصَا عَجْزَهُ وَنَقْصَهُ. تَيَقَّظَ ضَمِيرُهُ النَّاثِمُ عَلَى صَوْتِهَا، وَاسْتَقَامَ اعْوَجَاجُهُ بِفَضْلِهَا. خَذَلَهُ ضَعْفُهُ، وَأَقْعَدَهُ عَجْزُهُ. لَمْ يَجِدْ فِي غَيْرِ الْإِسْتِسْلَامِ وَالْخُضُوعِ مُنْقَدِّاً لَهُ مِنْ الْآمِ الضَّرِبِ. افْتَرَقَ الصَّدِيقَانِ. وَاصَّلَ كِلَاهُمَا سَيِّرَهُ إِلَى غَايَتِهِ. مَشَى «الْعُكْمُوسُ» – فِي ذَلِيلِ وَمَهَانَةِ، وَخُضُوعِ وَاسْتِكَانَةِ – حَتَّى بَلَغَ بَيْتَ «أَبِي الغُصْنِ».

(١٢) الْحِمَارُ الْجَدِيدُ

لَا تَسْلُ عَنْ فَرَحِ «رَبَابَةَ» وَوَلَدِيهَا، حِينَ رَأَوَا الْحِمَارَ الْجَدِيدَ. قَالَتْ «رَبَابَةُ»: «مَا كَانَ أَحْوَجَنَا إِلَى حِمَارٍ كَهَذَا، يَحْمِلُ ثِيَابِنَا إِلَى الْمَغْسِلِ!» قَالَتْ «رُبِيَّدَةُ»: «وَيَجُرُّ عَرَبَةَ الْبَحَسَائِعِ الصَّغِيرَةِ.» قَالَتْ «جُحَيَّةُ»: «وَيَحْمِلُنِي عَلَى ظَهِيرَهِ، فِيمَا يَحْمِلُ مِنْ أَنْقَالٍ. إِنَّهُ – كَمَا تَرَوْنَ – حِمَارٌ قَوِيٌّ نَشِيطٌ!» قَالَ «جَحْوَانُ»، وَهُوَ يُلْوُحُ بِعَصَاهُ فِي وَجْهِهِ: «أَنَا الَّذِي يَسُوقُهُ بِهَذِهِ الْعَصَا.» عَرَفَ «الْعُكْمُوسُ» – مِمَّا سَمِعَ – بِرَبْنَامَحِ الْعَمَلِ الْيَوْمِيِّ. الَّذِي لَا مَنَاصَ لَهُ مِنْ اتِّبَاعِهِ وَأَدَائِهِ. التَّفَتَ «أَبُو الغُصْنِ» إِلَى وَلَدِيهِ قائلاً: «لَا تَنْسَوْا أَنَّ الرِّفْقَ بِالْحَيَّوَانِ، أَوْلُ وَاحِدَاتِ الْإِنْسَانِ.»

ابْتَهَجَ «الْعُكْمُوسُ» بِنَصِيحةِ «أَبِي الغُصْنِ». شَعَرَ بِالرَّاحَةِ تَسْرِي فِي أَعْمَاقِ نَفْسِهِ، حِينَ سَمِعَهُ يَيْصُحُّ وَلَدُهُ «جَحْوَانَ» وَبِنْتُهُ «جُحَيَّةَ» بِالْتَّنَطُّفِ مَعِ حِمَارِهِ، وَيَنْهَا هُمَا عَنْ

ضَرِبَهُ وَإِيذَاهُهُ اطْمَانَ قَلْبُهُ حِينَ سَمِعَ «أَبَا الْغُصْنِ» يَقُولُ: «إِنَّ الرِّفْقَ بِالْحَيَوَانِ، وَاجْبَعَ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ».

نَصَّ ١٢ «الْعُكْمُوسُ» أُذْنِيَهُ، مُلْتَفِتاً إِلَى الْبَابِ. كَانَنَا يَتَسَمَّعُ صَوْتًا يَرْتَأِحُ إِلَيْهِ. وَيَعْتَمِدُ — فِي إِنْقَازِهِ — عَلَيْهِ.

قَالَ «جَحْوَانُ»: «انْظُرُوا. انْظُرُوا. مَا أَعْجَبَ شَأنَ هَذَا الْحِمَارِ! أَلَا تَرَوْنَهُ يَنْصُ أُذْنِيَهُ، ١٣ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ الشَّيْخُ «الْعُكْمُوسُ»؟! أَذَاكِرُ أَنْتَ — يَا أَبِي — يَوْمَ ضَرَبْتُهُ بِالْمِعْرَفَةِ؟»

اصْطَكَتْ أَسْنَانُ «الْعُكْمُوسِ» وَاسْتَكَتْ ١٤ مَسَامِعُهُ. سَرَتْ فِي جَسَدِهِ رَعْشَةُ الْغَيْظِ وَالْكَمِدِ. كَادَ الشَّرَرُ يَتَطَايِّرُ مِنْ عَيْنِيَهُ. نَظَرَ إِلَى «جَحْوَانَ» نَظَرَةً طَافِحَةً بِالْغَضْبِ وَالْقُسْوَةِ. أَحَسَّ عَجْرَهُ وَضَعْفَهُ عَنِ الْإِنْتِقَامِ. أَدْرَكَهُ الطَّبَعُ الْحِمَارِيُّ الذَّلِيلُ. هَذَا وَاسْتَكَانُ. حَنَى رَأْسُهُ فِي هُدُوِّ وَاطْمِئْنَانٍ. أَقْبَلَ عَلَى شَاتِيمِهِ يُشَجِّعُهُ عَلَى مُدَاعِبَتِهِ، بَعْدَ أَنْ عَجَزَ عَنْ مَلَامِتِهِ وَمُخَاصِمَتِهِ.

أَمَرَ الصَّغِيرَانِ أَيْدِيهِمَا عَلَى شِعْرِ «الْعُكْمُوسِ» مُتَحَبِّبِينَ إِلَيْهِ مُتَوَدِّدِينَ. فَاضَ قَلْبُ «الْعُكْمُوسِ» عِرْفَانًا بِجَمِيلِهِمَا. وَابْتَهَاجًا بِصَنْعِهِمَا. أَوْسَعَهُمَا ثَنَاءً وَشُكْرًا.

(١٤) نَشِيدُ الْأَحَوَيْنِ

ابْتَهَاجُ «الْعُكْمُوسُ» لِحَدِيثِهِمَا. طَرِبَ لِأَغَانِيهِمَا، وَهُمَا يُنْشِدَانِ، وَيَتَغَنَّيَانِ بِأَعْذَبِ الْأَلْحَانِ. «جَحِيَّةٌ» تَقُولُ:

آنَسَتْ، يَا حِمَارِي حَالْتَ خَيْرَ دَارِ

١٢ رفع.

١٣ يرفعهما ويُظهرهما.

١٤ أصيب بالصمم.

«جَحْوَانُ» يَقُولُ:

أَنْعَمْ بِمَا فَعَلْنَا أَحْسَنْتَ إِذْ أَئْتَنَا

«جُحَيَّةُ»، وَ«جَحْوَانُ» يُشِدَّانِ:

الْوَادِعَ الْلَّطِيفَا
إِلَّا السُّرُورُ وَالْهَنَا
أَصْبَحْتَ فِيهِ ضَيْقَنَا
مُنْمَنِمٌ مِنْ قَشٌّ
مُنْخَلٌ مُغْرِبٌ
مَعَ الشَّعِيرِ وَالذَّرَهُ
لَكَ الْكَثِيرُ تَأْكُلُهُ
سَوْفَ نُضَاعِفُ الْعَلْفَ

حِمَارَنَا الظَّرِيفَا
لَسْتَ تُلَاقِي عِنْدَنَا
مُنْذُ حَلَّتْ بَيْتَنَا
تَنَامُ فَوْقَ فَرِشٍ
تَطْعُمُ خَيْرَ مَا كُلِّ
نُهْدِي إِلَيْكَ سُكَّرَهُ
مِنْكَ الْقَلِيلُ تَبْدُلُهُ
لَا تَحْرَنْ، وَلَا تَخْفُ

ابْتَهَجَ الْحِمَارُ، وَابْتَهَجَ مَعْهُ كُلُّ مَنْ فِي الدَّارِ. أَصْبَحَ – مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ – أَهْلًا لِإعْجَابِ الْجَمِيعِ، لَا غَرَابَةً فِي ذَلِكَ. أَصْبَحَ شَيْئًا آخَرَ، كَانَ مِثَالَ الشَّرَاسَةِ وَالْعُنْفِ، أَصْبَحَ مِثَالَ السَّلَاسَةِ وَاللَّطْفِ. أَصْبَحَ مُتَانَقًا تَزْهُوْهُ نَظَافَتُهُ، وَتُمْيِزُهُ وَدَاعِتُهُ وَدَمَائِتُهُ.

كَانَ الْقِصَاصُ شِفَاءً لَهُ مِنْ قَسْوَتِهِ، وَهَدَيَاةً لَهُ مِنْ شَقَاؤِتِهِ. حَسْبُهُ الْآنَ مَا تَمَيَّزَ بِهِ مِنْ حَمِيدِ الصَّفَاتِ.

بِالْعَلَّ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي الْعِنَاءِ بِحِمَارِهِ، أَعْدَ لَهُ – فِي بَيْتِهِ – مَخْرَنًا مَمْلُوءًا بِالسُّكَّرِ وَالْعَسْلِ. لَمْ يُقْصِرْ فِي مُلَادِفَتِهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ.

لَوْ سَأَلَ «الْعُكْمُوس» سَائِلٌ: مَاذَا يَنْقُصُهُ مِنْ السَّعَادَةِ؟ إِذْنَ قَالَ إِنَّ أَسْعَدَ مَا يُسْعِدُ حِمَارًا مِثْلُهُ، لَوْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْسَى أَنَّهُ إِنْسَانٌ!

(١٥) قَالَتْ «زُبَيْدَةُ»

أَقْبَلَ «الْعُكْمُوس» عَلَى الْحَشَائِشِ يَرْعَاهَا – فِي فِنَاءِ الدَّارِ – فِي هُدُوِّ وَاطْمِئْنَانٍ. كَانَ عَلَى ظَهِيرَهِ غِطَاءُ طَوِيلٌ. جَلَسَ عَلَيْهِ «جَحْوَانُ» وَ«جُحَيَّةُ».

بَعْدَ قَلِيلٍ قَدِمَتْ «رُبِيدَةُ» مِنَ الْخَارِجِ قَائِلَةً: «أَتَعْلَمَانِ — يَا أَبَا الْغُصْنِ» وَيَا أُمَّهَ حَوَانَ — أَنَّ «الْعُكْمُوسَ» مَاتَ! رَفَعَ «الْعُكْمُوسُ» رَأْسَهُ حِينَ سَمِعَ النَّبَأً. نَصَّ أَذْنِيَهُ أَنْهَفَهُمَا؛ لِيُصْغِيَ إِلَى كُلِّ كَلْمَةٍ تُفْوِهُ بِهَا.

اسْتَأْنَفَتْ «رُبِيدَةُ» قَائِلَةً: «لَا شَكَّ فِي أَنَّ «الْعُكْمُوسَ» مَاتَ. إِذَا لَمْ يَكُنْ مَاتَ، فَهُوَ فِي عِدَادِ الْأَمْوَاتِ! إِنَّهُ — فِيمَا يَقُولُ النَّاسُ — تَغَيَّبَ فَجَاءَهُ، وَانْقَطَعَتْ أَنْباؤُهُ، وَاسْتَسَرَّتْ^{١٥} أَخْبَارُهُ. عَلِمْتُ أَنَّ الْقَاضِيَ أَذْنَ لِوَرَثَتِهِ فِي أَنْ يَسْتَوْلُوا عَلَى تُرَاثِهِ^{١٦} مُنْذُ الْيَوْمِ.» تَأَرَ «الْعُكْمُوسُ» حَانِقًا. صَيَّحَ نَاهِقًا. اسْتَوْلَى عَلَى نَفْسِهِ الْيَأسُ، حِينَ سَمِعَ النَّبَأً، مَدَ إِلَهَى سَاقِيَهُ تَفَرَّزَ وَتَلَوَّى. تَقَلَّصَ وَتَحَوَّى. كَانَمَا كَانَ يُعِلِّنُ — بِذِلِّكَ — احْتِجاجَهُ وَسُخْطَهُ عَلَى مَا سَمِعَ. أَخْلَتِ الْحَرَكَةُ الْمُفَاجِهَةُ بِتَوَارِنِ الْأَخْوَيْنِ. كَادَا يَهُوِيَانِ. أَمْسَكَا بِأَذْنِيَهُ مُتَشَبِّهِينَ بِكُلِّ مَا فِيهِمَا مِنْ قُوَّةٍ.

(١٦) حَوَاطِرُ حِمَارٍ

أَفَاقَ الْحِمَارُ مِنْ صَدْمَةِ الْمُفَاجَاجَةِ. عَاوَدَهُ الْهُدُوءُ وَالْطَّمَانِيَّةُ، بَعْدَ أَنْ اسْتَرَاحَ إِلَى الْيَأسِ. قَالَ فِي نَفْسِهِ: «وَاحْسَرْتَا عَلَيَّ، لَمْ يَبْقَ لِي مِنْ مَرَآيَا الْأَنْسَابِ إِلَّا الْقُدْرَةُ عَلَى مُتَابَعَةِ الْكَلَامِ، وَإِدْرَاكِ مَعَانِيهِ، وَفَهْمِ مَرَامِيهِ. لَكِنْ؛ مَاذَا يُجْدِي الإِدْرَاكُ وَالْفَهْمُ مَعَ الْخَرَسِ وَالْعَجْزِ؟ أَيُّ اتِّفَاعٍ لِي بِمَا يَجُولُ فِي نَفْسِي مِنْ مَعَانٍ وَحَوَاطِرَ، مَا دُمْتُ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى الإِفْصَاحِ وَالْتَّعْبِيرِ؟!»

أَقْبَلَ «الْعُكْمُوسُ» عَلَى نَفْسِهِ يُحَدِّثُهَا. قَالَ: «حِينَ كُنْتُ إِنْسَانًا، كَانَتْ لِي فِي الْحَيَاةِ آمَالٌ وَمَطَامِعٌ لَا حَدَّ لَهَا. أَلِيُّسْ مِنَ الْعَجِبِ أَنْ يَسْتَوْلِي الزُّهْدُ عَلَى نَفْسِي — بَعْدَ أَنْ رَأَيْتُنِي آدِمِيَّتِي — فِي كُلِّ مَبَاهِجِ الْحَيَاةِ وَلَذَائِذِهَا. لَمْ يَبْقَ لِي مَأْرُبٌ فِي غَيْرِ الطَّعَامِ. الْآنَ

^{١٥} خَفِيتْ وَاسْتَرَتْ.

^{١٦} ثَرَوْتَهُ.

عَرَفْتُ: كَيْفَ عَنِيتِ الْحَمِيرُ بِأَكْلِهَا وَشُرْبِهَا وَنَوْمِهَا، عَنْ كُلِّ مَا تَحْوِيهِ الدُّنْيَا مِنْ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ وَمَبَاهِجِ الْحَيَاةِ، مِنْ مَالٍ وَجَاهٍ!»
عَادَ الْحِمَارُ إِلَى حَشَائِشِ الْأَرْضِ، يَلْتَهُمَا قَرِيرَ الْعَيْنِ مَسْرُورًا. رَاحَ يُحَرِّكُ ذَيْلَهُ لِيَطْرُدَ بِهِ الذُّبَابَ. التَّذَّلَ طَعَامَهُ وَاسْتَهْنَاهُ أَعْجَبَ بِهِ وَاسْتَمْرَأَهُ.
مِنْ عَجِيبِ الْمُفَارَقَاتِ، أَنَّهُ لَمْ يَسْتَرِدْ أَنَّاتَهُ وَفِطْنَتَهُ، وَهُدُوءَهُ وَحِكْمَتَهُ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ فَقَدَ إِرَادَتَهُ، وَسُلِّبَ إِنْسَانِيَّتَهُ، وَأَلْفَ حِمَارِيَّتَهُ!

الفصل السابع

عُودَةُ «الْخَوَارِ»

(١) حَادِثٌ لَا يُنسَى

مَرَّتِ الْيَمْوُنْ. ظَهَرَ «الْخَوَارِ». لَقِيَهُ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي طَرِيقِهِ مُصَادَفَةً. لَعَلَّكَ لَمْ تَنْسَهُ، أَيُّهَا الْقَارِئُ الْعَزِيزُ. لَعَلَّكَ لَمْ تَنْسَ ذَلِكَ الْمَخْلُوقَ الدَّمِيمَ، ذَا الْعَيْنَيْنِ الْخَضْرَاءِ، وَالشَّفَتَيْنِ الْغَلِيلَيْتَيْنِ. لَعَلَّكَ لَا تَرَالُ تَذَكَّرُ كَيْفَ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْخَوْفُ وَالْفَرَّاءُ، وَالرُّغْبُ وَالْهَلَعُ، حِينَ التَّقَتُ عَيْنَاهُ الْزُّمُرُدَيَّتَيْنِ بِعَيْنَيْ «أَبِي شَعْشَعَ» الْزَّرْقَاءِ، وَالْأَيَّاقُوتَيَّتَيْنِ. لَعَلَّكَ لَمْ تَنْسَ كَيْفَ غَلَبَهُ الْجُبْنُ، فَلَادَ بِالْفِرَارِ. كَانَ حَادِثًا لَا يُنسَى!

(٢) حَوَارُ سَاجِرُ

الْتَّقَى «أَبُو الْغُصْنِ» بِ«الْخَوَارِ». ابْنَدَرَهُ «الْخَوَارِ» يَسْأَلُهُ مُتَحَايَّثًا: «هَا هَا! كَيْفَ أَنْتَ؟ أَيْنَ صَاحِبُكَ؟» قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «أَيَّ صَاحِبٍ تَعْنِي؟» قَالَ «الْخَوَارِ»: «مَا عَنِيتُ غَيْرَ الشَّيْخِ الطَّاعِنِ فِي السِّنِّ، الْمُتَنَاهِي فِي الدَّمَامَةِ وَالْقَصْرِ. كَانَ يَتَعَشَّ مَعَكَ، حِينَ قَدِمْتُ عَلَيْكَ فِي بَيْتِكَ لِأُعَاتِبَكَ فِي أَمْرِ الْعُكْمُوسِ..» قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «الآنَ عَرَفْتُ مَنْ تَعْنِي. مَا أَفْدَحَ حَسَارَتَكَ، حِينَ حُرِّمْتَ لِقاءً..» فَاتَكَ حَيْرٌ كَثِيرٌ، يَا حَوَارِ. قَالَ «الْخَوَارِ»: «أَهُوَ مِنْ زُمَلَائِنَا وَأَبْنَاءِ مَهْنَتِنَا؟»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ» مُتَهَكِّمًا: «هُوَ خَبِيرٌ بِالدَّقِيقِ، بَارِعٌ فِي الْغَرْبَةِ، يَعْرِفُ كَيْفَ يُفْصِلُ الْحَبَّةَ الْجَيِّدَةَ مِنَ الْحَبَّةِ الْفَاسِدَةِ! سَافَرَ مُنْذُ حِينَ عَلَى كُلِّ حَالٍ.» اطْمَأَنَّ «الْخَوَارِ» لِسَفَرِ «أَبِي شَعْشَعٍ». تَطَلَّقَ وَجْهُهُ سُرُورًا وَبِشْرًا.

قَالَ «الْخَوَارِ»: «هَا. هَا! أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُوفِّقَهُ فِي سَفَرِهِ وَيَرْعَاهُ. كَيْفَ عَلِمَ بِ«الْعُكْمُوسِ»؟ هَلْ مِنْ جَدِيدٍ؟ أَصَحِّيْحٌ أَنَّهُ تَرَدَّى١ فِي بِئْرٍ؟ سَالَةُ «أَبُو الْغُصْنِ»: «أَتَقُولُ: تَرَدَّى١ فِي بِئْرٍ؟»

أَجَابَةُ «الْخَوَارِ»: «هَذَا بَعْضُ مَا يُقَالُ. دَاعٌ فِي أَرْجَاءِ الْمَدِينَةِ أَنَّهُ تَرَدَّى١ فِي بِئْرٍ. بَعْدَ أَنْ خَرَجَ مِنْ دَارِ الْحَاكِمِ. قَبَّحَ اللَّهُ «الْعُكْمُوسَ»! مَا أَجْدَرَهُ، لَوْ صَحَّ الْخَبْرُ، بِهَذِهِ الْمِيَةِ الشَّنِعَاءِ. لَعَلَّ وَرَتَتْهُ نِعْمَاً بِتِرَاثِهِ٢ بَعْدَ هَلَاكِهِ.

هَا أَنْتَ ذَا تَرَى١ – يَا عَزِيزِي – أَنَّهُ لَا يَنْجُحُ فِي الْحَيَاةِ إِلَّا أَفَاضَلُ النَّاسِ وَأَشْرَافُهُمْ مِنْ أَمْثَالِي وَأَمْثَالِكَ. بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ – يَا «أَبَا الْغُصْنِ» – وَأَعَادَ إِلَيْكَ ثُرُوتَكَ الْمَفْقُودَةَ كَامِلَةً، بِلْ مُضَاعِفَةً.

شَدَّ مَا أَسْعَدَنِي مَا أَظْفَرَكَ اللَّهُ بِهِ مِنْ رَغَادَةٍ وَهَنَاءَةٍ. خَبِيرِنِي، أَيُّهَا الْأَخُ الْعَزِيزُ: أَلْسْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَى مَالٍ؛ فَاقْدَمْهُ إِلَيْكَ شَاكِرًا مَسْرُورًا. مِثْكَ – يَا أَخِي – بِكُلِّ فَضْلٍ جَدِيدٍ.»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي نَفْسِهِ: «بَيْخَ بَيْخَ، أَيُّهَا الْمُخَادِعُ الْكَبِيرُ. هَكَذَا يُقْبِلُ النَّاسُ عَلَى مَعْوِيَتِكَ – يَا «أَبَا الْغُصْنِ» – كُلَّمَا أَرْدَدْتَ عَنْهُمْ غَنِّيًّا. فَإِذَا شَعَرُوا – يَوْمًا – بِحَاجَتِكَ إِلَيْهِمْ وَلَوْا عَنْكَ مُدْبِرِينَ، وَنَفَرُوا مِنْكَ هَارِبِينَ.»

(٣) أَقْدَاحٌ مَسْمُوَّةٌ

أَلَّخَ «الْخَوَارِ» عَلَى «أَبِي الْغُصْنِ» أَنْ يَتَفَضَّلَ بِقَبُولِ دَعْوَتِهِ إِلَى الْغَدَاءِ. كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» وَاثِقًا مِنْ غَدَرِ «الْخَوَارِ» وَسُوءِ نِيَّتِهِ؛ لَكِنَّهُ لَمْ يَتَرَدَّدْ فِي قَبُولِ دَعْوَتِهِ. ضَاعَفَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنْ حَدَرِهِ وَيَقْظَتِهِ، حَتَّى لَا يَأْخُذَهُ عَدُوُّهُ عَلَى غَرَّتِهِ.

١ سقط.

٢ ما خلفه لهم.

أَعْدَ «الْخَوَارِ» لِصَاحِبِهِ قَدْحًا، مَلَأَهُ بِشَرَابِ التُّفَاحِ. قَدَّمَهُ إِلَيْهِ «أَبُو الْغُصْنِ»، بَعْدَ أَنْ دَسَ^٣ فِيهِ قَطْرَاتٍ مِنَ السَّمِّ الرُّعَافِ تَكْفِي لِقَتْلِ أُسْرَةِ مِنَ الْفِيلَةِ، بَلْهُ الْأَكْمَمِيَّنَ! لَمْ يَنْخُدْعَ «أَبُو الْغُصْنِ». أَدْرَكَ مِنْ سِيمَاهٌ^٤ مَا يَقْصِدُ إِلَيْهِ وَيَنْوَحَاهُ. أَجَأَ إِلَيْهِ مِصْبَاحِ الْكَنْزِ. طَلَّبَ إِلَيْهِ أَنْ يُفْرِغَ مَا فِي الْقَدْحِ، دُونَ أَنْ يَفْعُلَنَ «الْخَوَارِ» إِلَيْهِ. تَمَّ لَهُ مَا أَرَادَ، تَظَاهَرَ «أَبُو الْغُصْنِ» بِقَبُولِ اقْتِرَاحِهِ. تَظَاهَرَ بِشُرُبِ الْقَدْحِ. لَمْ تَكُنْ فِيهِ قَطْرَةٌ وَاحِدَةٌ.

عَجِبَ «الْخَوَارِ» مِمَّا رَأَى. قَدَّمَ لَهُ قَدْحًا بَعْدَ قَدْحٍ. خَابَ فَأَلْ «الْخَوَارِ». كَانَ الْمِصْبَاحُ يُفْرِغُ مَا فِي الْأَقْدَاحِ. نَفَدَتْ^٥ الْزُّجَاجَةُ.

اسْتَوْلَتِ الدَّهْشَةُ عَلَى «الْخَوَارِ». اشْتَدَّ بِهِ الْغَضَبُ. كَادَ قَلْبُهُ يَنْشُقُ مِنَ الْغَيْظِ. لَمْ يَدِرِ كَيْفَ عَجَزَ السَّمُّ الرُّعَافُ عَنْ قَتْلِ غَرِيمِهِ! سَأَلَهُ «أَبُو الْغُصْنِ» عَنْ سَبِبِ غَضِبِهِ.

لَمْ يُطِقْ «الْخَوَارِ» صَبْرًا عَلَى الْمُدَارَةِ. أَفْضَى إِلَيْهِ «الْخَوَارِ» بِدِخْلِهِ.^٦

سَأَلَهُ «أَبُو الْغُصْنِ»: «مَا الَّذِي أَحْفَظَكَ^٧ عَلَيَّ، بِغَيْرِ ذَنْبٍ جَنَيْتَهُ؟»

قَالَ «الْخَوَارِ»: «كَيْفَ تَنْسَى إِسَاءَتَكَ إِلَيَّ؟»

سَأَلَهُ «أَبُو الْغُصْنِ» مُتَعَجِّبًا: «مَا أَذْكُرُ أَنَّنِي أَسْلَفْتُ إِلَيْكَ إِسَاءَةً طُولَ حَيَاتِي!» قَالَ «الْخَوَارِ»: «لِمَاذَا أَحَبَّكَ النَّاسُ وَأَبْغَضُونِي؟ لِمَاذَا حَصُوكَ بِالْمَدِيْحِ وَشَتَّمُونِي؟ لِمَاذَا يُحَالِفُكَ الْفُؤُزُ وَالنَّجَاحُ، وَيُلَاحِقُنِي الْخِدْلَانُ فِي كُلِّ حُطْوَةٍ؟ كَيْفَ يَظْلِمُ هَذَا دَأْبِي وَدَأْبُكَ مُنْذُ طُفُولِتِنَا إِلَى الْيَوْمِ؟! ذَلِكَ سُرُّ كَرَاهِيَّتِي لَكَ، وَحَفِيظَتِي عَلَيْكَ. هَكَذَا نَشَأْ بِغُضْبِكَ فِي قَلْبِي، مُنْذُ نَشَأْنَا الْأُولَى، إِلَى أَنْ بَلَغْنَا سِنَّ الْفُتُوْةِ، وَالشَّبَابِ وَالْقُوَّةِ.

^٣ أَحْفَى.

^٤ عَرَفَ مِنْ مَرَأَهُ.

^٥ فَرَغَتْ.

^٦ أَخْبَرَهُ بِخَافِي سَرِّهِ.

^٧ جَعَلَكَ تَحْقِدَ.

لَمْ أَجِدْ شِفَاءً لِنَفْسِي — مِنْ حِقْدَهَا عَلَيْكَ — فِي غَيْرِ إِحْرَاقِ دَارِكَ، وَمَخْرَنِ تِجَارَتِكَ.
لَكِنْ حَدَثَ وَاحْسَرَتَاهُ، عَكْسُ مَا أَتَمَنَّاهَا! كُتِبَتْ لَكَ السَّلَامَةُ، وَنَجَوْتَ مِنَ الْأَفْلَاسِ. ضُوِعْفَتْ
ثُرُوتُكَ، وَسَمَا قَدْرُكَ بَيْنَ النَّاسِ.

كَفْ أُقْاومُ هَذَا الْبَلَاءَ، وَأَخْلُصُ نَفْسِي مِنْ جَحِيمِ الشَّقَاءِ. أَعْدَدْتُ لَكَ سَمَّاً نَاقِعًا،
تَخْفِي قَطْرَةً مِنْهُ لِقَتْلِ فِيلٍ. مَا أَدْرِي كَيْفَ سَلَمْتَ، بَعْدَ مَا تَجَرَّعْتَهُ مِنَ السَّمِّ؟ لَوْ أَنَّ لَكَ
مَعِدَّةً نَعَامِيَّةً لَمَا نَجَوْتَ. كَيْفَ، وَأَنْتَ إِنْسَانٌ؟! هَنِينَا لَكَ التَّجَاهَا مِنْ هَلَاكٍ مُحَقَّقٍ. لَا رَيْبٌ
أَنَّ اللَّهَ يَرْعَاكَ، وَيَحْفَظُكَ بِعَنَائِتِهِ وَيَتَوَلَّكَ!»

(٤) حُلْلَةُ الْهَلَاكِ

اسْتَأْنَفَ «الْخَوَارُ» قَائِلًا: «عُدَّ إِلَى بَيْتِكَ سَالِمًا غَانِمًا، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». اغْفِرْ لِي مَا هَمَمْتُ
بِهِ مِنْ إِيَادِكَ. عُدَّ إِلَى سَابِقِ وُدُّكَ وَصَفَاكَ. تَقَبَّلَ هَذِهِ الْحُلْلَةُ النَّفِيسَةُ؛ عَرْبُونَا لِقَابِلِ
وِدَنَا، وَصَادِقِ إِحَائِنَا.»

مَتَّشِي «الْخَوَارُ» إِلَى صِوَانٍ قَرِيبٍ. فَتَحَ الصِّوَانَ. أَخْرَجَ مِنْهُ حُلْلَةً فَخْمَةً. تَظَاهَرَ
بِالْأَبْتِسَامِ. كَانَ الْحِقْدُ يَكَادُ يَأْكُلُ قَلْبَهُ.

كَانَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ: «أَمَّا وَاللَّهِ لَنْ تَعُودَ سَالِمًا إِلَى بَيْتِكَ. لَنْ تُخْفِقْ مُحاوَلَتِي —
فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ — أَبَدًا. الْأَنَّ يَلْتَهُبْ جَسْمُكَ بِقَضْلِ هَذِهِ الْحُلْلَةِ الْقَاتِلِةِ، كَمَا يَلْتَهُبْ عُودُ
الْتَّقَابِ! الْأَنَّ يَحْتَرِقُ جَسْمُكَ كَمَا احْتَرَقَ بَيْتُكَ!»

لَمْ يَخْدِعْ «أَبُو الْغُصْنِ» بِمَا يُبَدِّيهِ «الْخَوَارُ» مِنْ بَشَاشَةِ رَائِفَةٍ. أَدْرَكَ أَنَّ فِي طَيِّ
الْهَدِيَّةِ، مَكِيدَةً مَسْتُورَةً حَفِيَّةً.

حَاوَلَ «أَبُو الْغُصْنِ» أَنْ يَعْتَذِرَ عَنْ رَفْضِهَا. رَأَى «الْخَوَارُ» يُلْحُ في تَقْدِيمِهَا، وَيَهُمُ
بِالْقَائِمَةِ عَلَيْهِ. رَأَهُ يَسْتَعِدُ لِإِشْعَالِهَا بَعْدَ أَنْ يُلْقِي بِهَا عَلَى جَسَدِهِ. أَدْرَكَ مَقْصِدُهُ الْحَبِيبَ.
اسْتَنْجَدَ بِالْمِصْبَاحِ حَامِسًا: «أَيْتُهَا الْحُلْلَةُ: اشْتَعِلِي فِي يَدِي حَامِلِكَ، وَأَحْرِقِي أَنَامِلَهُ.»^٨

^٨ رِعْوَسُ أَصَابِعِهِ.

سُرْعَانَ مَا اشْتَعَلَتِ الْحُلَّةُ، وَأَحْرَقَتِ أَنَامِلَ «الْخَوَارِ». تَمَلَّكَ «الْخَوَارِ» الْدُّهُولُ. صَرَخَ مُسْتَنْجِدًا. كَانَ صِيَاحُهُ أَشْبَهَ بِخُوارِ الْبَقْرِ.

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «مَا أَجْدَرَ «الْخَوَارِ» أَنْ يَكُونَ بَقَرَةً. لَعَلَّ ضَرَّهُ يَنْقَلِبُ إِلَى نَفْعٍ، كَمَا حَدَّثَ إِصَاحِبِهِ «الْعُكْمُوسِ».. أَمْسَكَ بِالْمِصْبَاحِ هَامِسًا: «مَا أَحْوَجَنِي إِلَى تَحْقِيقِ هَذَا الرَّجَاءِ!»

(٥) الْبَقَرَةُ الْجَدِيدَةُ

فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ تَبَدَّلَ «الْخَوَارِ» بَقَرَةً شَقِّرَاءَ، غَائِيَّةً فِي الْأَنَاقَةِ وَالْبَهَاءِ، يَزِينُ رَأْسَهَا قَرْنَانِ جَمِيلَانِ، وَيَتَالِقُ^٩ فِي وَجْهِهَا عَيْنَانِ وَاسِعَتَانِ.

أَتَرُكُ لَكَ – أَيُّهَا الصَّدِيقُ الصَّغِيرُ – أَنْ تُمْثِلَ لِنَفْسِكَ شُعُورَ «الْخَوَارِ» حِينَ وَجَدَ نَفْسَهُ يَتَحَوَّلُ بَقَرَةً تَمْسِيَ عَلَى أَرْبَعِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ إِنْسَانًا يَمْشِي عَلَى قَدَمَيْنِ!

(٦) عُقْدَةُ النَّفِصِ

كَانَ «الْخَوَارِ» – عَلَى حَقَارَةِ نَفْسِهِ – مَعْرُوفًا بَيْنَ أَصْحَابِهِ وَعَارِفِيهِ بِفَرْطِ الصَّلَافِ وَالْخُلَيَّاءِ، وَالْإِسْرَافِ فِي الزَّهُوِ وَالْكِبْرِيَاءِ.

لَا تَعْجَبْ – أَيُّهَا الْقَارِئُ الْعَزِيزُ – مِنْ اجْتِمَاعِ الضَّدَّيْنِ: الْعَجْبُ وَالضَّعْفُ. إِنَّهُمَا – عَلَى تَنَاقُضِهِمَا – قَلَّ أَنْ يَفْتَرِقا.

تَسْأَلُنِي عَنْ سِرِّ ذَلِكِ. إِلَيْكَ جَوَابٌ مَا سَأَلْتَ: إِذَا كَمْلَتْ مَزَائِيَا إِنْسَانٌ وَقَضَائِلُهُ، لَمْ يَجْتَحِّ إِلَى التَّظَاهِرِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ. إِذَا أَحَسَّ الْإِنْسَانُ نَقْصًا أَوْ اعْوَجَاجًا، اضْطَرَّ إِلَى مُعَالَجَتِهِ وَتَقْوِيمِهِ. إِذَا عَجَزَ عَنِ إِصْلَاحِ عَيْنِهِ، اضْطَرَّ إِلَى مُدَارَاتِهِ وَسَرْتِهِ.

مَا أَكْثَرَ مَا يَدْفَعُهُ الشُّعُورُ بِالنَّفِصِ إِلَى التَّحَلِّي بِمَا لَيْسَ فِيهِ، حِينَئِذٍ يَلْجَأُ إِلَى الزَّهُوِ وَالْخُلَيَّاءِ، يُضَيِّفُ إِلَى نِقِيَّةِ الْضَّعْفِ نِقِيَّةَ الْكِبْرِيَاءِ. كَانَ يُعَانِي نَقْصًا وَاحِدًا: أَصْبَحَ يُعَانِي نِقِيَّتَيْنِ. كَانَ عَيْنُهُ مُنْفَرِدًا، أَصْبَحَ مُزْدُوْجًا.

^٩ يَلْمِع: يَرْقَ.

إِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ حِينَ قَالَ: «مَا تَزَيَّدَ مُتَزَيَّدٌ إِلَّا لِنَقْصٍ فِيهِ!» يَعْنِي أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَتَكَلَّفُ الرِّزْيَادَةَ، وَلَا يَتَظَاهِرُ بِأَكْثَرِ مِنْ حَقِيقَتِهِ، إِلَّا إِذَا شَعَرَ بِنَقْصِهِ وَعَجِزَهُ.

فِي هَذَا الْمَعْنَى، يَقُولُ شَاعِرُنَا الْعَظِيمُ «أَبُو الْعَلَاءِ الْمَعْرِيُّ»:

لَوْلَمْ تَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَصْغَرُهُمْ مَا بَانَ مِنْكَ عَلَيْهِمْ كِبْرُ!

(٧) مَقْوِدُ الْبَقَرَةِ

نَعْوُدُ بِكَ – أَيُّهَا الْقَارِئُ الْعَزِيزُ – إِلَى «أَبِي الْغُصْنِ»، وَصَاحِبِهِ «الْخَوَارِ»؛ لِنُتَمَّ مَا بَدَأْنَاهُ مِنْ حَدِيثٍ.
مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ، تَوَارَى «الْخَوَارِ» مِنَ الْوُجُودِ. حَلَّ مَكَانُهُ بَقَرَةٌ شَقَرَاءُ، مُعِجبٌ لَوْنُهَا، تَسْرُّ النَّاظِرِينَ.

تَحَفَّرُ «الْخَوَارِ» لِلِّانْتِقامِ.

أَذْرَكَ «أَبُو الْغُصْنِ» مَا يَدُورُ بِخَاطِرِهِ مِنْ نَوَازِعِ الشَّرِّ. تَلَفَّتَ «أَبُو الْغُصْنِ» حَوْلَهُ.
رَأَى حَبْلًا فِي بَعْضِ أَرْكَانِ الدَّارِ. لَعَلَّ «الْخَوَارِ» أَحْضَرَهُ لِيُكْتَفِفُ بِهِ، إِذَا حَانَتِ الْفَرْصَةُ.
فَرَحَ «أَبُو الْغُصْنِ» بِالْعُثُورِ عَلَى الْحَبْلِ. شَدَهُ إِلَى عُنْقِ «الْخَوَارِ»؛ شَدَهُ فِي عُنْقِ الْبَقَرَةِ الْخَوَارِ، عَلَى الْأَصْحَاحِ! هَمْ «الْخَوَارِ» أَنْ يَضْرِبُ «أَبَا الْغُصْنِ»، لِفَرْطِ حِقْدِهِ عَلَيْهِ.
خَشِيَ الْعَاقِبَةَ. كَانَ مَا حَلَّ بِهِ مِنْ عِقَابٍ كَافِيًّا لِرِجْرِهِ ...
مَا أَعْجَبَ مَا حَدَثَ! مُنْذُ لَحَظَاتٍ، كَانَتِ الْبَقَرَةُ الْخَوَارِ إِنْسَانًا يَجْمِعُ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَعَدَمِ الْمُبَالَاهَ بِالْعَوَاقِبِ. شَدَ مَا تَغَيَّرَ طَبْعُهَا الْآنَ، بَعْدَ أَنْ انْتَقَلَتِ مِنَ الْأَدْمِيَّةِ إِلَى الْبَقَرِيَّةِ.
أَصْبَحَتْ بَقَرَةً وَادِعَةً تَتَدَبَّرُ الْعَوَاقِبَ، وَتَحْسِبُ لِكُلِّ شَيْءٍ حِسَابَهُ.
صَلَحَ «الْخَوَارِ»؛ كَمَا صَلَحَ – مِنْ قِبَلِهِ – «الْعُكْمُوسُ»، بَعْدَ أَنْ خَرَجَ كِلَّهُمَا مِنَ الْأَدْمِيَّةِ إِلَى الْحِمَارِيَّةِ وَالْبَقَرِيَّةِ. انْقَلَبَ شَرُّهُمَا خَيْرًا، وَضَرَرُهُمَا نَفْعًا!

(٨) فَرْحَةُ الْأُسْرَةِ

لَا تَسْلُ عَنْ فَرَحِ «رَبَابَةَ» وَوَلَدِيهَا وَ«رُبِيدَةَ» جَارِتَهَا، عِنْدَمَا رَأَوْا الْبَقَرَةَ السَّمِينَةَ الْجَدِيدَةَ. ابْنَدَرُوا «أَبَا الْغُصْنِ» قَائِلِينَ: «شَدَّ مَا أَحْسَنْتَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»، إِذْ أَحْضَرْتَ لَنَا بَقَرَةً تَافِعَةً، تَدْرُ لَبَنًا كَثِيرًا، وَتَمْلُأُ الْبَيْتَ أَقْطَانًا ١٠ وَقُشْدَةً وَسَمْنًا!» شَعَرَ «أَبُو الْغُصْنِ» بِاَشْمِئْزَارٍ، حِينَ تَمَّلَّ الْجُبْنُ وَالسَّمْنُ وَالْقُشْدَةُ تُصْنَعُ مِنْ لَبَنِ هَذِهِ الْبَقَرَةِ!

كَمْ «أَبُو الْغُصْنِ» اشْمِئْزَارُهُ وَلَمْ يُعْلِنْهُ. قَالَ لِنَفْسِهِ: «إِنَّهُ شُعُورٌ شَخْصِيٌّ، لَيْسَ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ أَنْقُلَهُ إِلَيْهِمْ، وَلَا مِنَ الْمَصْلَحَةِ أَنْ يُشَرِّكُونِي فِيهِ. لَوْ تَبَيَّنَ النَّاسُ حِكْمَةَ اللَّهِ – سُبْحَانَهُ – حِينَ حَجَبَ عَنْهُمْ مَصَابِرُهُمْ، لِضَاعُفُوا الشُّكْرُ عَلَى رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ. كَمْ مِنْ أَشْيَاءِ حَجَبَتْهَا أَسْتَارُ غَيْبِ اللَّهِ عَنِ عِلْمِنَا، رَحْمَةً بِنَا! لَوْ كُشِّفَتْ لَنَا مَصَابِرُهَا قَبْلَ أَوَانِهَا، لَأَصْبَحَتْ حَيَاةَنَا جَيِّلًا!»

دَرَّتِ «الْخَوَارِ» لَبَنًا كَثِيرًا. مَلَأَتْ بَيْهِمْ خَيْرًا عَمِيمًا. كَانَ مَا تُخْرِجُهُ مِنَ الْلَّبَنِ، يَزِيدُ عَلَى مَا تُخْرِجُهُ ثَلَاثُ بَقَرَاتٍ، كَمَا وَكِيفًا. أَقْبَلَتْ «جُحَيَّةُ» عَلَى الْبَقَرَةِ تَتَعَهَّدُهَا بِالْعِنَاءِ. أَقْبَلَ «جَحْوَانُ» عَلَى الْحِمَارِ يَتَعَهَّدُهُ بِالرِّعَايَةِ. تَعَلَّمَتْ «جُحَيَّةُ» مِنْ «رُبِيدَةَ» كَيْفَ تَعُدُّ الْعَلَفَ، وَتَنْتَظِفُ الزَّرِيبَةَ، وَتَجْلِبُ الْحَسَائِشَ الْخُضْرَ إِلَيْهَا. كَانَ مِنْ دَوَاعِي الْبَهْجَةِ وَالإِنْشَرَاحِ أَنْ تَنْشَطِ الطُّفْلَةُ الصَّغِيرَةُ – كُلَّ صَبَاحٍ – إِلَى الْعِنَاءِ بِالْدَّارَةِ الْكَبِيرَةِ، فِي سُرُورٍ وَارْتِيَاحٍ! كَانَتِ الْبَقَرَةُ لَا تُخْفِي إِعْجَابَهَا بِالْطُّفْلَةِ الْكَرِيمَةِ وَشُكْرَهَا. اشْتَدَّ أَنْسُ الْبَقَرَةِ بِصَاحِبَتِهَا. أَقْبَلَتْ عَلَيْهَا تَمْدُ رَأْسَهَا، وَتَضَعُهُ مُتَلَطِّفَةً عَلَى كَتِفِ حَارِسَتِهَا، وَتُعْلِنُ – بِخُوَارِهَا الْعَالِيِّ – شُكْرَهَا.

١٠ جِنَّا.

١١ كثرة وجودة.

لَمْ يَكُنْ لِلْبَقَرَةِ وَسِيلَةٌ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ ابْتِهَا جَهَّاً وَعَرْفَانِهَا بِجَمِيلِهَا — بَعْدَ أَنْ حُرِّمَتِ الْقُدْرَةُ عَلَى الْكَلَامِ — غَيْرُ الْخُوَارِ.

بَعْدَ قَلِيلٍ، الْتَّقَى «الْعُكْمُوسُ» وَ«الْخُوَارُ». سُرْعَانَ مَا تَبَادَلَا نَظَرَاتِ الرَّئِيْبِ وَالشَّكُّ. كَانَّا تَبَيَّنَ كِلَاهُمَا أَنَّ صَاحِبَهُ رُبُّمَا كَانَ مِثْلُهُ إِنْسَانًا، اتَّنَقَلَ — بِسُحْرِ سَاحِرٍ — إِلَى غَيْرِ صُورَتِهِ، وَتَبَدَّى عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهِ. لِكِنَّهُمَا عَاجِزَانِ عَنِ الْكَلَامِ. أَنَّى لَهُمَا أَنْ يَعْرَفَ كِلَاهُمَا مَا يَدُورُ بِذِهْنِ صَاحِبِهِ.

عَلَى تَوَالِي الْأَيَّامِ جَمَعَتْ بَيْنَهُمَا الْأَلْفَةُ شَيْئًا فَشَيْئًا. حَلَّ الْإِيْنَاسُ مَحْلَ الْوَحْشَةِ. أَصْبَحَا يُلْقِيَانِ فِي أَكْثَرِ الْأَحْيَانِ. تَزَايِلَ الْأَسْفُ مِنْهُمَا وَالْأَلْمُ. حَلَّ مَكَانُهُمَا الرُّضِي؛ بِمَا قَضَى اللَّهُ بِهِ وَقَسَمَ. اسْتَسْلَمَا لِمَصِيرِهِمَا. مَرَنَا عَلَى الْفَةِ حَيَاتِهِمَا. كَثُرَّا مَا عَلَا — فِي أَثْنَاءِ اللَّيْلِ — نَهِيْقُ الرُّضِيِّ، وَخُوَارُ الشُّكْرِ فِي وَقْتٍ مَعًا! أَصْدَقَ الْمُتَنَبِّيِّ، فِي قَوْلِهِ:

كُلُّ مَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ فِي الْأَنْتَ فُسِّ، سَهْلٌ فِيهَا؛ إِذَا هُوَ كَانَا!

(٩) بَعْدَ عَامٍ

عَاشَ «أَبُو الْغُصْنِ» بَعْدَ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ، هَادِئًا النَّفْسِ نَاعِمًا الْبَالِ سَارَتْ أُمُورُهُ عَلَى مَا يُرَامُ، قُرَابَةً عَامَ.

حَالَفُهُ التَّوْفِيقُ، نَمَتْ ثَرَوَتُهُ. اتَّسَعَتْ تِجَارَتُهُ. أَصْبَحَ مِنْ كِبَارِ أَغْنِيَاءِ عَصْرِهِ. أَقْبَلَ عَلَيْهِ الدَّهْرُ أَيْمَانًا إِقْبَالًا. ابْتَسَمَ لَهُ عَالِيُّ الْأَمَالِ.

أَتَظْنُهُ — بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ — كَانَ أَسْعَدَ حَالًا، وَأَقْرَرَ عَيْنَانِ وَأَهْدَأَ بَالًا؟ سَتَقُولَ أَيُّهَا الصَّدِيقُ الصَّغِيرُ: «لَا رَيْبٌ فِي ذَلِكَ وَلَا مِرَاءٌ. مَاذَا يُرِيدُ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ — بِفَضْلِ السَّاحِرِ الْجِنِّيِّ الْكَرِيمِ — فَوْقَ مَا يَتَمَنَّاهُ مِنْ سَعَادَةٍ وَهُدُوِّهِ بَالِ؟ مَاذَا يُؤْمِلُ، بَعْدَ أَنْ اجْتَمَعَتْ لَهُ أَسْبَابُ الرَّحَاءِ وَجَالِبَاتُ الْبَهْجَةِ وَالْهَنَاءِ؟»

(١٠) دَوَاعِي الْهُمُومِ

لَعَلَّكَ تَدْهَشُ إِذَا قُلْتُ لَكَ: إِنَّ «أَبَا الْغُصْنِ» - بِرَغْمِ هَذَا كُلِّهِ - كَانَ كَاسِفَ الْبَالِ، مُنَفَّصَ الْقَلْبِ، شَارِدَ اللَّبْ. ضَيْقَ الصَّدْرِ، كَثِيرُ الْحَسْرَةِ، سَاهِمُ النَّظَرَةِ! تُرَى: مَا سَبَبَ انْقِبَاضِهِ وَهُمُومِهِ، وَمَصْدُرُ انْزِعَاجِهِ وَمِبْعَثُ وُجُومِهِ؟! كَانَ مُنَالَّمًا لِمَا أَصَابَ غَرِيمِهِ: «الْعَكْمُوسَ» وَ«الْخَوَارِ» عَلَى يَدِيهِ. كَانَ مَحْزُونًا لِمَا حَلَّ بِهِمَا، بَعْدَ أَنْ نَقَاهُمَا لَوْمُهُمَا وَشَرَاسَتُهُمَا وَسُوءُ طَبْعِهِمَا إِلَى عِدَادِ الدَّوَابِ. كَانَ مَالُومًا لِفَقْدِهِمَا، وَحَرْمَانِهِمَا تَفْكِيرُهُمَا، وَحُرْيَتِهِمَا وَنُطْقُهُمَا. لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ - عَدَا «أَبَا الْغُصْنِ» عَارِفًا بِسُرُّهُمَا وَحَقِيقَةَ أَمْرِهِمَا. كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» - كَمَا عَلِمْتَ - وَاسِعُ الصَّدْرِ، رَاضِيُ الْفَقْسِ، لَا تَنَالُ مِنْهُ الْخُطُوبُ وَالْمَصَابِبُ مَنَالًا. لَكِنَّهُ كَانَ - عَلَى ذَلِكَ - يَقِظَ الضَّمِيرِ، مُرْهَفَ الْحِسْنِ، مُسْتَوْفِرَ الشُّعُورِ.

كَانَ يُحِبُّ الْخَيْرَ لِلنَّاسِ. كَانَ يَحْتَمِلُ الْأَذَى فِي سَبِيلِ إِسْعَادِهِمْ. كَانَ لَا يَجْزُعُ لِمَا يُحْلِّ بِهِ مِنْ كَوَارِثَ وَمَحْنَ، يَقْدِرُ مَا كَانَ يُشَتَّتُ بِهِ الْجَزْعُ إِذَا أَصَابَ غَيْرَهُ أَقْلُ أَذَى. طَالَمَا سَاءَلَ نَفْسَهُ مُنَالَّمًا: «وَا عَجَبًا لَكَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»! هَلَّا أَحْذَتَ بِالصَّفْحِ، وَاعْتَصَمْتَ بِالْحَلْمِ! كَيْفَ أَسْلَمْتَ قِيَادَكَ لِلْغَضْبِ. كَيْفَ انْدَفَعْتَ فِي مَيَانِ الْأَيْنَةِ وَالشَّرِّ؟ كَيْفَ آثَرْتَ ^{١٢} الْإِنْتِقَامَ، وَتَنَكَّبْتَ طَرِيقَ الْخَيْرِ؟! كَيْفَ قَابَلْتَ السَّيِّئَةَ بِمِثْلِهَا، وَلَمْ تَجِرْ - عَلَى عَادِتِكَ - فِي دَفِعَهَا بِالْتَّيْهِي هِيَ أَحَسْنُ؟ أَلْمَ يَكُنُ الْعَفْوُ أَوْلَى بِكَ وَأَجْدَرَ؟! مَا كَانَ ضَرَّكَ لَوْ مَنَّتَ وَتَجَاوَزْتَ عَنْ مَكْرِهِمَا، وَتَغَاضَيْتَ عَنْ إِسَاءَتِهِمَا؟ مَا كَانَ أَجْدَرَكَ أَنْ تَجْرِيَ عَلَى مَالُوفِ عَادِتِكَ، فَتَأْخُذَهُمَا بِالْحُسْنَى، وَتَعْامِلَهُمَا بِالصَّفْحِ، وَتَدْفَعَ السَّيِّئَةَ بِالْحَسَنَةِ، وَتُقَابِلَ الْإِسَاءَةَ بِالْتَّجَاؤِزِ وَالْمَعْفَرَةِ، وَالْعَفْوِ عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ؟! هَلَّا قَابَلْتَ النِّعْمَةَ بِالصَّفْحِ وَالشُّكْرِ، وَالْتَّرْفُعَ عِنْ الْأَذَى وَالضَّرِّ؟» كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» عَلَى حَقٍّ فِيمَا رَأَهُ. كَانَ الْعَامُ الَّذِي قَضَاهُ التَّاعِسَانِ - فِي حَظِيرَةِ الدَّوَابِ - تَأْدِيبًا رَادِعًا، بِمَا أَسْلَفَاهُ مِنْ ذَنْبٍ.

١٢ اخترت وفضلت.

لَوْ كَانَ صَلَاحُ أَمْرِهِمَا فِي مَقْدُورِ «أَبِي الْغُصْنِ» أَوْ «مِصْبَاحِ الْكَنْزِ» لَمَا قَصَّرَ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي إِعَادَةِ التَّعِيسِينِ إِلَى الصُّورَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، بَعْدَ اِنْقِضَاءِ سَاعَةٍ، أَوْ بَعْضِ يَوْمٍ. لَكِنْ هَيْهَاتَ ذَلِكَ هَيْهَاتَ! مَا أَيْسَرَ الْحَاقَ الْأَذَى، وَمَا أَصْبَحَ تَدَارُكَ آثَارِهِ! مَا أَيْسَرَ الْوُقُوعَ فِي الْخَطْأِ، وَمَا أَصْبَحَ تَلَافِيَهُ!

كَانَتْ عَوْدَةُ الْمَسْحُورِيْنِ إِلَى صُورَتِهِمَا الْأُولَى تَقْتَصِيهِ أَنْ يُسَافِرَ إِلَى «أَبِي شَعْشَعٍ» فِي جَزِيرَةِ «عَبْقَرِ». لَكِنْ: أَيْنَ مِنْهُ جَزِيرَةُ «عَبْقَرِ»؟ دُونَ بُلُوغَهَا مَصَاعِبُ وَأَهْوَالُ. كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» يَرْتَقِبُ زِيَارَةً «أَبِي شَعْشَعٍ» عَلَى غَيْرِ طَائِلٍ. كَانَتْ كُلُّ سَاعَةٍ تَمُرُّ بِهِ تَرِيُّدٌ إِيلَمَا وَتَعْذِيْبًا. كَانَ لَا بُدَّ أَنْ يَدْهَبَ إِلَى بِلَادِ «الْوُقَوَاقِ»، لِيُلْتَمِسَ مِنْ صَاحِبِهِ «أَبِي شَعْشَعٍ» أَنْ يُعِيدَ الْمَسْحُورِيْنِ إِلَى صُورَتِهِمَا الْأُولَى، بِفَضْلِ مَا أُوْتِيَ مِنْ قُدْرَةٍ عَلَى السُّخْرِ. عَزَّمَ «أَبُو الْغُصْنِ» عَلَى السَّفَرِ.

أَعْدَّ لَهُ «مِصْبَاحُ الْكَنْزِ» حِصَانًا فَخْمًا مُطَهَّمًا، مُسْرَجًا مُلْجَمًا، وَجَمَلًا كَبِيرًا قَوِيًّا، عَلَيْهِ كُلُّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمَسَافِرُ – فِي رِحْلَتِهِ – مِنْ رَأِدٍ وَمَنَاعٍ. أَعْدَّ لَهُ – إِلَى ذَلِكَ – حَارِسًا صَحِيحَ الْبِنْيَةِ، فَارِغَ الطُّولِ.

لَمْ يَيْسَ «أَبُو الْغُصْنِ» أَنْ يُعْطِيَ «رَبَابَةَ» «مِصْبَاحَ الْكَنْزِ» لِيَحْمِيهَا، بَعْدَ أَنْ التَّمَسَّ مِنْهُ أَنْ يَحْرُسَهُ فِي حَلَّهُ وَتَرْحَالِهِ، وَيَرْعَاهُ عَلَى الْبَعْدِ، كَمَا كَانَ يَرْعَاهُ عَلَى الْقُرْبِ.

(١١) «الْمَيْدَانُ»

خَرَجَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنَ الْمَدِينَةِ، يَحْرُسُهُ تَابِعُهُ «أَبُو النَّجَاءِ»، الَّذِي أَرْسَلَهُ «أَبُو شَعْشَعٍ». أَحَدًا يَجْدَانِ فِي السَّيْرِ ...

مَضَتْ أَيَّامٌ دُونَ أَنْ يَقَعَ لَهُمَا حَادِثٌ، أَوْ يَتَعَرَّضَا لِأَذَى. بَلَغَا أَوَّلَ مَرَاجِلِ الصَّحْرَاءِ. أَنَاخَا فِي بُقْعَةِ خَطِرَةٍ، يُطْلُقُ عَلَيْهَا اسْمُ: «الْمَيْدَانِ». أَقْبَلَ الْلَّيْلُ. تَرَجَّلَ ١٣ «أَبُو الْغُصْنِ»

كَمَا تَرَجَّلَ «أَبُو النَّجَاءِ». مَا إِنْ اسْتَقَرَّ بِهِمَا الْمُقَامُ حَتَّى أَسْرَعَ «أَبُو النَّجَاءِ» إِلَى الْخَيْمَةِ فَأَقَمَهَا، وَإِلَى الْحِصَانِ وَالْجَمَلِ فَرَبَطَهُمَا فِي وَتَدِينِ، بَعْدَ أَنْ تَبَعَّهُمَا فِي الْأَرْضِ. لَمْ يَتَوَانَّ «أَبُو النَّجَاءِ» فِي إِحْضَارِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَفُرِشٍ. جَسَ «أَبُو الْغُصْنِ» يَتَعَشَّى. اتَّهَى مِنْ زَادِهِ رَأَى سَرِيرًا مِنَ الْقِشْنَ الْجَافَ أَعْدَّهُ لَهُ «أَبُو النَّجَاءِ». اسْتَسْلَمَ «أَبُو الْغُصْنِ» لِنَوْمٍ هَادِئٍ عَمِيقٍ. كَانَتْ عَيْنُ اللَّهِ تَكُلُّهُ^{١٤} وَتَرْعَاهُ.

تَعْوُدُ إِلَى «رَبَابَةَ» ... شَعَرْتُ – بَعْدَ سَفَرٍ رَوْجَهَا – بِوَحْشَةِ شَدِيدَةٍ. قَضَتْ يَوْمَهَا – عَلَى غَيْرِ عَادِتِهَا – مُتَالِمَةً مَحْزُونَةً. بَعْدَ قَلِيلٍ حَيَّمَ الظَّلَامُ عَلَى الْمَدِينَةِ وَسَاكِنِيهَا. أَطْفَلَتِ الْأَنْوَارُ. سَكَنَتِ الْجَلَبَةُ وَالضَّوْضَاءُ. سَادَ الصَّمْتُ. تَلَالَتِ النُّجُومُ فِي السَّمَاءِ. كَانَتِ الْكِلَابُ تُرَدِّدُ نُبَاحَهَا، كُلَّمَا طَرَقَ آذَانَهَا صَوْتُ، أَوْ أَحَسَّتْ نَائِمَةً،^{١٥} أَوْ شَعَرْتُ بِقَادِمٍ أَوْحَشَ^{١٦} بَيْتُ «أَبِي الْغُصْنِ». جَلَسَتْ «رَبَابَةُ» أَمَامَ مِغْرِلَهَا؛ بَعْدَ أَنْ نَامَ وَلَدَاهَا وَجَارَتُهَا. ظَلَّتْ تُنْفَكِّرُ فِي الْغَائِبِ الَّذِي كَانَ يَمْلأُ بَيْتَهَا بَهْجَةً وَسَعَادَةً. كَانَتْ تَغْزِلُ، وَتُسْلِي نَفْسَهَا بِالْأَنْشُوَدَةِ التَّالِيَةِ:

يَا طَيْرُ، يَا أَشْجَارُ، يَا رَوْضَةُ
فِيهَا – مِنَ الْفِرْدَوْسِ – أَرْهَارُ
يَا حَيْطُ، يَا إِبْرَةُ، يَا كَوْكَبُ، يَا دَارُ
يَا نَحْلُ: طِنْيٌ، وَأَمْثَلَيٌ مَسْمَعِي
وَحَدَّثَيٌ قَلِيلٌ: مَتَى سَارُوا؟
سَافَرَ رَبُّ الْبَيْتِ عَنْ دَارِهِ
وَقَدْ خَلَتْ – مِنْ أُنْسِهِ – الدَّارِ!

* * *

عِنَايَةُ اللَّهِ وَتَوْفِيقُهُ وَلُطْفُهُ، صَحْبُ وَسُمَّارُ

^{١٤} تحرسه.

^{١٥} صوتاً ضعيفاً.

^{١٦} خلا من ساكنيه.

تَحْوَطُهُ مِنْهُنَّ أَنْوَارُ
وَحَدَّثِي قَلِيلٍ: مَتَى سَارُوا؟
وَأَوْحَشْتَ – مِنْ بَعْدِهِ – الدَّارُ!

وَالشَّمْسُ، وَالْبَدْرُ، وَنَجْمُ السَّمَاءِ
يَا نَحْلُ: طِنْيٌ، وَأَمْلَئِي مِسْمَعِي
سَافَرَ رَبُّ الدَّارِ عَنْ دَارِهِ

* * *

يَحْفُّهُ نَوْرٌ وَأَنْوَارُ
قَدْ فَرَّقْتُنَا عَنْكَ أَقْدَارُ
وَحَدَّثِي قَلِيلٍ: مَتَى سَارُوا؟
وَأَظْلَمْتَ – مِنْ بَعْدِهِ – الدَّارُ!

يَا وَرْدُ، يَا رَيْحَانُ، يَا نَرْجِسًا
يَا نُورَ دَارِي وَفُؤَادِي مَعًا،
يَا نَحْلُ: طِنْيٌ، وَأَمْلَئِي مِسْمَعِي
سَافَرَ رَبُّ الدَّارِ عَنْ دَارِهِ

* * *

مُنْذُ تَرَامَتْ بِكَ أَسْفَارُ
مَتَى تَرَاهُ هَذِهِ الدَّارُ؟
وَحَدَّثِي قَلِيلٍ: مَتَى سَارُوا؟
فَهَلْ تَسْلَى عَنْهُ دَيَارُهِ

عَادَ فَرَاغًا كُلُّ شَيْءٍ هُنَّا
مَتَى يَرَى الدَّارَ وَسُكَّانَهَا؟
يَا نَحْلُ: طِنْيٌ، وَأَمْلَئِي مِسْمَعِي
سَافَرَ رَبُّ الدَّارِ عَنْ دَارِهِ

حَدِيثُ الْبَيْعَاءِ (١٢)

نَعُودُ إِلَى «أَبِي الْغُصْنِ». اسْتَسْلَمَ لِنَوْمٍ هَنِيءٍ. لَمْ يُكَدِّرْهُ إِلَّا فَرْطُ شَوْقِهِ وَحَنِينِهِ إِلَى رَوْجِهِ وَوَلَدِيهِ، طَلَّعَ النَّهَارُ، اسْتَأْنَفَ سَيْرَهُ إِلَى غَايَتِهِ، أَقْبَلَ اللَّيْلُ. أَعْدَ «أَبُو النَّجَاءِ» لِصَاحِبِهِ وَدَابِّيَّهِ كُلَّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ. ظلَّ «أَبُو الْغُصْنِ» عَلَى ذَلِكَ أَيَّامًا حَمْسَةً^{١٧}. جَاءَ الْيَوْمُ السَّادِسُ. اشْتَدَ الْحَرُّ. أَقْعَدَهُ عَنْ مُوَاصِلَةِ السَّيْرِ. أَقْبَلَ اللَّيْلُ. أَضْجَرَهُ الْقَيْطُ. ^{١٨} أَعْجَرَهُ عَنِ النَّوْمِ. انتَبَاهُ الْأَرْقُ. رَأَدَتْهُ الذِّكْرَيَاتُ الْأَلْمَاءِ عَلَى الْمِ. اشْتَدَ بِهِ الْقَلْقُ

١٧ شدة الحر.

١٨ أصابه السهر مرة بعد أخرى.

عَلَى زَوْجَتِهِ وَوَلَدِيهِ. اشْتَغلَ بِالْأُلُوهِ.^{١٩} اِتَّهَلَ^{٢٠} إِلَى اللَّهِ — سُبْحَانَهُ — أَنْ يَتَوَلَّهُمْ بِرِعَايَتِهِ، وَيَحْفَظُهُمْ بِعِنَايَتِهِ. رَدَّهُ أَسْمَاءُهُمْ — فِي أَحْلَامِهِ — بِصَوْتٍ عَالٍ. كَانَ يَهْتَفُ^{٢١} بِهِمْ مَرَاتٍ، قَائِلاً: «رَبَّابَةُ! جَحْوَانُ! جُحَيَّةُ!» رَنَّ صَوْتُ مُنْقَطَعٍ فِي أَجْوَازِ الْفَضَاءِ. قَطَعَ عَلَيْهِ أَحْلَامُهُ. صَوْتُ يُرَدَّدُ — فِي لَهْجَةِ لَطِيفَةِ — كَلَامَ «أَبِي الْغُصْنِ»: «رَبَّابَةُ! جَحْوَانُ! جُحَيَّةُ!»

الصَّوْتُ يَقُولُ: «أَيَّ نَبَأٌ تُرِيدُ أَنْ أَحْمِلُهُ عَنْكَ إِلَى أُسْرَتِكَ؟ أَتَحِيَّةُ الصِّبَاحِ تُرِيدُ؟ أَمْ تَحِيَّةُ الْمَسَاءِ؟ خَبَرْنِي: أَيَّ التَّحِيَّتَيْنِ أَبْلَغُهُمْ؟ لَعَلَّكَ تُرِيدُ أَنْ أَحْمِلَ إِلَيْهِمْ كُلَّتِهِمَا؟ قُلْ، فَأَنَا أَسْمَعُ. كُنْ عَلَى تِقَةٍ أَنِّي مُؤَدِّيَةُ رِسَالَتِكَ إِلَيْهِمْ، وَسَلَامَكَ عَلَيْهِمْ. أَنَا مُسَافِرَةُ إِلَى «الْكُوْفَةِ» — بَعْدَ قَلِيلٍ — فَنَاقِلُهُمْ مَا تَسْتَوِدُ عَنِيهِ مِنْ تَحِيَّةٍ، وَمَا تُحَمِّلُنِيهِ مِنْ هَدِيَّةٍ.» فَتَّحَ «أَبُو الْغُصْنِ» عَيْنِيهِ لِيَرَى مَصْدَرَ الصَّوْتِ الْحَيِّبِ وَالْمُفَاجَأَةِ السَّارَّةِ: رَأَى بَيْغَاءَ بَدِيَّعَةَ الشَّكْلِ، خَضْرَاءَ الرِّيشِ. رَأَاهَا جَائِمَةً^{٢٢} تَرْدُدُ حَدِيثَهَا فَوْقَ عَمُودِ حَيْمَتِهِ. غَيْرُ «أَبِي الْغُصْنِ»، لَوْ شَهَدَ تِلْكَ الْمُفَاجَأَةَ لَمْ تَلَّتْ نَفْسُهُ عَجَباً. لَكِنَّ مَا مَرَّ بِهِ مِنْ عَرَائِبَ وَمُدْهَشَاتٍ، كَانَ كَافِيًّا لِتَرْوِيْسِهِ عَلَى تَوْقِعِ الْكَثِيرِ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْمُفَاجَاتِ. لَمْ يَسْتَسِلِمْ «أَبُو الْغُصْنِ» لِلْدَّهَشِ وَالْحَيْرَةِ. لَمْ يُضْعِفْ وَقْتَهُ فِي غَيْرِ فَائِدَةٍ. أَسْرَعَ إِلَى الْبَيْغَاءِ. قَالَ: «شُكْرًا لَكَ، أَتَيْتَهَا الْبَيْغَاءُ الرَّاجِلُهُ. أَقْرَئِهِمْ^{٢٣} سَلَامِيَ وَتَحِيَّتِي. اقْتَلِي شَنَائِي وَشُكْرِي بَعْدَ ذَلِكَ، طَائِرًا كُنْتِ أَمْ جِنِّيَّةً.»

قَاتَلَتِ الْبَيْغَاءُ: «لَكَ مَا تُرِيدُ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». سَأُنْجِزُ طَلِبَتَكَ. لَنْ أُخَالِفَ لَكَ أَمْرًا، وَحَقُّ زُمُرْدَهَا!»

لَمْ يَدِرِ «أَبُو الْغُصْنِ» مَاذَا تَعْنِيهِ الْبَيْغَاءُ بِهَذَا الْإِسْمِ الْجَدِيدِ.

^{١٩} تشوشت أفكاره واضطربت.

^{٢٠} أخلص في الدعاء متضرعاً.

^{٢١} يصبح.

^{٢٢} مستقرة في مكانها لا تبرحه.

^{٢٣} بلغ عليهم.

سَمِعَ الْبَيْعَاءَ تَسْتَأْفِفُ قَائِلَةً: «مَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ، فَأَنَا أُحَذِّرُكَ مِنْ «الرَّكَّاكَ» وَ«الْوَكُوَاكَ»! كِلَاهُمَا شَرِّيرٌ فَتَأْكُ، يَتَوَحَّى ضَرَّكَ وَيَسْعَى إِلَى أَذَاكَ، وَيَرْبَضُ بِكَ الْهَلَاكَ». هُمْ «أَبُو الْغُصْنِ» أَنْ يَسْأَلُهَا عَنْ «الرَّكَّاكِ» وَ«الْوَكُوَاكِ»: مَنْ هُمَا؟ مَا شَانُهُ بِهِمَا؟ سَمِعَ الْبَيْعَاءَ تَقُولُ: «يَا «أَبَا الْغُصْنِ»: كُنْ عَلَى حَذَرٍ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ تَخْطُوهَا فِي هَذَا الْمَكَانِ. أَنْتَ فِي أَحْطَرِ بُقْعَةٍ مِنَ الصَّحْرَاءِ. «الْمَيْدَانُ»: اسْمُ هَذَا الْمَكَانِ.»

انْطَلَقَتِ الْبَيْعَاءُ إِلَى غَايِتِهَا مُحَلَّةً فِي الْجَوَّ، هَائِمَةً فِي الْفَضَاءِ. قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي تَفْسِيهِ: «الرَّكَّاكُ، الْوَكُوَاكُ: مَنْ هُمَا؟ مَنِي أَرَاهُمَا؟ مَا بِالْبَيْعَاءِ تُحَذِّرُنِي كَيْدُهُمَا، وَتُخَوِّفُنِي شَرُّهُمَا وَأَذَاهُمَا؟ لِمَاذَا كَانَ «الْمَيْدَانُ» — فِي الصَّحْرَاءِ — أَحْطَرَ مَكَانٌ؟ أَتَرَاهُ مَأْوَى عِصَابَةٍ مِنْ أَشْرَارِ الْلُّصُوصِ وَقُطَّاعِ الطَّرِيقِ؟» تَقْلَلَ التَّأْبُّ عَلَيْهِ. أَسْلَمَ لِلنُّورِ عَيْنَيْهِ. كَانَ قَدْ انْقَضَى — عَلَى رِحْلَةِ «أَبِي الْغُصْنِ» — خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا كَامِلَةً ...

(١٣) فَرَّاعُ «رَبَابَةَ»

تَعُودُ إِلَى بَيْتِهِ: تَرَى «رَبَابَةَ» مُتَالِمَةً مَحْزُونَةً، لَا يَشْغُلُهَا عَنْ زَوْجَهَا شَيْءٌ مِمَّا يُحِيطُ بِهَا مِنْ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ وَجَالِبَاتِ الْهَنَاءِ.

فِي تِلْكَ الْلَّيْلَةِ، جَلَسَتْ «رَبَابَةُ» شَارِدَةً لِلْفِكْرِ، مُسْتَسِلَّةً إِلَى هُمُومِهَا. رَأَتْ مَا أَزْعَجَهَا فِي مَنَامِهَا: شَهَدَتِ فِي أَضْغَاثِ أَحْلَامِهَا^{٢٤} الْمُتَقَطِّعَةِ شِرِّيرًا حَبْنَطَى،^{٢٥} يَعْتَرُضُ زَوْجَهَا فِي طَرِيقِهِ. اتَّبَعَتْ «رَبَابَةَ» مِنْ نَوْمِهَا خَائِفَةً، حَانَتِ مِنْهَا التِفَاتَةُ عَابِرَةً إِلَى «مِصْبَاحِ الْكَنْزِ» الَّذِي تَرَكَهُ زَوْجُهَا عِنْدَهَا.

دَهَشَتْ «رَبَابَةُ» مِمَّا يَنْبَعِثُ مِنْ أَضْوَائِهِ الْقَوِيَّةِ. تَعَاوَظَمَتْهَا الْحَيْرَةُ حِينَ سَمِعَتِ الْمِصْبَاحَ يَقُولُ، فِي أَسْلُوبٍ فَصِيحٍ، عَذْبِ النَّبَرَاتِ، وَاضْبَحِ الْكَلِمَاتِ: «أَنَا مَحْزُونُ. أَنَا مَهْمُومُ.»

^{٢٤} أَخْلَاطُهَا.

^{٢٥} مَنْتَخِ الْبَطْنِ.

تَفَزَّعَتْ «رَبَابَةُ» مِمَّا سَمِعَتْ. لَمْ يَكُنْ لَهَا عَهْدٌ بِحَدِيثِ الْمِصْبَاحِ مِنْ قَبْلُ. نَسِيَ «أَبُو الْغُصْنِ» أَنْ يُخْبِرَ «رَبَابَةَ» – فُبِيلَ سَفَرِهِ – بِمَا يَتَمَيَّزُ بِهِ «مِصْبَاحُ الْكَنْزِ» مِنْ قُدْرَةِ عَلَى الْكَلَامِ.

لَمْ تُعْتَمْ «رَبَابَةُ» أَنْ اسْتَرَدَتْ شَجَاعَتَهَا. سَأَلَتِ الْمِصْبَاحَ عَمَّا يَعْرِفُهُ مِنْ أَخْبَارِ رَوْجَهَا. قَالَ الْمِصْبَاحُ: «حَسْبُكِ – يَا «رَبَابَةَ» – أَنْ تَنْتَظِرِي إِلَى صَفْحَةِ الْحَائِطِ لِتَرَيِّ فِيهَا كُلَّ مَا تُفَكِّرِينَ فِيهِ».

مَا إِنْ أَتَمَ الْمِصْبَاحُ قَوْلَتَهُ، حَتَّى رَأَتْ «رَبَابَةُ» ... وَيَا مَا أَعْجَبَ مَا رَأَتْ: كَانَنَّا انْشَقَّتِ الْحَائِطُ. ارْتَسَمَ أَمَامَهَا مَشْهَدٌ عَجِيبٌ أَشْبَهُ مَا يَكُونُ بِمَا نَشَهَدُهُ عَلَى الْوَاحِدِ «السَّيِّمِيَّ» فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ! تَمَثَّلَ لَهَا مَا لَمْ يَدْرُزْ فِي خَاطِرِهَا: رَأَتْ رَوْجَهَا رَاقِدًا – كَمَا حَدَّثْتُكِ مِنْ قَبْلُ – عَلَى سَرِيرٍ مِنَ الْقَشِّ، خَارَجَ حَيْمَتِهِ فِي الْعَرَاءِ. رَأَتْ حَوْلَهُ عِصَابَةً مِنْ لُصُوصِ الصَّحْرَاءِ.

كُلُّ مَا حَوْلُهُ كَانَ هَادِيًّا مُسْتَسِلًّا لِلنُّومِ سَاكِنًا، مَا عَدَا «أَبَا النَّجَاءِ»: حَارِسَهُ الْيِقَظَ الْأَمِينَ. شَدَ «أَبُو النَّجَاءِ» جَمَلَ «أَبِي الْغُصْنِ» وَحِصَانَهُ إِلَى الْوَتِيدِ الَّذِي أَحْكَمَ دَقَّهُ فِي الْأَرْضِ. شَدَ نَفْسَهُ إِلَى جِوَارِهِمَا.

جَلَسَ «أَبُو النَّجَاءِ» مُسْتَيْقِظًا بَاسِمًا. كَانَتْ شَفْتَاهُ الضَّخْمَتَانِ تَفَرَّانِ عَنْ أَسْنَانِهِ الْبِيْضِ. كَانَ يُنْصِتُ إِلَى حَدِيثِ نَعَامَتِينِ تَتَحَدَّثَانِ بِالْقُرْبِ مِنْ شَجَرَةِ نَارِجِيلٍ.^{٢٦} كَانَتَا تَتَهَامَسَانِن. أَسْرَرَتْ أُولَاهُمَا – إِلَى صَاحِبَتَهَا – قَائِلَةً: «أَرَأَيْتِ، يَا «أُمَّ الْهَيْقِ»: أَيُّ مِحْنَةٍ يَتَعَرَّضُ لَهَا «أَبِي الْغُصْنِ» فِي هَذَا الْمَكَانِ؟ لَا شَكَّ فِي أَنَّ لُصُوصَ «الْمَيْدَانِ» هُوَلَاءِ، أَشَدُّ فَتَكًا مِنَ الضَّوَارِيِّ الشَّرِسَةِ، وَأَعْنَفُ قَسْوَةً مِنَ الْوُحُوشِ الْمُفَتَّسَةِ.

أَخْشَى مَا أَخْشَاهُ أَنْ يَعُودَ الرَّسُولُانِ اللَّذَانِ أَوْفَدُوهُمَا لِأَخْذِ الْفِدْيَةِ – مِنْ بَيْتِ «أَبِي الْغُصْنِ» – وَأَيْدِيهِمَا خَالِيَّةٌ مِنَ الْمَالِ. ذَلِكَ يُغْضِبُ الْلُّصُوصَ عَلَى «أَبِي الْغُصْنِ»، وَيَدْفَعُهُمْ إِلَى الْإِنْقَامِ مِنْهُ.

أَجَابَتْهَا النَّعَامَةُ الْأُخْرَى: «صَدَقْتِ، يَا أُمَّ رَأْلٍ! لَا شَكَّ فِي أَنَّ «الرَّكَّاكَ» وَ«الْوُكُوكَ» يُقْتَرِبَانِ الْآنَ مِنْ مَدِينَةِ «الْكُوفَةِ»، حَيْثُ تُقْيِمُ أُسْرَةُ «أَبِي الْغُصْنِ».

قَالَتِ الْأُولَى: «لَعَلَّهُمَا يَجِدَانِ الْفِدْيَةَ الَّتِي يَطْلُبَانِهَا، يَا أُمَّ الْهَيْقِ! لَعَلَّهُمَا — إِذَا ظَفَرَا بِهَا — لَا يُلْحِقَانِ الْأَذَى بِضَيْقِنَا الْكَرِيمِ».

قَالَتِ الثَّانِيَةُ: «تُرَى هُلْ يُلْحِقُ الْأَذَى أَبَا النَّجَاءِ؟

قَالَتِ الْأُولَى: «أَخْتِي حَدَّثَنِي أَنَّ «أَبَا النَّجَاءِ» لَنْ يُلْحِقَهُ أَذَى كَبِيرٌ.

سَأَلَتْهَا صَاحِبَتْهَا: «عَنْ أَيِّ أَخْتِيْكَ تَتَحَدَّثِينَ؟ «أُمُّ التَّرِيْكَةِ» تَعْنِينَ، أُمُّ «ذَاتِ الظَّلَّيمِ» تَقْصِدِينَ؟

أَجَابَتْهَا الْأُولَى: «أُمُّ التَّرِيْكَةِ أَعْنِيِّ.

سَأَلَتْهَا: «بِمَاذَا أَخْبَرْتِ أُمُّ التَّرِيْكَةِ؟

قَالَتِ: «أَخْبَرَنِي أَنَّ لُصُوصَ «الْمَيْدَانِ» رُبِّمَا اكْتَفَوْا بِقَتْلِ «أَبِي النَّجَاءِ» أَوْ صَلْبِهِ عَلَى هَذَا الْعُمُودِ. رُبِّمَا طَمَحْتِ نُفُوسُهُمْ إِلَى طَبْخِ لَحْمِهِ، أَوْ شَيْءٍ عَلَى هَذَا السَّفُودِ».^{٢٧}

سَرَرْتِ فِي جِسْمِ «أَبِي النَّجَاءِ» رُعْدَةً أَرْعَشْتِ كُلَّ جَارِّهِ فِيهِ. لَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ. مَا أَظْلَنْ أَحَدًا يَرْتَاحُ إِلَى هَذَا الْمَصْبِرِ الْمُرْعِجِ، عَلَى أَيِّ حَالٍ.

أَغَادَ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي نَوْمِهِ الْمُضْطَرِبِ وَأَحْلَامِهِ الْمُتَقْطَعَةِ، مَا كَانَ يَهْذِي بِهِ مِنْ أَسْمَاءِ «رَبَابَةَ» وَ«جَحْوَانَ» وَ«جُحَيَّةَ».

قَالَتِ النَّعَامَةُ الْأُولَى: «أَلَا تَرَيْنِ — يَا أُمَّ الْهَيْقِ» — مَا يُعَانِيهِ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنْ تَبَارِيْحِ الْأَلَمِ؟^{٢٨} الْحَرُّ يَكَادُ يَخْنُقُ الْمُسْكِينَ وَيُزْهَقُ رُوحَهُ.

قَالَتِ الثَّانِيَةُ: «صَدَقْتِ، يَا أُمَّ رَأْلٍ». حَدَّثَنِي أَخْتِي «أُمُّ التَّرِيْكَةِ» أَنَّ رِيحَ السَّمُومِ تَهْبُّ بَعْدَ قَلْبِي. لَسْتُ أَدْرِي: كَيْفَ يُطِيقُهَا؟! مَا أَحْسَبُهُ قَادِرًا عَلَى احْتِمَالِهَا. لَا بُدَّ أَنَّهُ هَالِكٌ إِنَّا بَقِيَ فِي هَذَا الْمَكَانِ.

قَالَتِ الْأُولَى: «مَاذَا عَلَيْنَا إِنَّا جَلَبْنَا لَهُ الْهَوَاءِ بِأَجْنِحَتِنَا؟

^{٢٧} الحديدة يشوى بها اللحم.

^{٢٨} شدته.

أَجَابَتْهَا الثَّانِيَةُ: «الصَّوَابُ مَا رَأَيْتُ».

ظَلَّتْ «أُمُّ رَأْلٍ» وَ«أُمُّ الْهَيْقِ» تُرْوَحَانِ بِالْقُرْبِ مِنْ «أُبَيِّ الْغُصْنِ»، وَتُرْفَرِفَانِ بِأَجْنِحَتِهِمَا نَوَاتِ الرِّيشِ النَّاعِمِ الْبَيْعِ. لَمْ يُلْبِثِ الْجُوُّ أَنْ تَحَسَّنَ. حَفْتُ وَطَأَةُ الْحَرِّ.^{٢٩} نَجَا «أَبُو الْغُصْنِ» – بِفَضْلِ هَاتِينِ النَّعَامِيْنِ – مَمَّا كَادَ يَتَعَرَّضُ لَهُ مِنْ الْأَخْتِنَاقِ ... هَكَذَا شَهَدَتْ «رَبَابَةُ» بِعَيْنِيهَا وَسَمِعَتْ بِأَذْنِيهَا كُلَّ مَا حَدَثَ. الْجَمَاهَا الْخَرْسُ! كَادَتْ «رَبَابَةُ» تَصْعَقُ مِنْ هُولِ مَا رَأَتْ. لَكِنَّ حِرْصَهَا عَلَى سَلَامَةِ زَوْجِهَا سُرْعَانَ مَا أَعْدَ إِلَيْهَا مَا احْتَبَسَ مِنْ صَوْتِهَا، وَرَجَعَ لَهَا مَا فَقَدَتْهُ مِنْ وَعْيِهَا. ابْتَعَثْتُ صَرَخَاتُ الْأَلَمِ مِنْ فِيهَا مُدَوِّيَّةً فِي كُلِّ مَكَانٍ: «الْغَوْثُ الْغَوْثُ. النَّجْدَةُ النَّجْدَةُ. إِلَيَّ – يَا «رُبَيْدَةُ» – إِلَيَّ!»

مَا إِنْ رَفَعَتْ صَوْتَهَا بِالْإِسْتِغَاةِ حَتَّى اسْتَخَفَى الْمَشْهُدُ عَنْ عَيْنِيهَا، كَمَا تَسْتَخْفِي رُؤْيَا النَّائِمِ عَنْ عَيْنِ الْحَالِمِ.

أَسْرَعَتْ «رُبَيْدَةُ» إِلَى «رَبَابَةِ». رَأَتْ جَارَتَهَا يَكَادُ الذُّهُولُ وَالْخَيَالُ يَسْتَوْلِيَانِ عَلَيْهَا. سَأَلَّتُهَا عَنْ مَصْدَرِ فَرَعَاهَا وَسَرَّ اتْنِعَاجِهَا.

قَصَّتْ «رَبَابَةُ» عَلَيْهَا مَا شَهَدَتْهُ – مُنْذُ لَحْظَةِ – فِي جُمْلِ مُتَقْطَعَةٍ. رَوَتْ لَهَا مَا يَتَعَرَّضُ لَهُ زَوْجُهَا مِنْ مَصَابِبِ وَمَهَالِكَ وَأَخْطَارٍ، فِي أَرْضِ «الْمَيْدَانِ»: أَخْطَرِ مَكَانٍ فِي الصَّحْرَاءِ. لَمْ تَكُنْ مَا سَمِعَتْهُ مِنْ حَدِيثِ النَّعَامِيْنِ: «أُمُّ رَأْلٍ» وَ«أُمُّ الْهَيْقِ».

حَرِّنَتْ «رُبَيْدَةُ» لِمَا سَمِعَتْ. حَسِبَتْ صَدِيقَتَهَا أَصَابَهَا مَسٌّ مِنَ الْخَيَالِ أَوْ احْتَلَطَتْ. ^{٣٠} جَمْجَمَتْ «رُبَيْدَةُ» قَائِلَةً – فِي صَوْتِ خَافِتٍ – كَأَنَّمَا تُنْجِي نَفْسَهَا: «رَحْمَةُ اللهِ لَهَا، وَلُطْفُهُ بِهَا! أَطْنَعْنَا فَقَدَتْ رُشْدَهَا، وَأَسْلَمَهَا حُزْنُهَا عَلَى زَوْجِهَا إِلَى الْهُتْرِ^{٣١} وَالْخَرْفِ».

عَلَى أَثْرِ هَذِهِ الضَّجَّةِ، اسْتَيْقَظَ الصَّغِيرَيْنِ: «جَحْوَانُ» وَ«جُحَيَّةُ». شَارَكَا أَمْهُمَا وَجَارَتَهُمَا فِي بُكَائِهِمَا، عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ بِمَا يَحْزُنُهُمَا وَيُبَكِّهُمَا.

٢٩. قَلَّتْ شَدَّتْهُ.

٣٠. جُنَّتْ.

٣١. ذهاب العقل.

اسْتَأْنَفَتْ «رَبَابَةُ» حَدِيثَهَا بَاكِيَّةً. قَالَتْ: «لَكَ اللَّهُ، يَا أَبَا الْغُصْنِ». أَيُّ خَطْبٌ دَهَاكَ؟ أَيُّ مُصَابٌ أَلَّمْ يَكُنْ؟ هَلْ نَسِيَكَ «أَبُو شَعْشَعَ» أَمْ شَغَلَتْهُ الشَّوَّافِلُ عَنْ حِمَائِتَكَ؟»

(١٤) الْمُنْتَصَافِعُونَ

أَقْبَلَتِ الْبَيْغَاءُ «زُمْرُدَةُ» الْخَضْرَاءُ. اسْتَقَرَّتْ عَلَى طَرَفِ النَّافِذَةِ. كَانَتِ النَّافِذَةُ مَفْتُوحَةً. قَالَتِ الْبَيْغَاءُ: «كَلَّا؛ كَلَّا، لَا تَجْزَعِي، لَا تَنْأِسِي، يَا «أُمَّ جَحْوَانَ». عَلَيْكِ بِالصَّبْرِ. لَا فَائِدَةَ مِنَ الشَّكْوَى.



أَعِرِينِي سَمْعِكِ، يَا «رَبَابَةُ». انْتَهِي لِمَا أَقُولُ: سَيَطْرُقُ بَابَ دَارِكِ الْآنَ، فَاتَّكَانِ جَرِيَّانِ — مِنْ لُصُوصِ الصَّحْرَاءِ — هُمَا: «الرَّكَاكُ» وَ«الْوَكْوَالُ». سَيَطْلُبُانِ مِنِّكِ فِدْيَيَّةً. لَا تَخَافِي وَلَا تَجْزَعِي. النَّفْتِي إِلَى الْلَّصَّينِ قَائِلَةً: ارْقُصْ، يَا «رَكَاكُ»! ارْقُصْ، يَا «وَكْوَالُ»! ارْقُصَا وَتَدَافَعَا، اشْتِكَا مَعَا وَتَوَاقَعَا. ارْقُصَا، أَيْهَا الشَّقِيَّانِ. تَصَافَعَا أَيْهَا الشَّرِيرَانِ. لَا تَكْفَأَا عَنِ الْمُرَاقَصَةِ وَالْمُصَافَعَةِ لَحْظَةً وَاحِدَةً!»

لَا تَسْلُ عَنْ دَهْشَةِ «رَبَابَةَ» وَوَلَدِيهَا وَجَارِتَهَا حِينَ شَهَدُوا مِنْ «زُمْرَدَةَ» مَا شَهَدُوا.

بَعْدَ قَلِيلٍ لَمَحْتُ «رَبَابَةَ» رَجُلَيْنِ يَتَّجِهَا نَحْوَ بَابِ الْبَيْتِ؛ كَأَنَّ وَجْهَيْهِمَا وَجْهَهَا مَصْلُوبَيْنِ. رَأَتِ الْلَّصِينِ – الَّذِينَ تَحَدَّثَتْ عَنْهُمَا الْبَيْغَاءُ «زُمْرَدَةَ» – يَقْفَانِ أَمَامَ بَابِ الدَّارِ. تَحَقَّقَ لَهَا صِدْقُ مَا سَمِعَتْهُ مِنَ الْبَيْغَاءِ.

جَاءَ الشَّقِيقَيْنِ يَتَوَكَّانِ عَلَى هِرَاوَتَيْنِ.^{٢٢} دَنَوا مِنْ «رَبَابَةَ». حَتَّى ظَهَرَيْهِمَا. عَرَفَتْ «رَبَابَةَ» مِنَ الْقَادِيَانِ. لَمْ تَدْعُ لَهُمَا مَجَالًا لِلْكَلَامِ.

فَاجَأَتْهُمَا قَائِلَةً: «لَا مَرْحَبًا بِكُمَا وَلَا أَهْلًا. جِئْتُمَا دَارِي تَسْلَانِ أَنْ أَدْفَعَ فِدْيَةَ لِكُمَا أَفْتَدِي بِهَا زَوْجِي «أَبَا الْعُصْنِ»! أَلِيْسَ لِهَذَا جِئْتُمَا؟» دَهِشَ الْلَّصَانِ مِنْ هَوْلِ الْمُفَاجَأَةِ.

اسْتَأْنَفَتْ «رَبَابَةَ» قَائِلَةً: «أَلَا تُحِبَّانِ الرَّفْصَنِ، أَيُّهَا الشَّقِيقَيْنِ؟» زَمْجَرَ الْلَّصَانِ، جَرَحَتْ كِبِيرَيْهِمَا سُخْرِيَّةً «رَبَابَةَ» وَاسْتَهْرَأُهُمَا بِهِمَا. أَرَادَا أَنْ يَتَالَاهَا بِالْأَذْيَى. لَمْ تَدْعُ لَهُمَا الْفُرْصَةَ لِتَحْقِيقِ مَا يُرِيدَانِ. أَمْسَكَتْ «مَصْبَاحَ الْكَنْزِ» بِيَدِهَا قَائِلَةً: «اِرْقُصْ يَا «رَكَّاكُ» اِرْقُصْ يَا «وَكَوَالُ». اِرْقُصَا مَعًا، أَيُّهَا الشَّقِيقَيْنِ. تَصَافَعَا سَاعَةً مِنَ الزَّمَانِ. وَقَعَا – بَعْدَ ذِلْكُمَا – عَلَى أَكْتَافِكُمَا سَاعَةً أُخْرَى بِعَصَوْيِكُمَا، وَفَقَا لِحَرَكَاتِ رَقْصَتِيَّكُمَا!»

قَالَتِ الْبَيْغَاءُ «زُمْرَدَةَ» الْخَضْرَاءُ: «مَا بِالْكِ تَنْسِينَ بِقِيَّةَ الْعِصَابَةِ؟ لِمَاذَا حَرَمْتِهِمْ أَنْ يَرْقُصُوا كَمَا يَرْقُصُ الرَّمِيلَانِ، ثُمَّ يَتَصَافَعُوا كَمَا يَتَصَافَعَانِ؟» قَالَتْ «رَبَابَةَ»: «نَعَمْ مَا تَقْتَرِحِينِ! مَا أَعْدَلَ مَا تَطْلُبِينِ! نَعَمْ فَلَيَرْقُصْ جَمِيعُ لُصُوصِ الْصَّحْرَاءِ مَعَ هَذِينِ الصَّيْقَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ. يَتَصَافَعُوا سَاعَةً مِنَ الزَّمَانِ. لِيُوَقِّعُوا سَاعَةً أُخْرَى بِعِصَبِيَّهُمْ عَلَى أَكْتَافِهِمْ.»

مَا إِنْ أَتَمْتُ «رَبَابَةً» كَلَمَهَا حَتَّى هَبَّتْ رِيحُ عَاتِيَّةٍ عَاصِفَةٌ – مِنَ الصَّحْرَاءِ – عَلَى الْمَدِينَةِ، حَامِلَةً مَعَهَا لُصُوصَ «الْمَيْدَانِ»، كَمَا تَحْمِلُ الرِّيحُ أَوْرَاقَ الشَّجَرِ. اِنْهَمَّكُوا جَمِيعًا فِي الرَّقْصِ، بَعْدَ أَنْ أَلْقَتْ بِهِمُ الْعَاصِفَةُ الْهُوَجَاءُ أَمَامَ الدَّارِ.

(١٥) عَوْدَةُ «أَبِي الْغُصْنِ»

حَمَلَتِ الرِّيحُ «أَبَا الْغُصْنِ» فِي مَنْ حَمَلَتْهُ. وَضَعَتْهُ مُتَرَفَّقَةً إِلَى جِوارِ «رَبَابَةِ». اِبْهَجَتْ «رَبَابَةُ» لِمَقْدَمِ زَوْجَهَا. سَرَّى ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهَا مَا كَانَتْ تَحْمِلُهُ مِنْ هُمُومٍ وَأَحْرَانِ. رَحَّبَتْ بِزَوْجِهَا أَكْرَمَ تَرْحِيبِ.

قَالَتِ الْلُّصُوصِ، وَهِيَ مُمْسِكَةُ بِالْمِصْبَاحِ: «اِرْقُصُوا ... اِرْقُصُوا أَيُّهَا الْضِيُوفُ الْأَعْزَاءُ. وَاصْلُوا الرَّقْصَ – عَلَى رِمَالِ الصَّحْرَاءِ – إِلَى أَنْ تَمُوتُوا!» حَذَا الْلُّصُوصُ حَذْوَ رَعِيمَيْهِمْ: «الرَّكَاكِ» وَ«الْوَكْوَاكِ». ظَلُّوا يَرْقُصُونَ عَلَى نَغَمَاتِ مِرْمَارٍ وَعُودٍ وَالَّاتِ أُخْرَى، تَسْمَعُ الْأَذَانُ نَغْمَتَهَا، وَلَا تَسْتَطِيْعُ الْعُيُونُ رُؤْيَاهَا. تَوَلَّ لُصُوصُ «الْمَيْدَانِ» عَنْ بَيْتِ «أَبِي الْغُصْنِ». سَارُوا – فِي طَرِيقِهِمْ – إِلَى الصَّحْرَاءِ رَاقِصِينَ، مُتَدَافِعِينَ مُتَصَافِعِينَ.

قَالَتِ الْبَيْغَاءُ «رُمُرْدَةُ»: «بَلَغْتِ الْمَدِينَ، يَا «رَبَابَةُ»، وَفُزِّتِ بِكُلِّ مَا تَرْوِيمَنَ!» «رَبَابَةُ» صَحَّتْ مِنْ تَفْكِيرِهَا. حَلَّ بُكَاءُ الْفَرَحِ – بِنَجَاهَ زَوْجِهَا – مَحَلَّ بُكَاءِ الْحُزْنِ عَلَى تَعْرُضِهِ لِلْهَلَاكِ.

لَمْ يَكُنْ تَأْثِرُ «أَبِي الْغُصْنِ» وَاحْتِلَاطُ الدَّهْشَةِ وَالْفَرَحِ فِي نَفْسِهِ، بِأَقْلَلِ مِنْ دَهْشَةِ «رَبَابَةِ» وَفَرَحِهَا.

انْدَفَعَ الْوَلَدَانِ إِلَى أَبِيهِمَا. الْقَيَا بِنْفَسِيهِمَا بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ. كَانَ الْخُوفُ لَا يَزَالُ يُسْرِي فِي أَوْصَالِهِمَا وَعُرُوقِهِمَا، مِنْ هُولِ مَا رَأَيَا، وَغَرَابَةِ مَا سَمِعَا. حَمَلَتِ الْعَاصِفَةُ إِلَى الْبَيْتِ كُلَّ مَا اصْطَحَبَهُ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي رِحْلَتِهِ: عَادَتْ بِالْفَرَسِ وَالْجَمَلِ وَالْخَيْمَةِ جَمِيعًا. حَمَلَتِ الْعَاصِفَةُ – فِيمَا حَمَلَتْهُ – حَارِسَهُ الْأَمْيَنَ «أَبَا النَّجَاءِ». قَذَفَتْ بِهِ مِنْ النَّافِذَةِ. اصْطَدَمَ بِهَا رَأْسُهُ صَدْمَهُ يَسِيرَةً.

اسْتَقَرَ «أَبُو الْغُصْنِ» عَلَى أَرْضِ بَيْتِه ... أَمَّرَ يَدَهُ عَلَى جَبَنِه يَقْرُكُهُ، كَانَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَسْتَقِظَ مِنْ سُبَاتٍ^{٣٣} عَمِيقٍ. ضَمِنَ نَجَاتَهُ مِنْ لُصُوصِ «الْمَيْدَانِ».

اَفْتَرَ شَغْرُهُ^{٣٤} عَنْ بَسْمَةِ حَفِيفَةٍ، تَدَلُّ عَلَى مَا شَعَرَ بِهِ مِنْ اِرْتِيَاحٍ.

^{٣٣} نوم.

^{٣٤} تَبَسَّمٌ فِمَهِ.

الفصل الثامن

استئناف السفر

(١) خطة جديدة

ما كان أهدأها ليلاً، والطفة نسيماً! اطمأن بالأسرة بعد ما لقوه من عنااء. أما «أبو الغصن» فكان له شأن آخر، بعد أن انتهت رحلته بخيتة وإخفاق لا عهد له بـ«يُمثِّلُهُمَا».

أعد «أبو الغصن» خطة جديدة لرحلته، تبنيه ما لقيه من مزاجات. لم يزدْه إلا إصراراً على إنجاز ما قصد إليه من غرض نبيل، وتحقيق واجب إنساني جليل، على يد الحني: «ألي شعشع».

(٢) في صحبة المصباح

أدرك أن حرصه على ترك «مِصْبَاحِ الْكَنْزِ» في الدار لحماية أسرته، كان سبباً فيما استهدف له من أخطار. لم يجد بُداً - في هذه المرة - من الاستفادة بالمِصْبَاح، على بلوغ طلبته.

(٣) حديث «أبي النجاء»

قرر أن يصحب أسرته معه في رحلته إلى بلاد «الوقواق»، بعد أن ضمن قدرة المصباح على تيسير كل عقبة تتعارضُهم.

طَلَعَ الصَّبَاحُ، ذَهَبَ «أَبُو الْغُصْنِ» لِيَسْتَشِيرَ «أَبَا النَّجَاءِ» فِيمَا اعْتَزَمَهُ: وَجَدَهُ جَالِسًا فِي قِنَاءِ الدَّارِ يُقْشِرُ الْجَوْرَ لِلْبَيْغَاءِ الَّتِي كَانَتْ جَائِمَةً عَلَى كَيْفِهِ.

ابْنَدَرَهُ «أَبُو النَّجَاءِ» قَائِلًا: «مَا كَانَ أَشَقَّهَا سَفَرَةً، وَأَطْلَوْهَا رَحْلَةً!»

قَالَتِ الْبَيْغَاءُ «زُمُرْدَةً»: «كَانَتْ قَطْعَةً مِنَ الْعَذَابِ. لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ وَلَا ارْتِيَابٌ.»

قَالَ «أَبُو النَّجَاءِ»: «مَا أَبْعَدَ الشُّقَّةَ! مَا أَعْجَزَ الْجِمَالَ عَنْ قَطْعِ الْمَسَافَةِ الشَّاسِعَةِ!»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «أَتَعْنِي أَنَّ جَزِيرَةً «أَبِي شَعْشَعٍ» يَعِدَّهُ عَنَّا إِلَى هَذَا الْحَدِّ؟»

قَالَ «أَبُو النَّجَاءِ»: «لَا رَيْبٌ فِي ذَلِكَ.»

قَالَتِ الْبَيْغَاءُ: «إِنَّهَا فِي أَقْصَى مَكَانٍ مِنَ الْمَعْمُورَةِ.»

سَكَّتَ «أَبُو الْغُصْنِ» لَحْظَةً. أَطَالَ التَّفْكِيرَ فِيمَا هُوَ قَادِمٌ عَلَيْهِ مَعَ أَفْرَادِ أُسْرَتِهِ مِنْ مَتَاعِبٍ وَأَهْوَالٍ.

(٤) عِتَابُ الْمِصْبَاحِ

كَانَ الْمِصْبَاحُ فِي حَيْبٍ «أَبِي الْغُصْنِ». هَمَسَ الْمِصْبَاحُ فِي أَذْنِهِ فَجَأًةً. أَنْصَتْ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَى حَدِيثِ الْمِصْبَاحِ الْخَافِتِ. سَمِعَهُ يَقُولُ: «أَيْنَ مِنِّي أَنْتَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»؟ مَا بِالْكَ تُغْفِلُنِي، وَتُهْمِلُ مَشْوَرَتِي وَلَا تَسْتَعِينِنِي؟»

أَفَاقَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنْ تَفْكِيرِهِ الْعَمِيقِ. سَأَلَ الْمِصْبَاحَ: «كَيْفَ تَقُولُ؟ مَاذَا تَعْنِي؟»

أَجَابَهُ الْمِصْبَاحُ: «أَنْسِيَتْ أَنَّ أَيَّ مَكَانٍ – فِي الْعَالَمِ – قَرِيبٌ مِنِّي، مَهْمَا بَعْدَتْ شُقَّةٌ؟ أَنْسِيَتْ قُدْرَتِي عَلَى اجْتِيَازِ أَبْعَدِ الْمَسَافَاتِ فِي أَقْصَرِ الْلَّهَظَاتِ؟ أَنْسِيَتْ أَنَّنِي قَادِرٌ عَلَى إِضْطِلَاعِ بِحَمْلِ فَادِحِ الْأَنْقَالِ، فِي غَيْرِ كَلَّا وَلَا مَلَّا؟»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «شُكْرًا لَكَ، يَا عَزِيزِي، شُكْرًا. مَا أَقْدَرَكَ عَلَى إِنْجَازِ مَا تَقُولُ!»

(٥) حَدِيثُ «رَبَابَةَ»

أَسْرَعَ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَى «رَبَابَةَ» يُلْلُغُهَا حَدِيثَ الْبَيْغَاءِ وَالْمِصْبَاحِ، وَيَسْتَشِيرُهَا فِي الْأَمْرِ.

قَالَتْ «رَبَابَةُ»: «الرَّأْيُ مَا تَرَى. هَيْهَاتَ أَنْ أَخَالِفَ لَكَ نُصْحَا.»

لَكُنْ حَبْرِي، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»: هَلْ فَكَرْتَ فِيمَا يَتَعَرَّضُ لَهُ وَلَدَكَ مِنْ أَخْطَارِ الطَّرِيقِ؟ أَلَا تَخْشَى أَنْ يَلْقَوْا مِثْلَ مَا لَقِيَتِ فِي رِحْلَتِ الْمَاضِيَّةِ مِنْ أَهْوَالٍ، وَمَتَابِعَ ثَقَالٍ؟ أَلَمْ تَشْهُدْ: كَيْفَ صُدِمَ رَأْسُ تَابِعٍ فِي نِهَايَةِ الرُّحْلَةِ؛ فَكَادَ يَتَحَطَّمُ لَوْلَا عِنَايَةُ اللَّهِ؟!»
فَالْمِصْبَاحُ: «أَتَأْذِنَنِي لِي فِي أَنْ ...»

لَمْ تَصْبِرْ عَلَيْهِ «رَبَابَةُ» حَتَّى يُتَمَّ جُمْلَتَهُ. قَاطَعَتْهُ – عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ مِنْهَا – قَائِلَةً: «مِثْلُكَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِئْذَانٍ. إِنَّ الْبَيَانَ لِيَعْجِزُ عَنْ وَصْفِ مَا غَمَرْتَنَا بِهِ مِنْ صَنْيَعٍ. هَيْهَاتَ أَنْ نَنْسَى فَضْلَكَ وَمُعَاوِنَتَكَ مَدَى الْحَيَاةِ! لَكِنَّ طَرِيقَ السَّفَرِ – كَمَا تَعْلَمُ – وَمَشَقَّاتِهِ أَكْبُرُ مِمَّا نُطِيقُ، وَاجْتِيَارُ الْمَفَازِاتِ وَالصَّحَارَى الشَّاسِعَةِ مَطْلُبٌ بَعِيدُ التَّحْقِيقِ.»

سَكَتَ الْمِصْبَاحُ ...

الْفَقَتْ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَى «رَبَابَةَ» قَائِلًا: «كَانَ يُسْعِدُنِي أَلَا أُزْعِجَكِ بِهَذَا السَّفَرِ. لَوْلَا أَنَّ الْوَاجِبَ يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَيَحْمِلُنِي عَلَيْهِ، لَمَّا نَقَلْتُ قَدَمًا عَنْ قَدَمٍ.»

سَالَتْهُ «رَبَابَةُ»: «أَلَيْسَ إِنْ مِنَ الرَّحِيلِ بُدُّ؟»^١

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «بَلَّ. إِنَّهُ وَاجِبٌ حَتَّمْ أَدَاؤُهُ. لَا سَبِيلٌ إِلَى الْعُدُولِ عَنْهُ، عَلَى أَيِّ حَالٍ. عَلَيْنَا أَنْ نُهِيَّ مُعِدَّاتِ السَّفَرِ.»

(٦) حِدِيثُ الصَّغِيرِيْنِ

دَخَلَ «جَحَوَانُ» وَ«جُحَيَّةُ».

قَالَ أَوْلَهُمَا مُسَائِلًا: «أَيَّ مُعِدَّاتٍ تَعْنِي، يَا أَبَتَاهُ؟»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «مُعِدَّاتِ السَّفَرِ أَعْنِي، يَا جَحَوَانُ.»

قَالَتْ «جُحَيَّةُ»: «أَيَّ سَفَرٍ تَعْنِي، يَا أَبِي؟»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «أَعْنِي السَّفَرَ إِلَى بَلَدِ «الْوَقْوَاقِ»، لِزِيَارَةِ صَدِيقَنَا الْكَرِيمِ: أَبِي شَعْشَعٍ.»

١ مَفْرُ.

صَاحَ «جَحَّا»: «مَا أَشْوَقَنِي إِلَى السَّفَرِ، يَا أَبَتَاهُ! بِرَبِّكَ إِلَّا مَا صَحِبْتَنِي مَعَكَ فِي هَذِهِ الرُّحْلَةِ».

قَالَتْ «جُحَيَّةُ»: «جَزِيرَةُ «الْوَقْوَاقِ»؟ مَا أَطْرَفَ هَذَا الْاسْمَ! مَا أَجْمَلَ وَقْعَهُ، وَأَعْذَبَ حَرْسَهُ! مَا أَشْوَقَنِي إِلَى رُؤْيَا هَذِهِ الْبِلَادِ الَّتِي طَالَمَا حَدَّتْنَا عَنْهَا الْأَسَاطِيرُ!»
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «لِيَكُنْ لَكُمَا مَا تُرِيدَانِ، يَا وَلَدَيَّ. سَتَصْحَّبَانِي غَدًا — إِنْ شَاءَ اللَّهُ — إِلَى بِلَادِ الْوَقْوَاقِ».

قَالَ وَلَدَاهُ فَرْحَانَيْنِ: «يَا لَهَا مِنْ سَفْرَةِ مُمْتَعَةٍ شَائِقَةٍ! شُكْرًا لَكَ، يَا أَبَتَاهُ».

(٧) أَحَلَامُ الْبَهْجَةِ

«جُحَيَّةُ» وَ «جَحَّا» يَحْلِمَانِ بِبِلَادِ «الْوَقْوَاقِ». يَنْمَنِيَانِ لَوْ بَلَغَاهَا بَعْدَ لَحَظَاتٍ يَسِيرَةً. شَدَّ مَا امْتَلَأَ قَلْبَاهُمَا بِجَالِبَاتِ السُّرُورِ وَالْبَهْجَةِ.

رَأَى «جَحَّا» فِي مَنَامِهِ قُبَرَةَ تَطِيرُ مُحَلَّقَةَ فِي الْجَوِّ عَلَى مَقْرَبَةِ مِنْهُ. سَمِعَ الْقُبَرَةَ تُحَيِّيْهِ أَجْمَلَ تَحِيَّةً، وَتُخْبِرُهُ أَنَّهَا قَادِمَةُ عَلَيْهِ مِنْ بِلَادِ «الْوَقْوَاقِ» لِتَسْتَعِجِلَ سَفَرَهُ إِلَيْهَا، حَيْثُ يَنْعَمُ بِرُؤْيَا مَا تَحْوِيهِ مِنْ طَرَائِفَ لَا تَخْطُرُ عَلَى بَالِي. رَأَتْ «جُحَيَّةُ» فِي مَنَامِهَا شُحْرُورًا ظَرِيفًا يُغَرِّدُ — عَلَى مَقْرَبَةِ مِنْهَا — لَطَائِفَ مِنْ الْأَغَارِيدِ الرَّقَاقِ، تَشْوِقُهَا إِلَى رُؤْيَا بِلَادِ «الْوَقْوَاقِ».

(٨) غُصْفُوزَانِ

فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ، انْتَهَى الصَّغِيرَانِ مِنْ نُومِهِمَا. أَقْبَلَ كِلَاهُمَا يُحَدِّثُ صَاحِبَهُ بِمَا رَأَاهُ فِي الْمَنَامِ، مِنْ بَهِيجِ الْأَحْلَامِ.

انْتَهَى الصَّغِيرَانِ مِنْ حَدِيثِهِمَا ... لَاحَ لَهُمَا خُطَافَانِ رَشِيقَانِ، يُحَلَّقَانِ فِي الْفَضَاءِ. خُيَلَ إِلَيْهِمَا أَنَّهُمَا قَدِمَا لِتَحِيَّتِهِمَا مِنْ بِلَادِ «الْوَقْوَاقِ».

لَمْ يَنْمَالِكِ الصَّغِيرَانِ أَنْ صَاحَا مَدْهُوشِينِ: «هَا هُمَا ذَانِ عُصْفُورَانِ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ قَادِمَانِ. لَعَلَّهُمَا مِنْ بِلَادِ «الْوَقْوَاقِ» أَتَيَانِ».

سُرْعَانَ مَا دَبَّتِ الْحَيَاةُ وَالْحَرَكَةُ فِي كُلِّ أَنْحَاءِ الدَّارِ. اشْتَغَلَ الْجَمِيعُ بِتَحْمِيرِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ – فِي رِحْلَتِهِمُ الْوَشِيكَةِ – مِنْ مُعِدَّاتِ السَّفَرِ.

(٩) قُبْيَلُ السَّفَرِ

أَيُّهَا الْقَارِئُ الصَّغِيرُ: لَوْ أُتِيحَ لَكَ أَنْ تَرَى هَذَا الْمَشْهَدَ لَرَأَيْتَ عَجَبًا: «رَبَابَةُ» غَائِيَّةٌ رَأِيَّةٌ، تُرْتَبُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَثَاثِ الدَّارِ. تُعْطِيهِ فِي عِنَايَةٍ وَاهْتَمَامٍ. تَحْرِمُ الْأَشْيَاءَ التِّمِينَةَ تَتَفَقَّدُ الْمَحَازِنَ. تُعْطِي جَارَتَهَا مَقَاتِيحَ بَيْتَهَا، تَجْمَعُ خَدَمَ الدَّارِ. تَأْمُرُهُمْ بِإِطَاعَتِهَا وَتَنْهِيَّدُ إِشَارَتَهَا.

دَمَعَتْ عَيْنَا جَارَتَهَا «زُبَيْدَةَ».

تَجَلَّ نَشَاطُ «جَحْوَانَ» وَابْتِهاجُهُ فِيمَا بَدَا مِنْ سُرْعَتِهِ وَمَهَارَتِهِ وَتَتَابُعِ حَرَكَتِهِ، وَمَا ارْتَسَمَ عَلَى أَسَارِيرِهِ مِنْ دَلَائِلِ فَرْحَتِهِ.

كَانَ «أَبُو النَّبَاءِ» – كَمَا عَلِمْتُ – آيَةً فِي الطَّاعَةِ وَالصَّفَاءِ. لَمْ يَتَرَدَّدْ فِي إِنْجَازِ مَا يُؤْمِرُ بِهِ فِي غَيْرِ تَلْكُوْ وَلَا إِبْطَاءِ، وَلَا اعْتِرَاضِ وَلَا وَنَاءِ. كَانَ يُطِيعُ طَاعَةً عَمْيَاءً.

كَانَتْ «جُحَيَّةُ» تُقْبِلُ عَلَى دُمِيَّتِهَا فَرْحَانَةً بِهَا، تُهْبِيْ لَهَا مَتَاعَهَا وَسَرِيرَهَا.

(١٠) صِيَاحُ وَضَوْضَاءُ

اسْتَثَارَتِ الْجَلَبَةُ وَالضَّوْضَاءُ فُضُولَ «الْعُحْمُوسِ» وَ«الْخَوَارِ». بَعَثَتْ فِي قُلُبِيْهِمَا شَيْئًا مِنَ الْقَلْقِ. تَعَرَّتِ الْبَقَرَةُ. نَهَقَ الْحِمَارُ.

صَاحَتِ الْبَبَغَاءُ «زُمُرُدَةُ» تَزْجُرُهُمَا قَائِلَةً: «أَخْلِدَا إِلَى السُّكُونِ، أَيَّتُهَا الدَّابَّاتِانِ. مَاذَا أَرْعَجَكُمَا وَأَقْلَقَ بِالْكُمَا؟ كُفَا عَنِ الضَّوْضَاءِ وَالْجَلَبَةِ. صِهِ أَيُّهَا الْأَبْلَهَانِ الْأَخْرَقَانِ! مَهِ أَيُّهَا الطَّائِشَانِ الْحِمَقَانِ!»

^٢ خطوط جبينة.

(١١) الرَّحِيلُ

كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» - جِينِيَّتٌ - خَارِجَ الْبَيْتِ. كَانَ مَشْغُولًا بِإِعْدَادِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي رِحْلَتِهِ. عَادَ إِلَى الْبَيْتِ، وَعَلَى شَغْرِهِ ابْتِسَامَةُ الرَّضَا وَالِإِنْتِهَاجِ بِمَا رَأَى مِنْ حَيَاةٍ شَامِلَةٍ، تَدْبُّرٌ فِي أَنْحَاءِ الدَّارِ.

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ» لِزَوْجِهِ وَوَلَدِهِ: «لَا تَجْهَدُوا فِيمَا لَا جَدْوَى مِنْهُ وَلَا نُفْعَلُ فِيهِ. أَزْفَت٢ سَاعَةً السَّفَرِ. دَنَا وَقْتُ الرَّحِيلِ. لَنْ يَعُوزَنَا شَيْءٌ - فِي أَنْتَأِ رِحْلَتِنَا - إِنْ شَاءَ اللَّهُ3.

نَذَهَبَ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَى الْبَقَرَةِ الشَّقْرَاءِ وَالْحِمَارِ. فَكُلُّهُمَا مِنْ مَرْبَطِهِمَا. عَجِبَتْ «رَبَابَةُ» مِمَّا رَأَتْ. سَأَلَتْهُ فِي دَهْشَةٍ: «مَاذَا أَنْتَ صَانِعٌ بِهِمَا يَا «أَبَا الْغُصْنِ»؟ مَا أَطْلُنَكَ تَنْتَوِي أَنْ تَأْخُذَهُمَا مَعَكَ لِيَصْحَبَاكَ فِي رِحْلَتِكَ الْبَيْعِيَّةِ!» أَجَابَهَا «أَبُو الْغُصْنِ» بِاسْمِهِ: «لَا تَنْزَعِّي، يَا عَزِيزَتِي. لَا بُدُّ مِنْ اصْطِحَابِهِمَا - فِي رِحْلَتِنَا - طَالَتِ الرِّحْلَةُ أَمْ قُصْرَتْ. إِنَّ مَا يَحْتَمِلُ عَلَيْنَا الْوَاجِبُ لَا سَيِّلٌ إِلَى التَّخْلِي عَنْهُ وَالْتَّهَأْوِنُ فِيهِ.» اشْتَدَّ عَجَبُ «رَبَابَةَ» مِمَّا سَمِعَتْ. لَكِنَّهَا آتَرَتِ الصَّمْتَ، فَلَمْ تَنْطِقْ بِحَرْفٍ.

(١٢) قَافِلَةُ السَّفَرِ

هَمَسَ «جَحْوَانُ» فِي أَذْنِ أُخْتِهِ قَائِلًا: «شَدَّ مَا أَحْسَنَ الْوَالِدُ الْكَرِيمُ بِمَا صَنَعَ: هَيَّا لَنَا الْحِمَارَ لِنَرْكِبُهُ فِي رِحْلَتِنَا. لَمْ يَشَأْ أَنْ يُرْهِقَنَا^٥ بِالسَّيْرِ عَلَى أَقْدَامِنَا.» هَكَذَا ظَنَّ «جَحْوَانُ». لَهُ مَوْفُورُ الْعُذْرِ فِيمَا ظَنَّهُ!

^٣ قَرِبَتْ.

^٤ فَضَّلَتِ السُّكُوتِ.

^٥ يَكْفَنَا مَا لَا نُطِيقُ.

لَكِنَّهُمْ لَنْ يَسِيرُوا عَلَى الْأَقْدَامِ، كَمَا كَانَ يَظْنُ. أَعْدَ لَهُمُ الْمِصْبَاحُ الْعَجِيبُ كُلُّ مَا طَلَبَهُ مِنْهُ «أَبُو الْغُصْنِ». أَسَرَ^٦ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَى الْمِصْبَاحِ – مِنْ قَبْلٍ – بِكُلِّ مَا أَرَادَ.

لَمْ تَسْمَعْ رَوْجَتُهُ وَلَا أَوْلَادُهُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ.

أَيُّ مَنْظَرٌ وَقَعَتْ عَلَيْهِ أَنْظَارُهُمْ عِنْدَمَا فُتِحَ بَابُ الْبَيْتِ؟ جَمْهُرَةُ مِنَ الْحَيْلِ مُعَدَّةٌ لِلرُّكُوبِ. جَمْهُرَةُ ثَانِيَّةٍ مِنَ الْبَيْلَانِ وَالنَّيَاقِ وَالْجِمَالِ تَحْمِلُ الْخَيَامَ وَالْهَوَادِيجَ. جَمْهُرَةُ ثَالِثَةٌ مِنَ الْخَدَمِ تَتَبَعُهَا، يُزْعِمُ عَلَيْهِمْ شَيْخٌ رَائِعُ السَّمْتِ، أَيْضُ الْحَيَّةِ. هَكَذَا اجْتَمَعَ لِلْقَافِلَةِ كُلُّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مُعَدَّاتٍ لِسَفَرِهَا الطَّوِيلِ الشَّاقِ، إِلَى بِلَادِ «الْوَقَوَاقِ».

كَانَتْ صَيْحَاتُ «جَحْوَانَ» وَ«جُحَيَّةَ» تَنْتُمْ عَلَى فَرْطِ سُرُورِهِمَا وَإِعْجَابِهِمَا بِذَلِكَ السَّفَرِ الْمُفَاجِيِّ. ضَاعَفَ مِنْ سُرُورِهِمَا أَنَّهُمَا يُسَافِرَانِ فِي قَافِلَةٍ كَامِلَةٍ مُعَدَّاتٍ، لَا يَطْفَرُ بِمِثْلِهَا إِلَّا الْأُمْرَاءُ، وَكَبَارُ الْأَثْرِيَاءُ.

اَخْتَارَ «جَحْوَانُ» أَنْ يَرْكَبْ صَاحِبَهُ الْحِمَارَ. سَارَتِ الشَّفَرَاءُ بِجِوارِ الْحِمَارِ. رَكِبَتْ «جُحَيَّةَ» أَحَدَ الْهَوَادِيجَ. رَكِبَتْ «رَبَابَةَ» نَاقَةً بَيْضَاءَ. مَشَتْ إِلَى جَانِبِ ابْنَتِهَا. اَخْتَارَ «أَبُو الْغُصْنِ» لِرُكُوبِهِ حِصَانًا أَسْوَدَ مُطَهَّمًا،^٧ مِنْ كِرَامِ الْحَيْلِ، وَأَصَائِلِ الْجِيَادِ.

(١٣) الْوَدَاعُ الْأَخِيرُ

كَانَتْ «رُبَيْدَةُ» وَاقِفَةً عَلَى سُدَّةٍ^٨ الْبَابِ. وَدَعَتْهَا الْأُسْرَةُ الْوَدَاعُ الْأَخِيرُ. سَارَتِ الْقَافِلَةُ فِي طَرِيقِهَا، يَتَقَدَّمُهَا الرَّائِدُ: يُنِيرُ لَهَا الطَّرِيقَ. يَهْدِيهَا سَوَاءَ السَّبِيلِ.

النَّفَّاتُ «جَحْوَانُ» الْمَاكِرُ إِلَى حِمَارِهِ بَاسِمًا. قَالَ: «قَدْ يُسْعَدُ إِنْسَانٌ بِرَفَاقَةِ الْحِمَارِ أَحْيَانًا».

^٦ همس.

^٧ تامَ الحسن.

^٨ عتبة.

(١٤) بَيْنَ «رُمُرْدَةً» وَ«جَحْوَانَ»

قَالَتْ «رُمُرْدَةُ» لِ«جَحْوَانَ»: «صَدَقْتَ، يَا عَزِيزِي. وَقَدْ يُسْعَدُ الْحِمَارُ بِرَفَاقَةِ الْإِنْسَانِ، فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ!» طَارَتْ «رُمُرْدَةُ» هَبَطَتْ عَلَى الْهُوَدِجِ حَيْثُ حَلَّتْ «جُحَّةُ».

(١٥) فِي الطَّرِيقِ

خَرَجَتِ الْقَافِلَةُ مِنَ الْمَدِينَةِ. صَهَّلَ الْجَوَادُ الَّذِي يَمْنَطِيهُ حَادِي الْقَافِلَةِ. الصَّهِيلُ – كَمَا تَعْلَمُ – أَسْلُوبُ الْجَوَادِ الَّذِي أَلْفَهُ لِلتَّغْبِيرِ عَنْ حَاجَتِهِ إِلَى سَمَاعِ الْغِنَاءِ، كُلُّمَا اشْتَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَى الطَّرَبِ. لَعَلَّ الْجَوَادَ الْذَّكِيَّ أَرَادَ أَنْ يَتَمَّتَّعَ رِفَاقُهُ مِنْ الْجِمَالِ بِمَا وَهَبَ اللَّهُ رَائِدُهُ قَافِلَتِهِمْ مِنْ حَلَوَةِ الصَّوْتِ وَبَدِيعِ الْإِنْشَادِ، وَرَائِعِ الْغِنَاءِ؛ لِيُسْهِلَ عَلَيْهِمْ عَنَاءَ السَّفَرِ، وَيُنْسِيْهُمْ مَتَابِعَ الطَّرِيقِ. فَهُمَ الرَّائِدُ مَا يَعْنِيهِ الْجَوَادُ الصَّاهِلُ. أَسْرَعَ الرَّائِدُ إِلَى تَلْبِيَةِ رَجَائِهِ. أَصْلَحَ أُوتَارَ الْعُودِ: عَرَفَ عَلَيْهَا بَدَائِعَ مِنْ أَنْغَامِهِ وَأَغَارِيْدِهِ، وَفُنُونًا مِنْ أَرَاجِيزِهِ وَأَنَاشِيْدِهِ. خَتَّمَهَا بِالْأُرْجُوزَةِ التَّالِيَةِ:

أَكْرَمْ بِهِ مِنْ فَارِسِ شُجَاعٍ أَضْرَى مِنَ النُّورِ وَالسَّبَاعِ
لَكِنَّهُ مُهَذِّبُ الطَّبَاعِ قَدْ شَغَلَهُ أَكْرَمُ الْمَسَاعِي
وَفَتَنَتْهُ أَنْبِلُ الدَّوَاعِيِ!

(١٦) رَحْلَةُ بَهِيجَةُ

سَارَتِ الْقَافِلَةُ عَلَى تَوْقِيعِ أَنْغَامِ الرَّائِدِ الْعَذْبَةِ. سُرْعَانَ مَا أَنْسَاهَا رَائِعُ الْغِنَاءِ، مَا تُكَابِدُ فِي سَفَرِهَا مِنْ عَنَاءِ. كَانَتِ الرَّحْلَةُ – لِحُسْنِ الْحَظِّ – حَافَلَةً بِعُنُونٍ مِنَ الْبَهْجَةِ وَالْطَّرَافَةِ، رَآخِرَةً بِالْأَلْوَانِ مِنَ الْعِلْمِ وَالثَّقَافَةِ.

أيتها الصديق الصغير: ما أظنك في حاجة إلى مزيد في وصف هذه الرحالة الممتعة. أنت قادر على أن تتبع الرجالين بفكرك، وتسايرهم بخيالك؛ في عالمهم الفسيح، الحافل بأشتات البدائع المتجدة، وروائع المناظر المترفة.

(١٧) حب المعرفة

عمرت البهجة قلبي «جحوان» و«جحية». حبب إليهما أن يتابعا كل ما تقع عليه أعينهما من مناظر فاتنة مغيبة. لم يكفا عن سؤال أيهما عن كل ما استثار إعجابهما. مما غمض عنهم، ودق على فهمهما.

كان أبو الغصن يرحب بأسئلتهما، ولا يدخر وسعا في تحقيق رغباتهما، تشجيعا لهما على الاستزادة من المعرفة في تلك السن الباكرة، التي تخزن الذكرة فيها كل ما يمر بها من دروس الحياة وتجاربها، ومباهجها وممتعها، لتنتفع - في قابل أعوامها - بما حصلته في ماضي أيامها.

كانت «ربابه» مسؤولة بما يغمز قلبي صغيرها من بهجة وإثناين. كانت تهتز على ناقتها، غارقة في أحلامها السعيدة، قريرة العين بما تراه على ملامح ولديها من دلائل السرور، وأمامات المرح والحبور. كانت رحلتهم غاية في الحسنين والإمتاع، يكلوهُم ^{١٠} الله برعايته، ويطلّهم بحمائه. اختازت القافلة مسافات بعيدة شاسعة. كانت القافلة تقف - بين حين وحين - لتنفأ الظلل، وتلتمس الراحة من الكلال.

كان أول ما يشغل «جحوان» و«جحية» أن يعني كلهم بما يبيههما. كانت «جحية» تسرع - في نهاية كل مرحلة من مراحل السفر إلى بقرتها الشقراء، ومعها كومة من الحشائش الخضر. كان أخوها جحوان لا يقصّر في إحضار العلف للحمار.

١٠ يحفظهم.

(١٨) بَرَاعَةُ الْبَيْغَاءِ

كَانَتْ «رُمُرَدَّةُ» لَا تَكَادُ تُفَارِقُ الْقَافِلَةَ. كَانَتْ تَتَقَلَّ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَتَطِيرُ مِنْ هُوَدِجٍ إِلَى هُوَدِجٍ.

كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» شَدِيدُ الْإِعْجَابِ بِالْبَيْغَاءِ الْذِكِيرَةِ الْبَارِعَةِ. كَانَتْ لَا تُكُفُّ عَنْ مُدَاعِبِهِمْ وَتَسْلِيَتِهِمْ طُولَ رَحْلَتِهِمْ.

طَالَّمَا قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ» لِنَفْسِهِ: «لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْبَيْغَاءُ إِنْسَانًا، لَكَانَتْ مُهَدَّدَةً مَاهِرَةً، خَبِيرَةً بِطَبَائِعِ النُّفُوسِ.»

(١٩) مَفَازَةُ قَاحِلَةُ

ظَلَّتِ الْقَافِلَةُ تُواصِلُ سَيِّرَهَا. بَلَغَتِ الْقَافِلَةُ مَفَازَةً كَبِيرَةً. رَأَوْا فَضَاءً فَسِيحًا، وَأَفْقًا رَحِيبًا. شَهِدُوا أَرْضًا – عَلَى سَعْتِهَا – قَاحِلَةً، لَا مَاءَ فِيهَا وَلَا زَرْعَ، لَا سَاكِنَ فِيهَا وَلَا دِيَارَ،^{١١} لَا تَحْتَوِي إِلَّا صُخُورًا جَاسِيَّةً،^{١٢} وَرَمَالًا تَكَادُ تَلْتَهُ مِنَ الْقَيْظِ.^{١٣} عَوَاصِفٌ وَرَوَابِعٌ لَا تَكَادُ تَهُدَأُ. رِيَاحًا هُوَجًا تُثْبِرُ – بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ – تِلَالًا مِنَ الرُّمَالِ، تُخْيِلُ لِمَنْ يَرَاهَا أَنَّهَا أَمْوَاجٌ تَسَامِي إِلَى السَّحَابِ، يَجِيِّشُ بِهَا بَحْرٌ ثَائِرٌ صَحَابٌ.

كَانَتْ – فِي الْحَقِّ – مَفَازَةً هَائِلَةً. كُلُّ مَا فِيهَا مِنْ حَيَّوَانٍ يَلْهُثُ^{١٤} مِنْ فَرْطِ الْقَيْظِ! كَانَ الْأَمْلُ وَالشُّعُورُ بِالْوَاجِبِ يَعْمَرَانِ قَلْبَ «أَبِي الْغُصْنِ». كَانَا يُجَدِّدَانِ مِنْ قُوَّتِهِ، وَيُقَوِّيَانِ مِنْ عَزْمَتِهِ. كَانَ عَلَى يَقِينٍ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيغُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَأَنَّ التَّوَابَ عَلَى قَدْرِ الْمَشَقَّةِ.

١١ لَا أَحَد.

١٢ صَلْبَة.

١٣ شَدَّةُ الْحَرِّ.

١٤ يُخْرِجُ لِسَانَهُ تَعْبًا وَعَطْشًا.

مضت على القافلة ثلاثة أيامٍ في اليوم الرابع، سأله «أبو الغصن» دليل القافلة «أبا النجاء»: «أتراكنا دعونا^{١٥} من غايتنا في هذه الرحلة؟» تناول الدليل قبضةً من الرمل أمرَّ عليها أصابعه. تحسَّسَها بآنامله. أذنَاهَا إلى أنفه يسُوفُها.^{١٦} ابتسَم لـ«أبي الغصن» قائلاً: «أصْبَحْنا على مسيرة يومين من الواحة المسحورة؛ حيثَ ينْقُلُنا «أبو السمعم»، إلى بلاد «الوقاقي» في لحظاتٍ قليلة». بعد يومين ظهرَ لهم في الأفق خطٌّ أخضر، بين الرمل الأصفر والسماء الزرقاء. دلَّ القافلة على مكانِ الفندق المعد لإقامتها.

(٢٠) الواحة المسحورة

كانت الواحة التي انتهت إليها رحلة «أبي الغصن» من أجمل ما رأه من الواحات في حياته، على كثرة أسفاره ورحلاته. لا تنس أن الواحات في الصحراء كالجزائر في البحر، تختلف مساحاتها ومواقعها سعةً وجمالاً.

ابتهجت القافلة الجحوية بالواحة الخصبة الجديدة، حيثَ صرَبوا خيامهم، وأراحوا بعراهم،^{١٧} وجلسوا يستريحون من عناء السفر، ويتقينون ظلالها الوريفة.^{١٨}

(٢١) طيور البحيرة

كان «جحوان» و«جحية» أكثر أفراد القافلة فرحاً، وأشدُّهم مرحًا. اختار «أبو الغصن» لقافلته مكاناً يديعاً على صفة بحيرة صغيرة عذبة، فضية الأمواه،^{١٩} عامرةً بآلاف من

^{١٥} قربنا.

^{١٦} يشمنها.

^{١٧} جمالهم.

^{١٨} الواسعة الممتدة.

^{١٩} المياه.

أَسْرَابٌ ٢٠ الطُّيُورُ الَّتِي تَوْمِهَا^{٢١} مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، لِتَغْتَسِلَ فِي مِيَاهِهَا. مِنْهَا مَا يَرُوقُ الْعَيْنَ بِمَا مَيَّزَهُ اللَّهُ مِنْ جَمِيلِ الرِّيشِ وَبَدِيعِ الشَّكْلِ؛ وَمِنْهَا مَا يُمْتَنِعُ السَّمْعُ بِمَا وَهَبَهُ اللَّهُ مِنْ حُلُو التَّغْرِيرِ، بِعَذْبِ الْأَلْحَانِ وَرَائِعِ الْأَنَاسِيَّةِ؛ وَمِنْهَا مَا يَصْلُحُ طَعَامًا سَائِغاً شَهِيًّا، بَعْدَ أَنْ يُشَوِّى عَلَى السَّقْفَوْد.^{٢٢}

الْقَى الْمِصْبَاحُ شَبَكَةً فِي الْبَحْرِيَّةِ. عَادَ بِهَا رَاهِرًا بِجَمْهُرَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ أَسْرَابِ الْبَطِّ وَطُلُوِّرِ الْمَاءِ وَالْبَرِّ، وَدَوَابُّ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا وَقَدَ عَلَيْهَا — مِنَ الْأَدْعَالِ وَالْأَحْرَاجِ — مِنْ صِغَارِ الدَّوَاجِنِ وَكِبَارِهَا، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الطُّيُورِ. كَانَ — فِي الْحَقِّ — صَيْدًا عَظِيمًا! كَانَتْ مُفَاجَأَةً مُسْتَمْلَحَةً!

جِسْمُ الْجَرَادَةِ (٢٢)

عِجَبٌ «جَحْوَانُ» حِينَ رَأَى الْجَرَادَةَ أَوَّلَ مَا رَأَاهَا.

قَالَ لِأَخْتِهِ «جُحَيَّة»: «تَأَمَّلِي هَذِهِ الْجَرَادَةَ الْعَجِيَّةَ، يَا أَخْتَاهُ.»

قَالَتْ «جُحَيَّة»: «مَا أَعْجَبَ تَرْكِيبَ جِسْمِهَا، يَا أَخِي! تُرَى أَيُّ طَائِرٍ هِيَ، يَا «جَحْوَانُ»؟ تَبَارَكَ اللَّهُ. مَا أَعْجَبَ حَلْقَهَا، وَأَدَقَ تَرْكِيبَهَا: رَأْسٌ جَوَادٍ. عَيْنَانِ فِيلٍ. رَقَبَةٌ عِجْلٌ!»

قَالَ «جَحْوَانُ»: «قَدَمَا نَعَامَةٍ. بَطْنٌ عَقْرَبٌ. ظَهْرٌ ثُعَبَانٌ. تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ!»

اشْتَدَّ بِهِمَا الْعَجَبُ حِينَ رَأَيَا «أَبَا النَّجَاءِ» يَسْتَطِيبُ لَحْمَ الْجَرَادِ وَيَسْتَمْرِئُهُ.

انْدَفَعَا يَتَسَاءَلَانِ: «كَيْفَ يَسْتَسِيغُهُ طَعَامًا وَيَلْتَهُمُهُ الْتِهَامًا؟»

٢٠ جماعات.

٢١ تقصدتها.

٢٢ حديدة يُشوى بها اللحم.

٢٣ حسان.

دَهَبَ الصَّغِيرَانِ إِلَى الْمَاءِ النَّمِيرِ^{٢٤} الصَّافِي. شَرِبَا مِنْهُ حَتَّى ارْتَوْيَا. انْدَفَعَا بَيْنَ الْأَشْجَارِ الْوَارِقَةِ الظَّلَلِ، يَلْهُوَانِ بِقَطْفِ أَنْمَارِهَا الشَّهِيَّةِ، وَأَزْهَارِهَا الْبَهِيَّةِ، وَعُطُورِهَا الشَّذِيَّةِ.

(٢٣) قَلْقٌ وَنَدْمٌ

ابْتَهَجَ كُلُّ مَنْ فِي الْقَافِلَةِ، مَا عَدَا «أَبَا الْغُصْنِ». كَانَ يَشْغُلُهُ التَّقْكِيرُ فِي إِنْقَادِ الدَّابَّاتِ التَّأْعَسَتَيْنِ مِمَّا حَلَّ بِهِمَا مِنْ بَلَاءٍ. كَانَ شُعُورُهُ بِمَا يَقْتَضِيهِ وَاجْبُهُ الْإِنْسَانِيُّ النَّبِيُّ يَمْلأُ قَلْبَهُ الرَّحِيمَ.

كَانَ يُنْسِيهِ مَا عَدَاهُ. كَانَ يَتَمَنَّى لَوْ بَلَغَ بِلَادَ «الْوَقْوَاقِ» بَعْدَ لَحَظَاتٍ، حَيْثُ يَلْقَى «أَبَا شَعْشَعٍ» – فِي عَاصِمَتِهَا: «عَبْقَرٍ» – فَيُعِيدُ لِلَّدَابَّاتِنِ سِيرَتَهُمَا الْأُولَى.

(٢٤) رِسَالَةٌ كَرِيمَةٌ

كَانَتِ الْبَيْعَاءُ مُسْتَحْفِيَّةٌ مُنْدُ وَصَلَتِ الْقَافِلَةُ إِلَى تِلْكَ الْأَنْحَاءِ. الْأَنَّ عَادَتِ الْبَيْعَاءُ إِلَيْهِمْ، وَسَلَّمَتْ عَلَيْهِمْ. اسْتَقَرَّتِ الْبَيْعَاءُ عَلَى كَتْفِ «أَبِي الْغُصْنِ». قَدَمَتْ لَهُ بِطْرَفِ مِنْقَارِهَا رِسَالَةً مِنْ أُورَاقِ الْذَّهَبِ، مُحَلَّةً بِالْيَاقُوتِ وَالْمَاسِ.

فَضَّ «أَبُو الْغُصْنِ» غِلَافَ الرِّسَالَةِ. قَرَا فِيهَا الْكَلِمَاتِ الْأَتْيَةَ:

شَاءَ اللَّهُ – سُبْحَانَهُ – أَنْ أَذْهَبَ مَعَ نَفْرٍ^{٢٥} مِنْ إِحْوَانِي رُعَمَاءِ «عَبْقَرِ» إِلَى بَلَدٍ^{٢٦} فِي مَكَانٍ قَحِيٍّ مِنَ الْعَالَمِ؛ لِنُخَلِّصَ أَحَدَ الْبَرَاءَاءِ، مِنْ تُهْمَةٍ هُوَ مِنْهَا بَرَاءُ. أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ الْجِنِّيَ «أَبَا السَّمْعَمْعِ» الَّذِي لَقِيَتِهِ فِي الْكَهْفِ: كَانَ يَحْمِلُ – عَلَى كَيْفِهِ – الْحَيَّةَ الَّتِي أَلْقَتُ إِلَيْكَ بِ«مِصْبَاحِ الْكَكْزِ».

هَا أَنَا ذَا أَرْسَلْتُهُ إِلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى؛ لِيُنْقُلَكَ إِلَى قَصْرِ «الْوَقْوَاقِ»؛ حَيْثُ تَجِدُ مِئَاتٍ مِنْ أَنْبَاعِي يَتَفَالَوْنَ فِي طَاعِتَكَ، وَلَا يَتَوَانَّونَ عَنْ تَلْبِيَةِ إِشَارَتِكَ.

^{٢٤} الناجع السائغ الهنفي.

^{٢٥} جماعة.

^{٢٦} بعيد.

أَعْقَيْتُكَ — مُنْدُ الْيَوْمِ — مِنْ كِتْمَانِ السُّرِّ الَّذِي عَاهَدْتَنِي عَلَى كِتْمَانِهِ مِنْ قَبْلُ. يَسْرُّنِي أَنْكَ وَفَيْتَ بِوَعِدِكَ، وَبَرَزْتَ بِعِهْدِكَ؛ فَلَمْ تُطْلِعْ أَحَدًا عَلَى السُّرِّ. أَنَّ لَكَ أَنْ تُفْضِي بِهِ إِلَى مَنْ تَشَاءُ مِنْ أَهْلِكَ؛ لِيَتَعَرَّفُوا مَا مَيَّزَكَ اللَّهُ بِهِ مِنْ صَفَاءٍ وَمَحَبَّةٍ لِلْخَيْرِ، وَيُطَالِعُوا — فِي قَصْتِكَ — مِثَالًا كَرِيمًا لِلْمُرْوَةِ وَالصَّفْحِ، وَمُقَابِلَةِ الْإِسَاءَةِ بِالْإِحْسَانِ. سَأَلَفَاكَ بَعْدَ أَيَّامٍ. حَفِظَكَ اللَّهُ وَرَعَاكَ، وَأَدَمَكَ وَأَبْقَاكَ، لِصَدِيقِكَ الَّذِي لَا يَنْسَاكَ.»

لَعْلَمْ بِنْ دَعْدِعٍ

قَالَ أَبُو الْغُصْنِ: «شُكْرًا لِلْوَفِيِّ الْكَرِيمِ: أَمِيرِ الْجِنِّ «أَبِي شَعْشَعٍ». فَلَيْكُنْ لَهُ مَا يُرِيدُ.»

(٢٥) فِي قَصْرِ «عَبْقَرِ»

سُرْعَانَ مَا نَقَلُهُمْ «أَبُو السَّمَعَمْعَ» إِلَى جَزِيرَةِ الْغَرَائِبِ، وَمَوْطِنِ الْعَجَائِبِ: جَزِيرَةِ «عَبْقَرِ»: عَاصِمَةِ بِلَادِ «الْوَقْوَاقِ». حَانَتِ مِنْ «أَبِي الْغُصْنِ» التِّفَاتَةُ. رَأَى «رَبَابَةَ» عَلَى مَقْرَبَةِ مِنْهُ. كِلَّهُمَا مَدْهُوشٌ مِنَ النُّقْلَةِ الْمُفَاجِيَةِ الَّتِي لَمْ تَسْتَغْرِقْ سِوَى لَحَظَاتٍ. مَا أَعْجَبَ مَا يَرَيَانِ: أَنْقَاضًا مُتَرَاكِمَةً مِنْ حِجَارَةِ مُبْعَثَرَةٍ، تَجَمَّعَ فِي مِثْلِ سُرْعَةِ الْبَرْقِ، فَإِذَا هِيَ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ، ٢٧ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ بِمِدَادٍ مِنْ ذَوْبِ النُّصَارِ: ٢٨ قَصْرُ «الْوَقْوَاقِ». اسْتَقَرَّتْ «زُمُرُدَةُ» عَلَى كَتْفِ «أَبِي الْغُصْنِ». قَالَتْ: «مَرْحَبًا بِكُمْ، يَا رَفَاقُ طَائِفَةٍ تَنْتَظِرُكُمْ مِنْ عَجَائِبِ «عَبْقَرِ»: عَاصِمَةِ «الْوَقْوَاقِ»: غَدِيرُ سَيَّارٌ، يَسِّاسُ بَيْنَ الْوُرُودِ وَالْأَزْهَارِ، وَيَخْلُلُ الْحَمَائِلَ وَالْأَشْجَارَ. عَلَى مَقْرَبَةِ مِنَ الْغَدِيرِ زَرِيبَةٌ فَارِخَةٌ أُعِدَّتْ لِلْفَرَّةِ وَالْحِمَارِ.»

٢٧. أَمْلَس.

٢٨. مَاءُ الْذَّهَبِ.

جلس «أبو الغصن» وزوجته ولداه في رواق فاخر، على أرائك ذهبية، ملأة بأنفس الآلئ واليواقين.

(٢٦) على المائدة

حان موعد الطعام. شعروا بالجوع. أقبل عليهم خادم يرتدي ثياباً حريرية مفضضة، يدعوهم إلى مائدة حافلة بأشهى الوان الطعام. جلسوا يأكلون ويستمعون إلى روائع من موسيقى «عصر»، ويصتون إلى أغاريد بارعة الألحان، وأناشيد رائعة الأغمام، تسمعوا آذانهم، ولا تراها أعينهم. رأوا سقف الحجرة يضيء جبابتها وأرجاءها، بما يرسله عليها من أشعة رقيقة، أبهى من أشعة الشمس، وأسني من أضواء القمر.

(٢٧) أواح السيامي

رأوا على الحائط لوحين بلورين شفافين، يرسم في أحدهما صورة الأكلين، وما تحويه المائدة، ويرسم في الآخر وجارات مكتوبة بأحرف منورة، تعرف الطاعمين^{٢٩} خصائص ما يأكلون، وما يحتويه كل لون من الوان طعامهم من عناصر التغذية، ومقدار ما يحتاج إليه الجسم منها، وما يجره النهم والإفراط في تناوله، من عسر الهضم، واحتلال الصحة.

سمعوا صوتاً موسيقياً عذب النبرات، بارع النغمات، يتلو عليهم تلك الوجارات المكتوبة. تم لهم بذلك: بهجة الفم بذلك ما يأكل. نسمة العين ببدائع ما تقرأ. سرور الأدن يلطاف ما تسمع، حماية المعدة من الاندفاع في التهام الطعام. تعلم الصغار - مما قرأه وسمعاه - أسرار التحمة. عرفوا كيف يجني الإفراط في الطعام على ذوي النهم والشره، فيمرضهم ويسلّمهم إلى الضعف والهزال.

^{٢٩} الأكلين.

انْتَهَا مِنَ الطَّعَامِ. جَلَّسُوا يَشْهُدُونَ بَدَائِعَ مِنَ الْقِصَصِ، مُصَوَّرَةً وَقَائِعَهَا أَمَامَهُمْ فِي مِثْلِ الْوَاحِ «السَّيْمَى» الَّتِي نَشَهَدُهَا — فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ — بَيْنَ فَاجِعَةٍ وَمَأْسَاءٍ. وَضَاحِكَةٌ وَمَلْهَأٌ، وَهَارِجَةٌ وَمَسْلَأَةٌ.

تَعَاقَبَتِ الْوَاحِ أُخْرُ، تُرِيَّهُمْ فُنُونًا مِمَّا تَفَيَّضَ بِهِ بَلَادُ «الْوَقْوَاقِ»، وَحَاضَرَتُهَا «عَقْرُ» مِنْ آيَاتِ بَاهِرَاتٍ، وَمَشَاهِدٍ فَاتَّنَاتٍ.

كَانَتْ «زُمُرُدَةُ» دَائِبَةً عَلَى تَرْجِمَةِ مَا يَسْتَدِقُ مِنْ غَامِضِ مَعَانِيهَا، وَشَرْحٍ مَا يَسْتَشِرُ^{٣٠} مِنْ بَارِعِ مَضَامِينَهَا وَمَغَازِيهَا.

(٢٨) الْمِخْدَعُ الْمَاسِيُّ

انْقَلَّتِ الْأُسْرَةُ — بَعْدَ قَلِيلٍ — إِلَى مِخْدَعٍ^{٣١} صَغِيرٍ مَنْحُوتٍ مِنْ حَجَرٍ كَبِيرٍ مَاسِيٍّ، عَرْضُهُ عَشْرُ أَقْدَامٍ، وَطُولُهُ سِتَّ عَشَرَةَ قَدَمًا، تَبَعَّثُ الْأَضْوَاءُ فِيهِ مِنْ أَعْمَاقِهِ وَأَعْالَيْهِ عَلَى جُدُرِهِ وَحِيطَانِهِ!

قُدِّمَتْ لَهُمُ الْقِرْفَةُ وَالرَّنْجِيلُ فِي أَكْوَابٍ مِنَ الْلَّالِي الْمَيْنَةِ، لَا عَهْدٌ لِأَحَدٍ بِرُؤْيَاةِ أَمْتَالِهَا!

قُدِّمَتِ الْأَكْوَابُ الْلُّؤْلِؤِيَّةُ عَلَى أَطْبَاقٍ مَصْوَغَةٍ مِنْ نَفَائِسِ الْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ!

(٢٩) عَاقِبَةُ الْكَذِبِ

أَمْسَكَ «جَحَوَانُ» بِأَحَدِ الْأَكْوَابِ يَتَأَمَّلُ بَدِيعَ صُنْعِهِ. سَقَطَ الْكُوبُ مِنْ يَدِهِ وَتَحَطَّمَ. انْتَهَرَهُ أَبُوهُ لَاهْمَالِهِ.

قَالَ «جَحَوَانُ»: «أَنَا لَمْ أَكْسِرِ الْكُوبَ، يَا أَبِي». مَا إِنْ أَتَمَ «جَحَوَانُ» كِذْبَتَهُ، حَتَّى ظَهَرَ — أَمَامَهُمْ، عَلَى لَوْحِ «السَّيْمَى» — فِي صُورَةٍ قِرْدٍ صَغِيرٍ! كَانَ وَجْهُهُ فِي مِثْلِ لَوْحِ الْأَبْنُوسِ.

^{٣٠} يَسْتَخْفِي.

^{٣١} حَجَرَةٌ صَغِيرَةٌ.

ابندرته «زمردة» قائلة: «أرأيت — يا «جحوان» — عاقبة الكذب؟ ما أجدر الكذاب
أن يمسخ قرداً!!
تفزع «جحوان» مما رأى. صرخ قائلاً: «قبح الكذب والكذاب! لم يكسر الكوب إلا
أنا. لم يكسره أحد سواعي».

ما إن أتم «جحوان» قوله، حتى عادت صورته على لوح «السيمي» إلى أبهى مما كانت عليه.

خفت «جحية» مما رأت. طمأنتها «ربابة» قائلة: «لا تراغي^{٢٢} يا عزيزتي. لا خطأ
عليك من البقاء في هذه الديار. أنت لا تكذبين أبداً».

قال «أبو الغصن»: «حان الوقت الذي أكاشفكم فيه بما حفزني إلى القيام بهذه الرحالة.
القوا إليّ بأسماء عكم».

أقبلت «ربابة» وولاتها ينصلتون إليها. قرأ عليهم «أبو الغصن» كتاب أمير الجن،
شفعة بقصة الدابتين. كانت أعجب قصة سمعوها، في أغرب بلاد شهدوها.
ما إن أتم قصته حتى صاحت الببغاء قائلة: «صدقت — يا «أبا الغصن» — في كل
ما حكت».

تحير الجميع مما رأوا وسمعوا.

(٣٠) أسف واعتذار

صاح «جحوان» قائلاً: «ما أشوقني إلى لقاء الحمار!»
سأله «أبو الغصن»: «لماذا، يا جحوان!»

قال: «أريد أن التمس منه الصفح عما بدر مني. أنا قصرت في أداء واجبي نحوه
مرتدين. في المرة الأولى: تأخرت في تقديم العاف في موعده. في الثانية: لم أقدم له ماء
صافيا نقيا. شد ما يحرثني ما أسلفت إليه من إساءة».

^{٢٢} لا تخافي.

سَالَةُ «أَبُو الْغُصْنِ»: «أَيُّ إِسَاءَةٍ أَسْلَفْتَهَا. يَا جَحْوَانُ؟»

قَالَ: «كَانَ يَحْلُو لِي - بَيْنَ حِينَ وَآخَرَ - أَنْ أَدَاءِبَهُ بِطَرَفِ الْعَصَا. كُنْتُ أُوهِمُهُ أَنَّنِي سَأَضْرِبُهُ بِهَا.

شَدَّ مَا يُؤْسِفُنِي أَنْ أَسَأُ إِلَيْ صَدِيقِي الْحِمَارِ. لَنْ يَهْدَا لِي بِالْأُولَى وَلَنْ يَقْرَأَ لِي قَرْآنَ، قَبْلَ أَنْ أَتَوْجَهَ إِلَيْهِ بِصَادِقِ النَّدِمِ وَالْاعْتِدَارِ!»

قَالَتْ «جُحَيْةُ» مُتَالِمَةً: «مَا أَجْدَرْنِي أَنْ أَعْتَدَرَ إِلَيْ صَدِيقِي الْبَقَرَةِ. كُنْتُ أَسْخَرُ مِنْهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ. كُنْتُ أَلْقَبُهَا بِالْبَقَرَةِ الْعَجُوزِ.»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «الْأَنَّ تَأْسَفَانِ عَلَى مَا أَسْلَفْتُمَا مِنْ إِسَاءَةٍ إِلَى الْحَيَّانِ، بَعْدَ أَنْ عَرَفْتُمَا أَنَّهُ إِنْسَانٌ؟! كَانَ أَكْرَمَ لِكُمَا وَأَخْلَقَ بِكُمَا أَلَا تَقْصُرَا عَطْفَكُمَا عَلَى الْإِنْسَانِ دُونَ الْحَيَّانِ.»

تَحَمَّرَ الصَّغِيرَانِ لَمْ يَدْرِيَا: كَيْفَ يُجِيبَا، وَبِأَيِّ حُجَّةٍ يُعْتَدِرَا! رَأَتْ «رَبَابَةُ» حِيرَتَهُمَا وَاضْطَرَابَهُمَا. قَالَتْ «رَبَابَةُ» لَهُمَا: «لَا رَيْبٌ - يَا عَزِيزَيْ - أَنَّ عَلَيْنَا لِلْحَيَّانِ دِيْنًا عَظِيمًا. لَا تَنْسِيَا أَنَّهُ يَخْدُمُنَا وَيَنْفَعُنَا، وَأَنَّهُ عَاجِزٌ عَنِ الشُّكُورِ، عَجْزُهُ عَنِ الدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ!»

(٣١) عَهْدُ وَمِيَاثِقُ

قَالَ «جَحْوَانُ»: «عَلَيَّ عَهْدٌ - مُنْدُهْذِ السَّاعَةِ - وَمِيَاثِقٌ: أَلَا أُسِيءَ إِلَى حِمَارٍ أَصَادِفُهُ - بَعْدَ الْيَوْمِ - وَلَا أَهُمْ بِضَرِبِهِ إِذَا رَكِبْتُهُ.»

كَانَ «جَحْوَانُ» - وَهُوَ يَنْطَقُ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ - يَقْتَرُبُ شَيْئًا فَشَيْئًا مِنَ الْبَابِ، وَخَلْفَهُ «جُحَيْةُ». وَلَمْ يَرَهَا.

انْدَفَعَ كِلَاهُمَا إِلَى الْخَارِجِ، تَحْدُو هُمَا رَغْبَةً وَاحِدَةً، وَيَحْفَرُهُمَا هَدَفُ وَاحِدٍ، هُوَ الْاعْتِدَارُ إِلَى صَاحِبِيهِمَا.

أَقْبَلَ «جَحْوَانُ» عَلَى حِمَارِهِ يُقْبِلُ رَأْسَهُ.

انْدَفَعَتْ «جُحَيْةُ» تُحَيِّي بَقَرَتَهَا، وَتُقْبِلُ رَكِبَتَهَا.

قال «جحوان» لحماره، وهو يعاونه: «عذراً وصفحاً، أيها الصديق العزيز. ها أنا ذا أحمل إليك بشرى خلاصك من محنتك، وقرب عودتك إلى آدميتك». أقبلت «جحية» على البقرة تلطفها قائلة: «ها أنا ذا جئت أحمل إلى بقرتي العزيزة بشرى سعادتها، وقرب استرداد آدميتها».

٣٢) دموع الفرح

نظرت الدابتان إلى الصغيرين مدهوشتين، ترقو الدمع في أعينهما حين رأتا «جحوان» و«جحية» يبذلان جهديهما في ملاطفتهما والتودد إليهما. كان «أبو الغصن» و«ربابه» يتابعان ولديهما معجبين بما يفيض به قلباهما من عطف ومحبة.

٣٣) فنون من الغرائب

لبت الأسرة أياماً تتنقل بين بلاد «الوقواق» وحاضرتها: «عقبر». كانت ترى في كل يوم طرائف لا تُحصى، وغرائب لا تستقصى. عن يت البقاء، وصاحبها «أبو النجاء»، يتربح عجائب ما يشهدون: فوارات يقذفها ماؤها — في كل فوهه منها — باللهب والثلج معاً. نارها لا تحرق من يمسها. جلدها لا يؤذى من يلمسه. كواكب صغيرة تدور في سقوف الحجرات، كما تدور السيارات^{٣٣} في السموات. يركبها الصغار — متى شاء — كما يركبان الأزاج، ويستمغان إلى أغاني الطيور وأناشيد الريح.

لا تسل عن دهشتها حين رأيا كل شيء يتكلم في جزيرة «عقبر» من جماد ونبات وحيوان. لا تسل عن إعجابهما بما سمعاه من أحاديث الفواكه والثمار، وقصص الورود والأزهار، وغناء الجداول والأنهار!

كَانَ مِنْ أَعْجَبِ مَا رَأَيَاهُ: عَنْ «الْوَقْوَاقِ»، حَيَاهُمَا بِأَغَارِيَدِهِ الرِّفَاقِ. رَدَدَ النَّسِيمُ
أَنَّا شِيدَهُ، وَشَدُّوْهُ وَتَغْرِيَهُ.

(٣٤) فُنُونٌ مِنَ الرِّيَاضَةِ

حُبِّ إِلَيْهِمَا مِنْ فُنُونِ الرِّيَاضَةِ وَالْتَّسْلِيَةِ: رُكُوبُ الْبَجَعِ. مُسَابَقَةُ الْحَلَزُونِ. مُتَابَعَةُ الطَّيْرِ
فِي طَيَّارَنِهِ. الْإِسْتِمَاعُ إِلَى أَنْفَامِ الرَّوْضِ وَالْحَانِهِ. كَانَ مِنْ أَحَبِّ الْأَمَانِيِّ إِلَى قَلْبِيهِمَا أَنْ
تَمَنَّدَ إِقَامَتُهُمَا، وَيَطْلُوَ بَقَاوِهِمَا فِي جَزِيرَةِ «عَبْقَرِ»: عَاصِمَةِ «الْوَقْوَاقِ»، لِمَا تَحْوِيهِ مِنْ
مَبَاهِجٍ وَمَسَرَّاتٍ.

كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» وَ«رَبَابَةُ» عَلَى الْعَكْسِ مِنْ وَلَدِيهِمَا. لَمْ تَشْغُلْهُمَا لِدَائِنِهِمَا
يُحِيطُ بِهِمَا عَنِ التَّفَكِيرِ فِي إِنْجَازِ مُهْمِهِمَا، وَأَدَاءِ وَاجِبِهِمَا. كَانَا يَتَعَجَّلَانِ الْأَيَّامَ؛ لِيُخَلِّصَا
«الْعُكْمُوسَ» وَ«الْخَوَارَ» مِنْ مُخْتَنِيَّهُمَا، وَيُعِيدَاهُمَا إِلَى صُورَتِيهِمَا.

مَرَّ — عَلَى بَقَائِهِمَا فِي الْجَزِيرَةِ — أَسْبُوعٌ. فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ، جَلَسَ «أَبُو الْغُصْنِ»
مُفَكَّرًا فِي مَصِيرِ الشَّقِيقَيْنِ. لَمْسَتْ أَنَّا مُلْهَمٌ «مِصْبَاحُ الْكَنْزِ» بِغَيْرِ الْكِتْرَاتِ.

لَمْ يَنْتَظِرِ الْمِصْبَاحُ سُؤَالَهُ. ابْتَدَرَهُ الْمِصْبَاحُ قَائِلًا: «قَرَّ عَيْنَا، يَا «أَبَا الْغُصْنِ».
اَطْمَئِنَّ بِالْأَلَّ. حَانَ الْوَقْتُ لِإِنْجَازِ رَغْبَتِكَ، وَتَحْقِيقِ أَمْنِيَّتِكَ. هَا هُوَ ذَا: رَئِيسُنَا — «أَمِيرُ
الْجِنِّ» — قَادِمًا عَلَيْكَ.»

طَرْقَةُ قَوِيَّةٍ: «تِمْ ... تِمْ ...!»
تَنَبَّهَ مَنْ فِي الْقَصْرِ إِلَى حُضُورِ أَمِيرِ الْجِنِّ.

(٣٥) قُضَايَا «عَبْقَرِ»

حَانَتْ سَاعَةُ الْلِقاءِ. أَقْبَلَ الْحَاجُ، فِي يَدِهِ عَصَمًا مِنَ الْعَاجِ. دَعَا «أَبَا الْغُصْنِ» وَأَصْحَابَهُ
لِلْمُنْتُولِ بَيْنَ يَدَيْ قُضَايَا «عَبْقَرِ». لَبَّى الْجَمِيعُ دَعْوَةَ الْحَاجِ. تَبَعَهُ «أَبُو الْغُصْنِ»
وَ«رَبَابَةُ» وَوَلَادَاهُمَا، وَحَمَارُهُمْ وَبَقْرُهُمْ.

مَشَى خَدُمُ الْقَصْرِ فِي أَثْرِهِمْ يَرْتَدُونَ أَنفَسَ الْحُلَلِ، بَيْنَ صُفْرٍ وَخُضْرٍ.



مَثَلُوا جَمِيعًا فِي دَارِ الْقَضَاءِ. كَانَ الرَّئِيسُ «أَبُو شَعْشَعٍ» – صَاحِبُ النَّظَرَةِ الثَّاقِبَةِ وَالْوَجْهِ الْبَهِيِّ – يَتَوَسَّطُ قُضَاءَ «عَبْقَرٍ». كَانَتِ الرَّهْبَةُ تَسُودُ الْمَكَانَ.

كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» وَ«رَبَابَةُ» يَتَقَدَّمَانِ الْجَمِيعَ. ابْتَدَرَهُمَا الرَّئِيسُ بِالْتَّرْحِيبِ وَالتَّحِيَّةِ حِينَ رَاهُمَا. عَرَفَهُ «أَبُو الْغُصْنِ». لَمْ تَغْبُ عَنْهُ صُورَتُهُ. كَانَ قَرِيبَ الشَّبَهِ بِمَنْ رَاهُ فِي الْكَهْفِ الْمَسْحُورِ.

لَمْ تَعْرِفْهُ «رَبَابَةُ» وَوَلَدَاهَا. رَأَيَاهُ – مِنْ قَبْلٍ – فِي هَيْنَةِ شَيْخٍ فَقِيرٍ. الْكُنْ يَبْدُو أَمَامَهُمْ فِي صُورَةٍ أُخْرَى: صُورَةُ قَاضٍ مَهِيِّبٍ الطَّلْعَةِ، رَائِعٍ السَّمْتِ، مَوْفُورٍ الشَّبَابِ.

عَقَدَتِ الدَّهْشَةُ أَسْنَتَهُمْ حِينَ رَأَوْهُ. أَدْرَكَ أَمِيرُ الْجِنِّ حَيْرَتَهُمْ.

(٣٦) حَوَارُ «أَبِي شَعْشَعٍ»

عَمَرُهُمْ أَمِيرُ الْجِنِّ بِبَشَاشَتِهِ وَلُطْفِهِ، ابْنَدَرَهُمْ قَائِلًا: «مَا أَسْرَعَ مَا نِسِيْتُمُ الشَّيْخَ الْهَرِمَ أَبَا شَعْشَعَ!»

«جَحْوَانُ» لَا يَكَادُ يُصَدِّقُ مَا تَسْمَعُهُ أَذْنَاهُ، «جَحْوَانُ» يَقُولُ: «يَا لِلْعَجِّبِ، أَنْتَ أَبُو شَعْشَعٍ؟!»

سَكَّتَ أَمِيرُ الْجِنِّ لَحْظَةً.

ابْنَسَمْ «جَحْوَانُ» قَائِلًا: «كَانَ أَبُو شَعْشَعٍ» — حِينَ رَأَيْتُهُ — شَيْخًا هَرِمًا طَاعِنًا فِي السِّنِّ، دَمِيمَ الْخَلْقَةِ! أَمَّا أَنْتَ ...!»

قَالَتْ «رَبَابَةُ»: «هَيْهَاتِ أَنْ تَخْفِي مَلَامِحَ السَّيِّدِ الْجَلِيلِ عَلَى مَنْ رَأَى ضَيْفَ الْأَمْسِ، وَقَاضِي الْيَوْمِ: عَيْنَكَ عَيْنَاهُ، سِيمَاكَ سِيمَاهُ، لَكَ بَشَاشَتُهُ وَإِشْرَاقُ مُحَيَّاهُ! هَيْهَاتِ أَنْ نَنْسِي فَضْلَكَ عَلَيْنَا، وَمَا أَسْلَفْتَهُ مِنْ إِحْسَانٍ إِلَيْنَا.»

جَمْجَمَ «أَبُو شَعْشَعٍ». قَالَ دُونَ أَنْ يَسْمَعُهُ أَحَدٌ: «يَا لَكِ مِنْ سَيِّدٍ وَفَتَّةٍ، كَرِيمَةٍ دَيْكَيْةٍ!»

الْتَّفَتَ إِلَى «أَبِي الْغُصْنِ» قَائِلًا: «تَكَلْمُ، يَا صَدِيقِي، مَاذَا تُرِيدُ مِنِّي؟»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي غَيْرِ تَرْدِيدٍ: «أُرِيدُ مَعْوَنَتَكَ لِتُخْفِفَ مِنَ الْحَمَاجَةِ الَّتِي ازْتَكَبْنَاها. يُؤْسِفُنِي أَنْ لَيْسَ لِي حِيلَةٌ فِي رَدِّ مَا فَعَلْتُ إِذَا خَذَلْتَنِي مَعْوَنَتَكَ.»

شَخْصٌ «أَبُو شَعْشَعٍ» بِتَنْظِيرِهِ التَّفَادِي إِلَى الدَّائِبَيْنِ. قَالَ: «كَلَّا، لَا تَنْدَمْ — يَا «أَبَا الْغُصْنِ» — عَلَى مَا فَعَلْتَ. مَا أُرَاكَ أَسْرَفْتَ فِي قَسْوَتَكَ، وَلَا غَلَوْتَ فِي عِقَابِكَ. أَنَا أَعْرِفُ مَا تُرِيدُ، لَا حَاجَةٌ إِلَى مَزِيدٍ.»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ» مُتَشَفِّعًا: «حَسْبُ التَّاعِسِينِ مَا أَصَابَهُمَا مِنْ عِقَابٍ. مَا أَجْدَرَهُمَا بِصَفْحِكَ!»

(٣٧) نِهَايَةُ الشَّقَاءِ

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «أَتَظْنُهُمَا تَابَا عَنِ الشَّرِّ، وَكَفَّا عَنِ الْأَذِيَّةِ؟»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «أَغْلَبُ الظُّنُونِ أَنَّهُمَا تَابَا وَأَنَابَا.»

قالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «مَا دُمْتَ تَرَى ذَلِكَ؛ فَلْيُكُنْ لَكَ مَا تُرِيدُ!»
 أَشَارَ «أَبُو شَعْشَعٍ» إِلَى الدَّابَّتَيْنِ: جَمْجَمَ الْفَالَّفَاظًا غَرِيبَةً مِنَ السُّحْرِ بِصُوتٍ مُنْخَفِضٍ.
 عَادَ الْمُسْحُورَانِ إِلَى صُورَتِهِمَا الْأُولَى. تَبَدَّلَتْ فَرْوَاتَاهُمَا. تَحَوَّلَتْ هَيَّتَاهُمَا. زَائَلَتُهُمَا
 الْحِمَارِيَّةُ وَالْبَقْرِيَّةُ. عَادَا إِلَى صُورَتِهِمَا الْأَدْمِيَّةِ.
 مَا إِنْ رَأَى الشَّقِيقَيْنَ هَذِهِ الْخَاتِمَةَ السَّعِيَّدَةَ حَتَّى فَاضَ قَلْبَاهُمَا بِشُكْرٍ «أَبِي
 شَعْشَعٍ». اسْتَشْعَرَا الْحَيْرَةَ وَالنَّدَمَ، ذَرَفَتْ أَعْيُنُهُمَا الدُّمُوعَ، وَهِيَ دَلِيلُ التَّوْبَةِ كَمَا تَعْلَمُ.
 نَظَرَ إِلَيْهِمَا «أَبُو الْغُصْنِ» فِي دَهْشَةٍ. لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُمَا. حُيْلٌ إِلَيْهِ أَنَّهُمَا شَخْصَانِ
 آخَرَانِ.

سَأَلَهُ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «مَاذَا لِكَ، يَا أَبَا الْغُصْنِ؟»
 سَكَتَ «أَبُو الْغُصْنِ». عَقَدَتِ الدَّهْشَةُ لِسَانَهُ. لَمْ يَنْطِقْ بِحَرْفٍ.
 سَأَلَهُ أَمِيرُ «عَبْقَرٍ» بَاسِمًا: «أَيْدِهِشُكَّ مَا تَرَاهُ عَلَى أَسَارِيرِ صَاحِبِيْكَ مِنَ الْوَدَاعَةِ
 وَالْطُّمَانِيَّةِ؟ سَلَهُمَا يُنْبِئَكَ عَنْ سِرِّ تَحْوِلِهِمَا مِنَ السُّخْطِ إِلَى الرَّضَى!»

(٣٨) شُكْرُ «الْعُكْمُوْسِ»

لَمْ يَنْتَظِرِ الْعُكْمُوْسُ» سُؤَالَ «أَبِي الْغُصْنِ». لَمْ يُطْقِ صَبِرًا عَلَى السُّكُوتِ بَعْدَ أَنْ اسْتَرَدَ
 آدَمِيَّتَهُ، ابْتَدَرَهُ قَائِلًا: «شُكْرًا لَكَ، يَا أَبَا الْغُصْنِ». أَصْبَحَتُ الْيَوْمَ خَلْقًا آخَرَ.
 الْمَاكِرُ الْحَيْبَتُ الَّذِي أَفْسَدَ النَّهُمُ وَالْجَشُعَ وَالْتَّفَاقِيِّ فِي جَمِيعِ الْمَالِ. لِقِيَتُ جَزَائِيَّ الْعَادِلِ
 حِينَ لِيَسْتُ حَلْدُ الْحِمَارِ: ذَلِكَ الْحَيَوَانُ الْوَدِيعُ الصَّابِرُ. كَانَ إِلَهَدَا الْقِصَاصِ أَحْمَدُ الْأَئْرُ
 فِي نَفْسِي. عَرَفْتُ قِيمَةَ الْأَهَانَةِ وَالشَّرْفِ. ظَلَلْتُ طَوَالَ الْعَامِ حِمَارًا شَرِيفًا. مَا أَجْدَرَنِي أَنْ
 أَنْتَفِعَ بِهَذَا الدَّرْسِ! مَا أَجْدَرَنِي أَنْ أَقْضِيَ مَا يَقِيَ مِنْ عُمْرِي رَجُلًا شَرِيفًا!
 شُكْرًا لَكَ — يَا «أَبَا الْغُصْنِ» — إِذْ أَعْطَيْتَنِي دَرْسًا قَاسِيًا لَا أَنْسَاهُ. إِلَيْكَ يَرْجِعُ
 الْفَضْلُ فِي أَنْ أَكُونَ الْيَوْمَ غَيْرِي بِالْأَمْسِ. انْقُلَبَ حِقْدِي حُبًّا، وَمَضَرَّتِي نَفْعًا، وَطَمَعِي

فَنَاعَةً وَرُهْدًا. شَدَّ مَا تَبَدَّلَتْ نَفْسِي! مَا أَشْوَقَنِي إِلَى التَّعْجِيلِ بِرَدٍّ مَا اغْتَصَبْتُهُ مِنْ مَالِكٍ إِلَيْكَ. سَتَرَانِي — مُنْذُ الْيَوْمِ — مِنْ أَوْفَى أَصْدِيقَاتِكَ قَلْبًا، وَأَشَدَّهُمْ حُبًّا، وَأَكْثَرُهُمْ إِخْلَاصًا، وَأَعْظَمُهُمْ نَفْعًا.»

(٣٩) شُكْرُ «الْحَوَارِ»

قَالَ «الْحَوَارُ»: «شُكْرًا لَكَ، يَا «أَبَا الْفُصْنِ». مَا أَنْسَ لَا أَنْسَ مَا أَسْدَيْتَهُ إِلَيَّ مِنْ فَضْلٍ عَظِيمٍ. كَانَ لِمَا أَلْحَقْتَ بِي مِنْ قِصَاصٍ أَحْمَدُ الْأَثْرِ فِي تَبْدِيلِ طَبَّعِي الشَّرِسِ الْجَامِحِ، وَتَوْجِيهِهِ إِلَى الرَّحْمَةِ وَحُبِّ الْخَيْرِ. أَنَا — مُنْذُ الْيَوْمِ — طَوْعٌ أَمْرِكَ وَرَهْنٌ إِشَارَتِكَ. أَنْتَ فَيَّدَتِنِي بِإِحْسَانِكَ، وَطَوَّقْتِنِي بِكَرَمِكَ. سَأَظْلِلُ أَسِيرَ فَضْلِكَ مَا دُمْتُ حَيًّا.»

(٤٠) دُعَابَاتُ مُسْتَمْلَحَةٍ

قَالَ «جَحَوَانُ» وَ«جَحِيَّةُ»، وَهُمَا يَنْظُرَانِ إِلَى «الْعُكْمُوسِ» مُتَحَابِثَتِينِ: «لَا بَأْسَ إِذَا فَقَدْنَا حِمَارًا نَافِعًا!»

أَجَابَهُمَا «الْعُكْمُوسُ» ضَاحِكًا: «يَا! لَنْ تَخْسِرَا بِهَذَا شَيْئًا. لَكُمَا أَنْ تَرْكَبَا فَوْقَ ظَهْرِي، مَتَّى شِئْتُمَا!»

ابْتَدَرَاهُ ضَاحِكِينِ: «عَلَى أَيِّ حَالٍ، أَحَبَبْنَا «الْعُكْمُوسَ» حِمَارًا، أَكْثَرُ مِمَّا أَحَبَبْنَا إِنْسَانًا!»

ضَحِّكَ قُضَادُ «عَبْقَرِ» مِنْ دُعَابَاتِ الصَّغِيرَيْنِ. قَالَ لَهُمَا أَمِيرُ الْجِنِّ: «هُوَنَا عَلَيْكُمَا سَاعْوَضُكُمَا حَيْرًا مِمَّا فَقَدْتُمَا.»

الْتَفَتَ «أَمِيرُ الْجِنِّ» إِلَى «أَبِي النَّجَاءِ» قَائِلًا: «أَلَا تَرْغَبُ فِي الْعَوْدَةِ إِلَى عَرْشِكَ الَّذِي فَقَدَّتْهُ، جَرَاءَ ظُلْمِكَ وَجَبْرُوكَ؟ الْأَنْ أَصْفَحُ عَنْكَ، جَرَاءَ حِدْمَتِكَ وَطَاعَتِكَ، بَعْدَ أَنْ صَحَّتْ تَوْبَتِكَ وَخَلَصَتْ نِيَّتِكَ. الْأَنْ أُعِيدُ إِلَيْكَ الْقُوَّةَ وَالْمُلْكَ. عُدْ إِلَى بَلِدِكَ آمِنًا، يَا «أَبَا النَّجَاءِ». حَذَارٌ أَنْ تَتَنَكَّبَ سَبِيلَ الرِّفْقِ وَالْعِدَالَةِ مَرَّةً أُخْرَى.»

شَكَرَ لَهُ «أَبُو النَّجَاءِ» صَفْحَهُ وَكَرْمَهُ.

(٤١) رجاء «زمُرُدَةَ»

أَسْرَعْتُ «زمُرُدَةَ» إِلَى أَمِيرِ الْجِنِّ قَائِلَةً: «لَا أُرِيدُ أَنْ أَعُودَ آدَمِيَّةً كَمَا كُنْتُ. بِرَبِّكَ إِلَّا مَا أَبْقَيْتَنِي طَائِرَةً، كَمَا أَنَا. لَا أَكْتُمُ أَنَّنِي شَعَرْتُ بِالسَّعَادَةِ مُذْ اتَّقَلْتُ – مِنْ عَالَمِ الْأَنَاسِيِّ – إِلَى عَالَمِ الطَّيْرِ الرَّحِبِ، مُحْلَّةً فِي الْجَوَّ، طَائِرَةً بَيْنَ الْأَشْجَارِ، مُتَنَقْلَةً مِنْ فَنِّ إِلَى فَنِّ فِي ابْتِهَاجٍ وَإِيْنَاسٍ. مَا أَرْهَدَنِي إِلَيْهِ الْعَوْدَةِ إِلَى عَالَمِ النَّاسِ.

لَا. لَا ... هَا! لَا تَسْلُبْنِي – يَا أَمِيرِ الْجِنِّ – جَنَاحِي وَمِنْقَارِي، وَمَحَالِّي وَأَظْفَارِي. لَا تَحْرِمْنِي تَاجِي الْأَحْمَرِ الْبَاهِيِّ، وَرِيشِي الْأَحْضَرِ الْزَاهِيِّ. لَا تَنْزَعْ حَيْرَ حُلَّةِ أَرْتِدِهَا، وَأَخْتَالُ فِيهَا. مَا أَسْعَدَنِي أَنْ أَطْيِرَ فِي الْفَضَاءِ، أَغْنِي وَأَتَرِثُ كَمَا أَشَاءُ!»

قَالَ أَمِيرُ الْجِنِّ: «لَكِ مَا تَشَاءِينَ يَا «زمُرُدَةَ». ابْقِي بَيْنَاهُ كَمَا تُرِيدِينَ.»

(٤٢) حَوْضُ «عَبْقَرٍ»

أَشَارَ أَمِيرُ الْجِنِّ إِلَى نَافُورَةٍ كَبِيرَةٍ، يَتَحَدَّرُ مَأْوَاهَا صَافِيًّا نَقِيًّا، فِي حَوْضٍ كَبِيرٍ، شَبِيهٍ بِالْحَوْضِ الَّذِي رَأَاهُ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي الْكَهْفِ الْمَسْحُورِ.

الْتَّفَتَ أَمِيرُ الْجِنِّ إِلَى «أَبِي الْغُصْنِ» وَمَنْ مَعْهُ قَائِلًا: «أَغْمِسُو أَنَّا مَلَكُمْ^{٣٤} فِي هَذَا الْحَوْضِ. إِنَّهُ حَوْضُ «عَبْقَرٍ». مَتَى غَمَسْتُمْ فِيهِ أَنَّا مَلَكُمْ طَهَرْتُ نُفُوسُكُمْ، وَطَالَتْ أَعْمَارُكُمْ، وَأَمْنَتُمُ الصَّعْفَ وَالْمَرَضَ طُولَ حَيَاتِكُمْ. لَكِنَّهُ لَنْ يَدْفَعَ عَنْكُمْ غَائِلَةَ الْمَوْتِ! اللَّهُ وَحْدَهُ – يَهُبُ الْخُلُودَ لِمَنْ يَشَاءُ.»

انْدَفَعَ الْجَمِيعُ إِلَى حَوْضِ «عَبْقَرٍ»، يَغْمُسُونَ فِيهِ أَنَّا مَلَكُمْ فَرْحَانِينَ.

مَا كَانَ أَسْعَدَ «أَبَا الْغُصْنِ» وَ«رَبَابَةَ» إِذْ ضَمِنَا وَقَايَةَ وَلَدَيْهِمَا مِنَ الْآلَمِ وَالْمَرَضِ، وَحَفَظْهُمَا مِنَ الضَّنَى وَالسَّقَمِ، وَتَبَارِيَحِ الْآلَمِ! أَنْسَتُهُمُ الْخَاتِمَةَ السَّعِيَّةَ مَا لَقُوهُ طَوَالَ حَيَاتِهِمْ مِنْ أَشْجَانٍ، وَمَتَاعِبٍ وَأَحْزَانٍ.

^{٣٤} رعوس أصابعكم.

(٤٣) الْعَفْوُ عَنِ الْمُتَصَافِعِينَ

لَمْ تَنْسِ «رَبَابَةُ» أَنْ تَطْلُبَ مِنْ أَمِيرِ «عَبْقَرِ» أَنْ يَشْمَلَ بِرِعَايَتِهِ أُولِئِكَ الْمُتَصَافِعِينَ مِنْ لُصُوصِ الصَّحْرَاءِ.

لَمْ يَرَدَّدْ أَمِيرُ الْجِنِّ فِي إِجَابَتِهَا إِلَى طَلْبِهَا، وَتَحْقِيقِ رَغْبَتِهَا. أَعْفَى لُصُوصَ الصَّحْرَاءِ مِنَ التَّصَافُعِ وَالرَّقِصِ. لَمْ يَقْفُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ. أَضْفَى عَلَيْهِمْ بِرَهْ وَأَعْطَفَهُ، وَصَفَحَهُ وَلَطْفَهُ. كَفَلَ لَهُمْ حَيَاةً كَرِيمَةً وَأَرْضَاهُمْ، وَأَسْعَدَهُمْ وَأَغْنَاهُمْ. مَنْهُمْ دَسْكَرَةٌ كَبِيرَةٌ، بِمَا تَحْوِيهِ مِنْ مُعَدَّاتِ الْحَرْثِ وَالرَّزْرَعِ وَقُطْعَانِ الْمَاشِيَةِ. كَانَ هَذَا آخِرَ عَهْدِ الْأَشْقِيَاءِ بِالسَّلْبِ وَالنَّهْبِ.

(٤٤) هَدَائِيَا أَمِيرِ الْجِنِّ

أَغْدَقَ أَمِيرُ الْجِنِّ عَلَى ضُيُوفِهِ – مِنْ هَدَائِيَا «عَبْقَرِ» – نَفَائِسَ لَا تُحَصِّرُ. أُودَعَ هَدَائِيَا فِي صَنَادِيقَ كَبِيرَةٍ مِنْ خَشْبِ الصَّنْدَلِ وَاللَّيْمُونِ وَالسَّاجِ، مُحَلَّةً بِالْيَاقُوتِ، مُطَعَّمَةً بِالْعَاجِ. التَّفَتَ أَمِيرُ الْجِنِّ إِلَى «جَحْوَانَ» قَائِلًا: «أَفِي قُدْرَتِكَ أَنْ تَحْمِلَ كُلَّ هَذِهِ النَّفَائِسِ إِلَى بَيْتِكَ؟»

أَجَابَهُ «جَحْوَانُ»: «لَا سَيِّلَ إِلَى ذَلِكَ – يَا أَمِيرِ الْجِنِّ – إِلَّا إِذَا دَقَّتْ ٢٠ أَحْجَامُهَا، وَصَغَرَتِ الصَّنَادِيقُ التَّيْ تَحْوِيهَا؛ بِحَيْثُ تَسْعُهَا جِيُوبِيِّ!» قَالَتْ «جُحَيَّةُ»: «مَا أَحْسَنَ أَنْ يَأْدَنَ أَمِيرُ الْجِنِّ بِتَقْلِيَّهَا إِلَى بَيْتِنَا عَلَى جَمْهَرَةِ مِنِ الْبَغَالِ وَالْحَمِيرِ!»

قَالَ «جَحْوَانُ»: «ذَلِكَ رَأْيُ سَدِيدٍ، يَا أُخْتِي. إِنَّا تَفَضَّلَ أَمِيرُ الْجِنِّ بِتَحْقِيقِهِ، كَسْبَنَا الْهَدَائِيَا وَالدَّوَابَّ التَّيْ تَحْمِلُهَا.»

ابْنَدَرَهُمَا أَمِيرُ الْجِنِّ قَائِلًا: «لَكُمَا مَا تُرِيدَانِ!» مَا أَسْرَعَ مَا رَأَوْا قَافِلَةً كَبِيرَةً، تَخْرُجُ مِنْ قَصْرِ «عَبْقَرِ»؛ مُعَدَّةً لِحَمْلِ الْأُسْرَةِ الْجُحَوِيَّةِ وَضَيْفِيهَا وَهَدَائِيَاهُمْ.

٤٥) مُفَارَقَةُ الْمِصْبَاح

سَمِعَ «أَبُو الْغُصْنِ» صَوْتًا خَافِتًا يَهُمُّسُ قَائِلًا: «مَا أَسْعَدَنِي بِإِنْجَازِ مَا تُكْلِفُنِيهِ» ٣٦ —
يَا «أَبَا الْغُصْنِ» — مِنْ مَهَامَّ.
كَانَ صَوْتُ «مِصْبَاحِ الْكَنْزِ».

ابْنَدَرُهُ «أَبُو الْغُصْنِ» شَاكِرًا لَهُ مَا أَسْدَاهُ إِلَيْهِ مِنْ مُسَاعِدَةٍ كَرِيمَةٍ. عَنْ لِـ«أَبِي الْغُصْنِ»
خَاطِرٌ نَبِيلٌ. قَالَ لِنَفْسِهِ: «مَا أَجْدَرَنِي بِرَدِ الْمِصْبَاحِ إِلَى أَمِيرِ الْجَنِّ! مَا أَجْدَرَنِي أَلَا أَعْوَلَ
عَلَى أَحَدٍ غَيْرِي.

مَا أَجْدَرْنِي بِالْأَعْتِمَادِ عَلَى نَفْسِي، دُونَ أَنْ أَسْتَعِنَ بِقُوَّةِ سَوَى قُوَّتِي. لَوْ بَقَيَ
مِصْبَاحُ الْكَنْزِ مَعِي، لَمْ آمِنْ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَيَّ الْضَّعْفُ، كَمَا تَغَلَّبَ عَلَيَّ مِنْ قَبْلُ، فَتَغْرِيَنِي
قُوَّتُهُ بِأَنْ أَدْفَعَ إِلَيْهَا بِمِثْلِهَا. كَلَّا! لَنْ تَتَمَسَّ الْعَوْنَ — فِي حَيَاتِي — إِلَّا مِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ.
هُوَ حَسِيبِي، وَهُوَ نَعْمَ الْمَوْلَى، وَنَعْمَ النَّصِيرِ.

تَوَجَّهَ «أَبُو الْغُصْنِ» بِالرَّجَاءِ إِلَى أَمِيرِ الْجَنِّ أَنْ يَسْتَرِّدَ وَدِيْعَتَهُ النَّفِيسَةَ بَعْدَ أَنْ ضَاعَفَ لَهُ التَّنَاءُ وَالشُّكْرُ. اشْتَدَّ إِعْجَابُ أَمِيرِ الْجَنِّ، بِمَا شَهَدَهُ مِنْ حِكْمَةِ «أَبِي الْغُصْنِ»، وَرَجَاحَةِ عَقْلِهِ، وَبَعْدَ نَظَرِهِ.

٤٦) أَلْمُ الْفِرَاق

حَانَتْ سَاعَةُ الرَّحِيلِ.

شَهَدَ أَمِيرُ الْجِنِّ دَمْعَةً تَتَرَقَّبُ فِي عَيْنِ «أَبِي الغُصْنِ». أَدْرَكَ أَمِيرُ الْجِنِّ مَا يَدُورُ بِنَفْسِ «أَبِي الغُصْنِ» مِنْ أَلْمٍ لِفِرَاقِهِ. قَالَ لَهُ يُطْمِئِنُهُ: «لَا تَأْسٌ وَلَا تَحْزُنْ، يَا صَدِيقِي الْعَزِيزِ. عُدْ إِلَى بَيْتِكَ غَانِمًا مَسْرُورًا. لَنْ نَفْتَرَقْ بَعْدَ الْيَوْمِ. أَنْتَ أَخِي مَدَى الْحَيَاةِ! سَتَحْدُنِي مَعَكَ كُلَّمَا أَرْدَتْ. ذَلِكَ وَعْدٌ أَخْذَتُ بِهِ نَفْسِي: سَتَرَى «أَبَا شَعْشَع» يَطْرُقُ بَابَكَ

٣٦ ما تأمرني به مما يشق عليك.

— بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ — وَيَحْلُّ فِي بَيْنَكَ ضَيْفًا. إِنَّ رُؤْيَتَكَ تُسْعِدُنِي، وَتُرْفَهُ عَنِّي وَتَبْهَجُنِي. إِنَّ لِقَاءَكَ يُهَوِّنُ عَلَيَّ مَا أَرَاهُ — فِي غَيْرِكَ — مِنْ جُحُودٍ وَعُقُوقٍ، وَإِهْدَارٍ لِلْحُقُوقِ.»

(٤٧) رَغْبَةُ «أَبِي النَّجَاءِ»

حَانَ مَوْعِدُ الْعُودَةِ، فُتَنَ «أَبُو النَّجَاءِ» بِمَا رَأَاهُ مِنْ شَمَائِلِ «أَبِي الْغُصْنِ». آتَرَ أَنْ يَقْضِيَ مَعْهُ مَا يَقْبِي مِنْ حَيَاةِهِ. زَهَدَ فِي الْعُودَةِ إِلَى عَرْشِهِ. اسْتَأْذَنَ أَمِيرَ الْجِنِّ فِي أَنْ يَكُفَّلَ لَهُ تَحْقِيقَ رَغْبَتِهِ فِي الْبَقَاءِ إِلَى جِوارِ «أَبِي الْغُصْنِ». كَبَرَ عَلَى «أَبِي النَّجَاءِ» فِرَاقُ «جُحَيَّةَ» وَ«جَحْوَانَ». أَعْجَبَ أَمِيرُ الْجِنِّ بِوَفَائِهِ. لَمْ يَتَرَدَّدْ فِي تَحْقِيقِ رَجَائِهِ. طَلَبَ أَمِيرُ الْجِنِّ إِلَى «أَبِي السَّمَعَمَعِ» أَنْ يَحْمِلْهُمْ إِلَى «الْوَاحَةِ الْمَسْحُورَةِ»، لِيُعْوِدُهُمْ مِنْ حَيْثُ جَاءُوا. لَمْ يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ فِي الْقَافِلَةِ. لَمْ يَقْصُّ مِنْهَا غَيْرُ نَهِيقِ الْحِمَارِ وَخَوَارِ الْبَقَرَةِ. تَوَثَّقْتُ أَوَاصِرُ الْمَوَدَّةِ بَيْنَهُمْ، بَعْدَ أَنْ يَلْغُوا وَطَنَهُمْ. عَاشَ الْجَمِيعُ أَصْفِيَاءُ مُؤْتَلِفِينَ، خُلَصَاءُ مُتَحَابِينَ!

(٤٨) عَرْضُ مَرْفُوضُ

عَرْضُ «أَبُو الْغُصْنِ» عَلَى جَارِتِهِ «زُبِيدَةَ» أَنْ تَخْتَارَ أَحَدَ صَاحِبِيَّهُ زَوْجًا لَهَا، بَعْدَ أَنْ عَادَ إِلَى كُلِّهِمَا شَرَأُهُ وَذَكَأُهُ. لَمْ تَسْتَجِبْ «زُبِيدَةَ» إِلَى اقْتِرَاحِهِ. لَعَلَّهَا نَفَرَتْ مِنِ الرَّوَاجِ بِرَجْلٍ كَانَ حِمَارًا أَوْ بَقَرَةً! آتَرَتْ «زُبِيدَةَ» أَنْ تَبْقَى إِلَى جَانِبِ «جَحْوَانَ» وَ«جُحَيَّةَ». كَانَتْ لَهُمَا أَمَّا ثَانِيَةَ، لَا تُقْصِرُ فِي الْعِنَايَةِ بِهِمَا، وَلَا تَدْخُرُ جُهْدًا فِي إِسْعَادِهِمَا.

(٤٩) حَاتِمَةُ الْقِصَّةِ

عَاشَ الْجَمِيعُ فِي دَعَةٍ وَسَكِينَةٍ، وَأَمِنَّ وَطْمَانِيَّةً، تَغْمُرُهُمُ الْهَنَاءُ وَالرَّغَادُ، وَتُرْفِرُ فِي عَلَيْهِمْ أَعْلَامُ السَّعَادَةِ، تَرْعَعُ «جَحْوَانَ» وَ«جُحَيَّةَ» فِي ظِلَالِ الصَّحَّةِ وَالْقُوَّةِ، وَالْعَافِيَّةِ وَالْفُتُوَّةِ. حَقَّقَ لَهُمْ أَمِيرُ الْجِنِّ مَا وَعَدَهُ. كَانَ يَبْسُطُ حِمَايَتَهُ عَلَى الْجَمِيعِ.

كَانَ يَزُورُهُمْ – بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ – فِي صُورَةِ شَيْخٍ هَرِمٍ. كَانَتْ أَيَّامُ زِيَارَتِهِ لِلْأُسْرَةِ أَفْرَاحًا وَأَعْيَاذًا، وَبَهْجَةً وَإِسْعَادًا.

اسْتَرَدَ «الْعُكْمُوسُ» وَ«الْخَوَارُ» كُلَّ مَا فَقَدَا مِنْ مَالِهِمَا، اسْتَعَاذَا تَرْوِيَتِهِمَا مِمَّنِ اغْتَصَبَهَا. اسْتَرَدَ «الْعُكْمُوسُ» مِنَ الْقَاضِيِّ مِائَتَيِ الدِّينَارِ.

عَاشَ «أَبُو الْغُصْنِ» وَ«رَبَابَةُ» عِشْرِينَ وَمِائَةً مِنَ السِّنِينَ، مُمْتَحِنٍ بِوَلَدِيهِمَا، سَعِيدٌ بِيُوْفَاءِ جَارَتِهِمَا.

كَانَ الرَّوْجَانِ لَا يَكُفَّانِ عَنْ تَوْصِيَةِ وَلَدِيهِمَا بِالْمُثَابَةِ وَالدُّعُوبِ. كَانَ آخِرُ وَصِيَّةٍ فَاهُ بِهَا «أَبُو الْغُصْنِ»: «الْعَمَلُ. الْعَمَلُ. حَيَّ عَلَى الْعَمَلِ!» كَانَ آخِرُ وَصِيَّةٍ نَطَقَتْ بِهَا «رَبَابَةُ»: «الْوَاجِبُ. الْوَاجِبُ. حَيَّ عَلَى الْوَاجِبِ!»